الغلاف الأمامي

الأكثر مبيعًا وفقًا لصحيفة نيويورك تايمز

أدريان يانج

سينت

زعيم البحار

عودة إلى
منطقة المضايق
مع الجزء
التمهيدي لأحداث
رواية فيبل

"البحر المالح والوعد بخبايا مكنونة في أعماقه؛ جعلني أعكف على قراءة هذه الرواية بنهم".

- شيا إرنشاو، مؤلفة رواية THE WICKED DEEP عن رواية فيبل.

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
...not just a Bookstore ... ليست مجرد مكتبة

الغلاف الأمامي

الأكثر مبيعًا وفقًا لصحيفة نيويورك تايمز

أدريان يانج

سيزن
زعيم البحار

عودة إلى
منطقة المضايق
مع الجزء
التمهيدي لأحداث
رواية فيبل

"البحر المالح والوعد بخبايا مكنونة في أعماقه؛ جعلني أعكف على قراءة هذه الرواية بنهم".

- شيا إرنشاو، مؤلفة رواية THE WICKED DEEP عن رواية فيبل.

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
...not just a Bookstore ...ليست مجرد مكتبة

سينت

زعيم البحار

أدريان يانج

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
...not just a Bookstore
...ليست مجرد مكتبة



للتعرف على فروعنا

نرجو زيارة موقعنا على الإنترنت **www.jarir.com**

للمزيد من المعلومات الرجاء مراسلتنا على: **jbpublications@jarirbookstore.com**

الطبعة الأولى 2024

SAINT

A NOVEL

ADRIENNE YOUNG

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
... not just a Bookstore ...ليست مجرد مكتبة

روايات أخرى بقلم أدريان يانج

سماء في العمق
الفتاة التي لفظها البحر
فيبل
السمِّيّة
الإرث الأخير

إهداء

أهدي هذا العمل إلى كريستين،

أول شخص أئتمنه على أفكاري الإبداعية،
هذا العمل مُهدى إليكِ.

جون بي!

استهلال إيزولد

قصدتُ إلى باب أزرق معلّق فوقه فانوس أسود في شارع فورسيث.

وراء هذا الباب يقبع رجل بوسعه أن يساعدني على الهرب.

انزلقت يدي فوق الجدار ذي السطح غير المستوي أثناء سيري بخطى سريعة، وتردد في الليل دبيب عقب حذائي على الطريق. فيما لم تزل مياه الأمطار تتقاطر من حواف أسطح البيوت، وتتجمع قطرات الماء على النوافذ ذات المصراع الواحد، كما زاد ثقل تنورتي المصنوعة من الحرير الدمشقي إثر ابتلالها.

تتصل أزقة الضاحية الشمالية ودروبها بالضواحي المجاورة من خلال شبكة معقدة من الطرق الممتدة في المدينة المبللة التي شهدت عاصفة من فورها. ومع أن باستيان هي موطني، بيد أنني لم أذهب إلى الضاحية الشمالية قط، ولو بصحبة أبي، إذ ليس ثمة باعث يدفع فتاة مثلي إلى زيارة مثل هذه المنطقة. لقد كنت ابنة تاجرة، وعشت كل يوم من حياتي وغايتي إرضاء والدتي، وإن كنتُ قد غادرت تلك النسخة من نفسي ورائي في منزل آل آزمث، إذ إن ما أحمله في جيبي الآن يمثل خيانة لتلك العائلة، والآن لا أعدو أن أكون خائنة.

همست لنفسي مرة أخرى: "باب أزرق، فانوس أسود".

جال بصري على المباني، وأنا أضيّق عينيَّ في محاولة لأتبيَّن أشكالها وألوانها تحت جنح الظلام. لقد رأيت قبطان السفينة كارفن مرات عديدة في منزل والدتي، وعلى متن سُفنها، لكنه حرص على أن يتحاشاني كما فعل معظم التجار الذين يتعاملون مع والدتي، فما من أحد يريد أن يتعرض لبطشها، إذ إنها تذود بضراوة عن أي شيء ذي قيمة بالنسبة إليها.

بيد أن ذاك القبطان كان صديقًا لأبي، لذلك استجاب لي حين شددته خلف الستائر المطلة على الحفل المضاء بالشموع، وهمست له بأنني بحاجة إلى الفرار من المدينة، وأخبرني بما يتعيَّن عليَّ فعله. بالكاد استطعت أن أتبين صوته العميق وسط أصوات الموسيقى المترددة من حولنا، والآن أتساءل عما إذا كنت قد سمعت ما قاله، أم أنني أخطأت السمع.

الضاحية الشمالية، ابحثي عن الباب الأزرق المعلَّق فوقه فانوس أسود في شارع فورسيث.

ما زال الضوء الدافئ في حفل والدتي يحيط بي وكأنه يتشبث بحواشي ملابسي وأنا أتسلل في الظلام. لكنني لم ألبث أن شعرت بأنه ينسل بعيدًا عني ويتلاشى كما تتلاشى قطرة الحبر في الماء ببطء، وكلما أوغلت في الظلمة تبدَّد ذلك الضوء، واضمحل ذلك الدفء حتى تلاشى كلاهما تمامًا. كنت أودع عالمي القديم؛ غرفة العمل الخاصة بوالدتي، بريق الورق الذهبي الذي يغطي جدرانها، أبي وهو يرمقني من صورته المعلقة، أصداء أغنية منتصف الليل التي كانت تتردد في أرجاء المكان حتى طَنَّت أذناي مما تحدثه من ضجيجها.

في غضون لحظات تَقَوَّض هذا العالم بثلاث كلمات فقط خرجت من فم هولاند: كان تضحية ضرورية.

في طرفة عين كنت قد قررت فتح علبة الأحجار الكريمة، والخروج من ذاك الباب إلى الأبد وبلا عودة.

مسحتُ الدمعة المنسلَّة على خدي، وحثثت الخطى مع انعطاف الدرب وتوغله أكثر في أعماق الضاحية، وأخيرًا لاح الباب الأزرق اللامع وسط صف البيوت المتلاصقة، فلمحته بسهولة. بدا الطلاء حديث العهد، ويكاد يكون طريًّا، ولم يكن الفانوس الأسود المعلق فوق المدخل يحوي شمعة واحدة فقط، بل أضاء بشمعتين تجويف المدخل أعلى العتبات المفضية إلى الباب.

نظرت من فوق كتفي إلى الوراء قبل أن أرتقي العتبات، وأقرع الباب بطرقة خفيفة بيد مرتجفة. كان منتصف الليل قد حل، لكن إذا كان ما سمعته عن الضاحية الشمالية حقيقة، فلن يكون من الغريب على أهلها أن يتوقعوا مجيء زوار في مثل هذه الساعة المتأخرة، إذ شهدت هذه الشوارع المعاملات السرية بعيدًا عن النقابات، وحراسة الميناء، ومجلس التجارة. ولهذا خمنت أن قبطان سفينة كارفن قد أرسلني إلى هنا لهذا السبب.

رفعت قبضتي لأعاود الطرق مرة أخرى قبل أن ينفتح الباب وتظهر من ورائه فتاة لا تكبرني كثيرًا، وجديلتها الطويلة ملفوفة على قمة رأسها كأنها تاج، ولون فستانها البسيط يناسب لون شعرها. ولم يكن ثمة شيء مميز في الفستان يلفت النظر سوى السلسلة الفضية اللامعة الخاصة بساعة جيب مدسوسة في حزامها.

راحت تنقل عينيها الواسعتين الدائريتين ذواتي اللون الداكن على ردائي قبل أن تصوبهما تجاه الشارع من خلفي.

ثم قالت بنبرة حادة أضفت صرامة على قسماتها اللطيفة: "أظن أنكِ طرقتِ الباب الخطأ".

زاد انقباض يديَّ على تنورتي قوة، وانتابني ارتباك، ثم بدأت خصلات شعري تنفلت من دبابيسها، وتنسدل فوق خدي تدفعها هبة من رياح لا تخلو من قطرات مطر.

قلت: "أنا أبحث عن سيمون".

بدا أن الاسم الذي زودني به قبطان السفينة كارفن قد فاجأها، لكن سرعان ما تحوَّلت تعابير صفحة وجهها إلى الفضول. وتفحَّصتني هنيهة بنظرة صارمة مثبتة على وجهي، كأنها تفتش عن شيء فيه، وحالما عثرت عليه فتحت مصراع الباب لأدخل.

عندئذ ألقيت نظرة أخرى صوب الشارع الخالي قبل أن أخطو نحو الضوء الكهرماني الذي يغشى الردهة الضيقة. طقطقت ألواح الأرضية تحت حذائي، وكانت النوافذ ترتج بفعل

الرياح، لكن ثمة دويًا أحسست به في صدري؛ دويًا لشيء مختلف؛ إنه خشخشة أحجار كريمة.

كان ذلك الدوي يحوم بين الجدران، وأحسست بذبذباته في عظامي، وقد ملأ المكان قادمًا من كل جهة.

ولوهلة عابرة أردت أن أعود إلى الباب قبل أن ينغلق، وأفر من هذا الشعور الذي ما برح يطاردني منذ ذلك اليوم الذي أدركتُ فيه والدتي حقيقتي، ولكن الخاطرة تبددت بالسرعة التي انبثقت بها. إذ لم يكن ثمة عودة، ليس الآن.

انزلق مزلاج الباب الثقيل حتى استقر في موضعه، واستدارت الفتاة لتواجهني. وحلت لحظة صمت جعلتني أظن أنها هي أيضًا كانت تعيد النظر فيما إذا كانت قد أخطأت بالسماح لي بالدخول.

ثم أومأت بذقنها، وقالت: "اتبعيني".

احتكت حاشية تنورتي السميكة بجدران الردهة الضيقة، حتى أحسست بأن الردهة تزداد ضيقًا لحظة بعد أخرى. وترامت إلى أذني أصوات مألوفة، مثل الأصوات الصادرة عن أحجار العقيق والزمرد والماس ممتزجة بعشرات من أصوات الأحجار الأخرى، لكن هذه الأحجار الكريمة لا يفترض أن تكون موجودة في مثل هذا المكان. لم يكن المنزل الضئيل المتهالك منزلًا لشخص يرتدي خاتمًا من تلك الخواتم التي تمنحها نقابة الأحجار الكريمة للتجار المعتمدين، وهي الجهة الوحيدة المخوَّلة بجعل هذا النشاط التجاري تحت هذا السقف شرعيًا. لقد اشتهرت الضاحية الشمالية بمجرميها الذين جعلوا أمور والدتي تتأزم خلال السنوات القليلة المنصرمة، لذا رجوت أن يكون هذا آخر مكان تقصده والدتي للبحث عني فيه.

أفضت الردهة إلى سلم حلزوني هبطت عليه الفتاة فتبعتها، ولم تقع عيناي على وجهها لوهلة؛ إذ كانت تنظر خلفها ناحيتي وتقول: "أنتِ محظوظة لأن مجوهراتك هذه وملابسك المضحكة تلك لم تُسلبا منك في الشارع".

لم تكن كلماتها مشوبة بتهديد أو بأي لون من ألوان التوبيخ كذلك. في الواقع بدت كأنها تتعجب حقًّا من حقيقة أنني وصلت إلى هنا سليمة، ولعلها كانت محقة. لقد قطعت الطريق كله من حي التجار إلى هنا عبر الأزقة حتى لا يراني أحد من أتباع والدتي، إذ سرعان ما ستلاحظ والدتي غيابي، صحيح أن غيابي في حد ذاته ليس أمرًا شديد الغرابة، لكنها حين تكتشف ما أخذته معي، ستمشط شوارع المدينة والميناء جميعًا بحثًا عني.

فتحت الفتاة بابًا آخر، ودلفنا إلى قبو كبير معتم لا يضيئه سوى موقد صغير في أحد الأركان. تكاد جدران المكان تكون متوارية تمامًا خلف أكوام الصناديق المغلقة المكدس بعضها فوق بعض حتى السقف، وكانت الصناديق مختومة بأختام موانئ تعرَّفت عليها؛ موانئ تنتشر في منطقتي البحر المجهول والمضايق.

استغرقت هنيهة حتى لمحت الرجل الجالس وراء منضدة خشبية طويلة عند الجانب الآخر من القبو، ورجوت أن يكون هو سيمون. لقد رفع عينيه متثاقلًا عن كومة مخطوطات أمامه ووجههما نحوي، وهو يحاول تركيز نظره عليَّ بصعوبة. وكان شعره البني الفاتح منسدلًا على جبينه، ونصف أزرار قميصه مفتوحة.

عندئذ انزلقت أصابع الفتاة عن مقبض الباب، وقالت وهي مثبتة عينيها عليَّ: "إنها تسأل عنك".

أخيرًا سمحت لقبضتيَّ بترك تنورتي، وأنا أمسح كفيَّ المبللتين في قماشها الناعم، وسألته: "أنت سيمون؟".

فأجاب بنبرة رزينة: "نعم"، وكانت نبرته مثل صفحة وجهه، يتعذر استشفاف شيء منهما، لكنني لمحت عينيه وهما تتوقفان على قرطي اللؤلؤ والياقوت المتدليين من أذنيَّ.

فهممت بالكلام: "اسمي ...".

لكنه قاطعني قائلًا: "أعرف مَن تكونين. السؤال هو: ماذا تفعلين هنا؟".

لم أكن أعتزم تعريفه باسمي الحقيقي، لكن معرفته بي جعلت قلبي يغوص في صدري. لقد نشأتُ وسط التجار التابعين للنقابات، لكنني قضيت معظم أيامي مع بحَّارة السفن الخاصة بوالدتي. ولم يكن هذا الرجل من هؤلاء أو من أولئك، كنت متيقنة أنني لم أره من قبل.

قلت: "قيل لي إن بوسعك إخراجي من المدينة".

فتحركت يداه من فوق المخطوطة المبسوطة، وطواها على المنضدة أمامه، ولوهلة مر بصره تجاه الفتاة الواقفة في المدخل قبل أن يرتد نحوي مرة أخرى، ثم قال: "إن كنت تبتغين مغادرة باستيان، فليس عليكِ سوى التوجه إلى الميناء ودفع ثمن نقلك".

قلت: "لا. لا أستطيع"، وازدردت ريقي وأنا أفكِّر في هولاند، إنها تطلع على كل سجل، وكل قائمة جرد، ومدير الميناء نفسه طوع أمرها.
ثم أردفت: "أنا بحاجة إلى ... الهرب".

عندئذ وقف سيمون ليزيح مقعده الذي دوى صوت احتكاكه بالأرضية غير المستوية خلفه، فجعلني الصوت أتململ في وقفتي. ثم التف حول المنضدة ليواجهني، فتقهقرت خطوة إلى الوراء بحركة عفوية.

سألني: "إلى أين تقصدين؟".

فأجبت ويدي تنقبض على قماش التنورة مرة أخرى: "إلى سيروس".

إن ذهبت إلى مدينة نيمسمير أو ساجساي هولم، فلن تلبث هولاند أن تجدني، إذ ليس ثمة ميناء في منطقة البحر المجهول لا تراقبه. وإن كنت أريد النيل منها، فيجدر بي الفرار إلى منطقة المضايق خارج نطاق سيطرتها.

سألني: "من أرسلك إلى هنا؟".

فأجبته: "قبطان السفينة كارفن".

بدا أن سيمون يفكر في الإجابة هنيهة، وراح يذرع المكان جيئة وذهابًا وذراعاه معقودتان على صدره، غير أن الفتاة بجواري بدت حذرة. لم يكونا أحمقين، إن كانا يعرفان مَن أنا، فإنهما يعلمان من التي أفر منها، وما من امرئ عاقل سيود أن يجابه والدتي. لكن غالب الظن أن هذا الرجل وهولاند على طرفي نقيض.

قال وهو يفكر بصوت مسموع: "لن تلبث أن تنظر في قوائم الركاب"، وكنت ممنونة أنه لم يلفظ اسم هولاند. ثم تابع كلامه: "وثمة طريق واحد فقط لمغادرة باستيان؛ البحر".

قلت: " إذن، سوف أكون ضمن طاقم".

رفع أحد حاجبيه وتساءل: "طاقم؟ تريدين أن تنضمي إلى طاقم سفينة متجهة إلى منطقة المضايق؟".

قلت: "إذا كنت تعرف مَن أكون، فأنت تعلم أنني جرَّافة".

عندئذ كفَّ عن ذرع المكان وهو يحدق إليَّ. إن خبر ابنة هولاند التي تضطلع بأعمال التجريف كان بمنزلة نادرة يتسلى بها تجار النقابات؛ ذلك أن الغوص الحر عند الشعاب المرجانية الممتدة عبر منطقة البحر المجهول بُغية التنقيب عن الأحجار الكريمة لم يكن عملًا ذا وجاهة في هذا العالم. لكن والدتي لم تستغلني في التجريف فقط، بل استغلتني في شيء آخر، وقد كان هذا الشيء هو السبب في انبساط إمبراطوريتها عبر ساحل منطقة

البحر المجهول كله، وبطريقة ما كنت أربي وأطعم التنين الذي التهمني، وكاد لا يُبقي على شيء مني.

لم يكن أبي سعيد الحظ. إذ كان يرى وجوب التكتم على ما لديَّ من موهبة تجعل مني خبيرة أحجار كريمة، لكن في السنوات القليلة الماضية صار التكتم على هذا الأمر مستحيلًا تقريبًا، وفي النهاية إن قلق أبي بشأني وحرصه على مصلحتي أفضى به إلى نهايته.

قلت: "ألحقني بأحد الطواقم، فما دمت متجهة إلى سيروس فلست أكترث بأي طاقم يكون".

لم أكن أعتزم الغوص من أجل مصلحة أي شخص مرة أخرى، ولن أغوص إلا إذا كان غوصي يدر عليَّ أنا نفسي ربحًا. بيد أنني كنت بحاجة إلى سفينة، سفينة لن تدقق والدتي في تحري أمرها.

أمال سيمون رأسه جانبًا وهو يُمعن التفكير في الأمر، ثم قال: "ليست أسوأ فكرة"، وسحب ورقة فارغة من كومة ورق على المنضدة. وأردف: "ثمة سفينة في الميناء من المقرر أن تغادر عند الفجر. اسمها لونا".

تنهدت عميقًا جدًّا جراء إحساس انتابني بالارتياح، حتى شعرت كأنني قد أتهاوى على الأرضية.

أولاني ظهره، وأخذ وقته وهو يغمس ريشة الكتابة في المحبرة بين الفينة والأخرى، ويجفف الحبر بسرعة لينجز الكتابة من فوره. وعندما انتهى، طوى الورقة بعناية، وختمها بشمع أرجواني غامق يشبه لون حجر الجمشت.

وهنا سُمع صوت الفتاة الهادئ بعمق تتساءل، وهي تنظر إلى سيمون: "أأنت متأكد؟"، كدت أنسى أنها كانت واقفة هنالك.

فأجابها بنظرة خاطفة قبل أن يومئ نحوي ويقول: "هذان يفيان بالغرض".

استغرقت هنيهة لأدرك أنه كان يتحدث عن القرطين اللذين كان يتفقدهما عندما دلفت من الباب. وترددت قبل أن أرفع يدي لأخلع القرطين، وأضعهما في كفه. كانت قيمة كل قرط تربو على مائة عملة نحاسية، لكنني كنت أتوقع أن أدفع مبلغًا أكبر.

دسهما في جيب سترته وهو يومئ بذقنه تجاه الباب، حيث كانت الشابة لا تزال تنتظر بنفاد صبر.

ثم سلمها الورقة وقال: "أحضري لها شيئًا تلبسه يا إيدن. واجعلي الخيَّاطة تقطِّع فستانها هذا، سننتفع بحريره".

التفتت الفتاة دون أن تنبس بكلمة تاركة إيانا وحدنا في القبو المعتم.

اتكأ سيمون على حافة المنضدة، وراح يرمقني مع خفوت صوت دبيب خطوات الفتاة وهي ترتقي الدرج. ووقتئذ فقط استطعت أن أشعر بمدى بُعدي عن سياج المنطقة التي كانت تغمرني فيها والدتي بحماية من حديد ورقابة دقيقة، وبدلًا من أن أشعر بالخوف جراء تلك الحقيقة، ثار في نفسي غضب شديد.

قال بصوت لا يكاد يسمع: "يبدو أن الأقدار تحابيني الليلة".

دسست يدي في جيبي أفتش عن الحافظة الصغيرة التي تحوي الحجر الكريم النادر، اسمه حجر قلب الليل. وكان هذا الحجر هو الشيء الوحيد القادر على زعزعة حصن هولاند الحديدي، الشيء الوحيد الذي وجدته يبث في عينيها ومضة تشي بالفزع وراء نظرة الشره تلك التي لا تبرح محجريها.

وبدا أن سيمون يركز انتباهه عليّ في اللحظة التي خطرت لي فيها تلك الخاطرة، ثم سألني: "ما الذي تهربين منه بالضبط يا إيزولد؟".

لم يرُقني سماع اسمي على لسان شخص غريب، ولكن توجد أكثر من إجابة عن هذا السؤال. أهرب من والدتي. أهرب من إمبراطوريتها. أهرب من دمها الذي يجري في عروقي. لم تكن هذه أول مرة أود الهروب فيها، ولكن حين سمعت تلك الكلمات تنطلق من فمه غمرت البرودة قلبي، واعتصرته اعتصارًا حتى تعذر عليَّ التقاط أنفاسي.

كانت تضحية ضرورية.

لقد مر قرابة العام منذ وفاة أبي عند الشعاب المرجانية المعروفة باسم كوكبة يوري، تلك المنطقة التي كثيرًا ما غصت فيها منذ صغري. وصل القبطان الذي كان يدير مهمات الغوص لصالح والدتي بخبر وفاة أبي إلى الميناء؛ سمَّاه حادثًا مروعًا بسبب تَحوُّل مفاجئ في حركة المد والجزر جراء عاصفة مباغتة.

ولم أستبن حقيقة الأمر إلا ليلة الحفل، بعد عام تقريبًا، حين وقفتُ في مكتب والدتي أتنصت إلى حديثها الخافت المختلط بصوت زعيم نقابة الأحجار الكريمة في منطقة البحر المجهول. لقد قالت إن أبي كان تضحية ضرورية.

وعندئذ رُبطت الخيوط بعضها ببعض، خيطًا تلو آخر، حتى تشكلت الصورة في ذهني. لم أستغرق سوى دقائق للعثور على سجلات السفن، ونظرت فلم أجد أي ذكر للعاصفة التي فتكت بأبي وبقلبي في لحظة واحدة.

الحقيقة أنه أراد مغادرة باستيان برفقتي، أراد أن يبعدني عن ظلمات والدتي المتعاظمة، وكنت سأتبعه إلى أي مكان، لكن هولاند حرصت على ألا يوجد من يمكنني أن أتبعه، لا أحد سواها.

اشتدت قبضتي على حافظة الأحجار الكريمة داخل جيبي حتى آلمتني مفاصل أصابعي. إنني لا أنوي إضرام النيران في كل شيء شيدتْه فحسب، بل إن عزمي معقود على طرحها هي أيضًا بين ألسنة لهب تلك النيران.

خطا سيمون خطوة نحوي، وقال: "سألتكِ، ما الذي تهربين منه؟".

رفعت عينيَّ صوب عينيه، وحجر قلب الليل يلهب وسط كفي، كأنه جمرة مشتعلة، ثم أجبته: "من وحش كاسر".

1 سينت

أنبأني أبي ذات مرة بأن الحمقى الذين يجرؤون على الإبحار في منطقة المضايق هم الأموات، أو مَن هم على شفا الموت، ويُخيَّل إليَّ أحيانًا أنني جمعت حماقة كلا الفريقين.

ارتكزت على سور السفينة ريفين بيديَّ، وأنا أشاهد الفوانيس في الميناء على مرمى البصر تضيء، فانوسًا تلو آخر. فيما راحت المياه تتقاطر من الأشرعة المبسوطة من فوقي، وكانت وجوه البحَّارة القلائل على سطح السفينة لا تزال شاحبة إثر خوضنا غمار أمواج عاتية منذ ساعة فقط قبل أن تلوح لنا اليابسة.

ومن خلفهم، وقف كلوف عند عجلة الدفة التي عكست العصي البارزة منها ضوءًا، وهي تدور، وقد شمَّر كمي قميصه المتسخ حتى مرفقيه، وانسدل شعره الأشقر من عقدته، فتطاير على وجهه، ونحن ننعطف باتجاه الرياح.

لقد اخترنا التوجه إلى قرية ديرن لسببين، أولهما أنه ما من باعث يجعلها وجهة لأحد، عدا التُّجار من منطقة البحر المجهول الذين يشترون الحبوب من المزارعين الصغار هناك بثمن بخس أقل من تكلفة زراعتها. وثانيهما أن فيها روزاموند، وهي صانعة السفن الوحيدة المستعدة للمجازفة بقبول نقود يدفعها رجلان من أبناء الصيادين في قرية كراجسماوث، ولا يستطيعان ذكر مصدر شرعي يكسبان منه تلك النقود.

ثمة مصدر لتلك النقود بالطبع، المشكلة أنه مصدر لستُ مستعدًّا للبوح به.

ارتمى ضوء النهار المنحسر على الأشرعة، فكساها بلون كهرماني لامع، وتلألأت قطرات المطر على قماشها المخيط بخياطات متشابكة، فبدت أقرب شبهًا بستائر مليئة بالرقع بعد

أن عمل صانع الأشرعة مرات عديدة على رتقها، حتى إنه في النهاية رفض رفضًا قاطعًا أن يغرز فيه إبرة واحدة مرة أخرى.

لم يكن هو الوحيد الذي عدَّني مخبولًا يرمي نفسه إلى التهلكة بالإبحار في المياه العميقة على متن تلك السفينة العتيقة المتهالكة، لكنني قد نجوت من عواصف عاتية كثيرة بما يكفي لأكف عن التساؤل عما إذا كنت سوف أهلك في خضم عاصفة. إن البحر قد واتته فرص عديدة للفتك بي، بيد أنه لم ينتهزها قط.

بسطتُ يدي، وجعلتُ أمعن النظر في الجرح الحديث الذي يشق كفي بجوار الندوب الملتئمة، ولا يزال رطبًا وملتهبًا، إذ لم تنجرح راحتي إلا في آخر ميناء زرناه، وما فتئ الجرح يلسعني مع تمدد الجلد.

ثم تمتمت متحدثًا إلى كلوف وأنا أدلف إلى الممر الضيق خلفه: "هل دخلنا الميناء؟".

فهتف موجهًا الأوامر إلى أفراد الطاقم قليلي الخبرة، في حين انطلقتُ إلى غرفة القبطان البائسة، حيث تفوح منها رائحة تشبه العفن، وخشبها الرطب مشرب بدخان نبتة البوصير على مدار سنوات، لكنها كانت مأواي طيلة عامين ونصف عام مضت، وظلت طافية، إنها عيشة أفضل من عيشة معظم الأوغاد.

لم يكن ثمة زيت ليضيء الفانوس منذ أسابيع - رفاهية أخرى لا يمكننا تحمل تكلفتها - لذا مع مغيب الشمس كان من المستحيل تقريبًا رؤية أي شيء. ومن ثم تحسست العارضة الخشبية في الغرفة لتقودني إلى الجدار، ورفعت غطاء الصندوق المتاخم له، فأصدرت المفصلات المتصلبة صريرًا، ومددت يدي إلى الداخل. إنني لم أتكلف عناء تخبئة النقود على هذه السفينة؛ إذ لم يكن ثمة أحد أحمق بما يكفي لأن يسرقني. وهذه هي الفائدة التي عادت علينا من الحكايات التي تُروى عنا.

حين نهضت، ظهر انعكاسي على المرآة المستديرة المتشققة بجوار النافذة، فوجدت عينين زرقاوين تطالعانني من أسفل حاجبين كثيفين داكنين، وكانت زوايا وجهي أعمق من المعتاد، وكان شعر ذقني نابتًا في غير تهذيب. إن خزائننا فارغة تمامًا من أية نقود، وكان إشباع البطون، أو الحلاقة، أو إضاءة الفوانيس عناصر تتذيل قائمة أولوياتنا، إذ لن أنعم بأي من تلك الأشياء إلا بعد أن أسدد أجر روزاموند بفترة طويلة.

أخذت العلبة الأسطوانية الطويلة من حيث كانت معلقة على الجدار، وسحبت حزامها فوق رأسي، حتى استقرت العلبة على ظهري. ثم مررت إحدى يديَّ في شعري الضارب للسواد وشددته خلف إحدى أذني، ثم رفعت ياقة سترتي. وكانت حافظة النقود ثقيلة في راحة يدي، وأنا أدسها في جيبي، وعندئذ أصدرت السفينة صريرًا هائلًا من حولي فيما أخذت تتباطأ. ولم أكن متأكدًا مما إن كانت السفينة ريفين المتهالكة تقدر على خوض رحلات إضافية، وكم سيكون عددها، عبر منطقة المضايق، بيد أنني لن أضطر إلى معرفة ذلك.

لبثت أنظر إلى المرآة هنيهة أخرى، وأنا أنفض كتفي سترتي، لم يكن مظهري يشبه من قريب أو بعيد مظهر ذوي الدم المملح الذين يبحرون بسفنهم الفاخرة من منطقة البحر المجهول، وينافسوننا، نحن البائسين، على الموارد الشحيحة في منطقة المضايق. ومع ذلك، في غضون شهر، سوف نبيع السفينة ريفين لأي أحد يريد الاستفادة مما يمكن استعماله من حديدها وخشبها، ثم سنبحر من ديرن تحت شعار تجاري حقيقي.

حين خرجت إلى سطح السفينة، كان كلوف ينتظر عند السلم وهو متكئ على السور، ويراقب جوليان الذي يربط حبال الصاري الأمامي والصرامة بادية على وجهه. لقد اضطربت حركة أصابع العامل اليافع تحت نظرة كلوف، فسحب الحبل وبدأ من جديد. ولم يكن ثمة شيء يرضي ملَّاح السفينة ريفين، ومع وجود قبطان يخوض بهم عواصف عاتية أيضًا لم يكن أفراد الطاقم يبقون معنا طويلًا، لقد اختفوا عدة مرات دون الانتظار حتى يقبضوا أجورهم المستحقة.

لم تكن تلك مشكلة، فثمة أعداد غفيرة من اللقطاء في منطقة المضايق مستعدون للموت من أجل النقود، وعادة ما كنت أستغل هذا الإقدام في خوض رحلات عصيبة قبل أن يدركوا أنهم ليسوا مستعدين للموت من أجل النقود.

ارتدى كلوف قبعته بعد أن أتم العامل مهمته، وسألني: "أمستعد؟".

أجبته: "مستعد".

تبعته إلى الرصيف البحري حيث كان مدير الميناء جيريك ينتظر، وراح يتفحص السفينة بنظرة ممحصة، وشفتين ملتويتين تحت أنفه المدبب. ولم يكن منظر السفينة ريفين يَسُر، لكنني لم أعد أخجل من منظرها منذ أمد بعيد.

غمغم جيريك وهو يدوِّن شيئًا في سجله: "في كل مرة تغادر فيها أكون متأكدًا أنها المرة الأخيرة التي سأرى فيها هذه السفينة"، وارتفع بصره إلى صندوق زجاجات الجاودار الذي أُنزل من فوق سور السفينة خلفنا.

سألته وأنا أنظر إلى فتحة سترته، حيث تكدست مجموعة من الأوراق المطوية على صدره: "ثمة رسائل تخصنا؟".

أجاب "لا".

كززت على أسناني، وأحسست بأن وطأة الثقل على صدري تشتد بعض الشيء. وفي كل مرة نرسو في ميناء أكون منتظرًا وجود استدعاء لنا من مجلس التجارة للتحقيق معنا بشأن مخالفتنا القانون.

ثم سألني: "أظن أن سؤالك هذا يعني أنك لم تحصل بعد على ذاك الترخيص الذي لا تفتأ تؤكد أنك ستحوزه؟".

أجبته: "ليس بحوزتي".

فضيَّق جيريك عينيه وهو يسألني: "إذن، لماذا تفرغ حمولة الجاودار على رصيفي؟".

عندئذ دسست يدي في سترتي بحثًا عن حافظتي الصغيرة التي تحوي النقود، وكنت أعرف أنني سوف أحتاج إليها. الآن بعد أن أصبح لمنطقة المضايق مجلس تجارة مستقل، فإن جميع القباطنة الذين يبحرون في مياه هذا المنطقة يتبارون في الحصول على ترخيص تجاري يسمح لهم بالتنافس مع تجار منطقة البحر المجهول، ونحن مثلهم. بيد أن حيازة ترخيص تستلزم نقودًا كثيرة، وما من سبيل لجمع مثل هذا المبلغ من المال إلا بالتجارة دون ترخيص أولًا، مع رجاء ألا يشي بك أحدهم.

يمكن أن يتقاضى جيريك مبلغًا مقابل التغافل، ولكن يمكن أيضًا أن يتقاضى مبلغًا مقابل الوشاية. وحتى الآن كان الحظ حليفنا.

قلت وأنا أسلِّمه حافظة النقود: "الترخيص قادم".

فأخذها، وأولاني ظهره على الفور، وهو يقول: "هكذا تزعم أنت وكل أحمق يملك سفينة. إن غدًا آتٍ عما قريب، أليس كذلك؟".

غمغم كلوف: "وغد".

كان كلوف يمقت جيريك أشد مما أمقته، وفي الواقع كان يمقت معظم الناس. لقد نشأنا معًا على قوارب صيد عريضة الهيكل في كراجسماوث، وقد أنقذ كل منا الآخر مرات لا تحصى من غمار المياه المتلاطمة، ولكن ليس هذا هو السبب في أنه الإنسان الوحيد الذي أثق به في منطقة المضايق، إذ بوسع أي شخص أن يلقي حبلًا لرجل يغرق بغية إنقاذه، أما الأصعب، ويكاد يكون مستحيلًا، فهو أن تجد شخصًا يمسك بك قبل أن تسقط من فوق السفينة أصلًا، ينقذك قبل أن تقع في الأزمة.

سحبت الساعة من جيبي، وأملتها نحو ضوء الفانوس، ثم قلت: "ينبغي أن أنجز ذلك سريعًا".

ألقى كلوف بنظرة سريعة على الأرصفة من حولنا، في حين انطلقتُ صوب الدرج، وبعد هنيهة ترامى إلى أذني دبيب خطواته من ورائي. لم تكن ديرن أكثر من مجموعة من المباني الحجرية على طول الساحل الصخري، لقد كانت في بادئ الأمر مستوطنة ضئيلة نائية، ثم تطوَّر أمرها رويدًا رويدًا حتى صارت ميناء، وذلك مع توافد السفن المقبلة من منطقة البحر المجهول عليها للتزود بالحبوب، لكن القرية لم تحظَ بكبير انتباه من مجلس التجارة الجديد في سيروس، ليس بعد على أية حال.

ارتقيت الدرج، وسلكت الطريق المتعرج المفضي إلى أعلى التل، بعيدًا عن الطريق الرئيسي المزدحم. ولم تحب روزاموند التورط في معمعة أمور مضطربة، وكلما طال أمد اتفاقنا ازدادت احتمالية انكشاف ما أنا بصدده. سوف ينكشف هذا في نهاية المطاف، لكن التحكم في وقت ذلك الانكشاف هو مناط الأمر كله.

أصبح الساحل شديد الانحدار حين وصلنا إلى الخليج الصغير، حيث امتدت ثلاثة الأرصفة فوق المياه. أحد تلك الأرصفة ما زال متضررًا منذ العاصفة التي أطاحت بسطحه قبل بضع سنوات، لكن الآخرين ظلا على حالهما، وعلى كل منهما ختم روزاموند.

طرقت الباب بقبضتي مرتين، وبعد هنيهة انفتح، فظهر من ورائه ناش - مساعد روزاموند - ولم يبدُ مسرورًا برؤيتنا. لم تسره رؤيتنا قط.

تفحصني من رأسي إلى أخمص قدمي، ثم قال: "أجئتما؟".

فاتكأت على إطار الباب متسائلًا: "أهي هنا؟".

زمَّ ناش شفتيه وهو يتفحص قميصي، لكنني تجاهلته. لم يتوافر لنا مستقر ثابت مثله لهندمة ملابسنا وتشذيب شعرنا، ولم نكن نريد ذلك أصلًا، إنني أفضل الموت العاجل في أعماق البحار على العيش تحت قبضة نقابات فاسدة.

فتح ناش الباب لندخل، ثم أغلقه خلفنا، وفي الداخل ارتمى ضوء الفانوس الدافئ على هيكل سفينة ذي طيف ذهبي.

إنها السفينة أستر.

تتألف أستر من صاريين وهيكل يتسع لحمولة كبيرة بما يكفي لإنجاز مهماتنا التجارية. والأهم أنها ملك لنا. أو بالأحرى سوف تكون ملكًا لنا حالما أسلِّم حافظة النقود هذه.

آخر مرة رأيناها فيها لم يكن الصاريان قائمين، أما الآن فهما يكادان يلامسان السقف المتقوس من فوقنا، حيث ربضت بعض الحمامات ذوات الريش الفضي في أعشاش متداعية من القش. وارتكزت السفينة على دعامات ممتدة فوق المياه المصطبغة بالسواد، وفي غضون بضعة أسابيع سوف تنزل هذه السفينة إلى البحر للمرة الأولى وسننشر أشرعتها.

التقت عيناي بعيني كلوف، ولاح على شفتيه شبح ابتسامة خافتة، كانت الخاطرة ذاتها تداعب ذهنه. لقد نجحنا في مسعانا بطريقة ما، ولأكون صريحًا، لست متأكدًا مما إن كنت أعرف كيف وصلنا إلى هذه النقطة.

ترامى إلينا صوت روزاموند الأجش من على متن السفينة في الأعلى: "أحسب أنني سمعت اصطكاك نقود"، وأطلَّت علينا من فوق سور الجانب الأيمن قبل أن تهبط على السلم المتدلي من السفينة نحو الرصيف.

عقد ناش ذراعيه فوق صدره، وواصل تهكمه قائلًا: "أأنت متأكد من أن بوسعك التعامل مع سفينة كهذه؟ يؤسفني أن أسمع بغرقها بعد أسبوع فقط من إبحارها".

قالت روزاموند وهي تقفز من السلم: "نحن نشيِّد السفن، ولا شأن لنا بالإبحار يا ناش. ماذا يهمُّك في هذا ما دمت تحصل على أجرك؟".

ثم فكت حزام أدواتها الثقيل الذي كانت ترتديه، وحين تخلصت منه مدت يدها لتدلك عضلات عنقها المشدودة. ولم تكن روزاموند امرأة نحيفة، لكن أدوات صُناع السفن ذات الأحجام الضخمة جعلتها تبدو كذلك.

كما أنها لم تكن امرأة لطيفة المعشر. قالت لي: "حسنًا، هيا أعطني إياها".

فمددت يدي إلى سترتي وسحبت حافظتي ووضعتها في يدها المبسوطة، فوزنت ثقلها في يدها قبل أن تعطي إياها ناش الذي جلس عند منضدة صغيرة متاخمة للجدار، ويشرع في إحصاء النقود على الفور.

ثم سألتُها وأنا أرمق ناش وهو يفتح الحافظة: "كم بقي على اكتمال السفينة؟".

عبثت روزاموند بالخاتم في إصبعها وهي تفكر. وكان هيكل الخاتم الفضي منبعجًا ومتثنيًا جراء العمل، لكن الحجر الكريم الذي يتوسط الخاتم جعلها تاجرة معتمدة من نقابة صُناع السفن. فإن حالف التوفيق ناش، فسيرتدي خاتمًا مثل هذا في يوم من الأيام.

ثم قالت: "أحسب أنها ستكون جاهزة للإبحار بحلول اكتمال قمر الشهر المقبل تقريبًا، ربما بضعة أيام أكثر أو أقل".

خطا كلوف خطوة نحو الحافة، ومد يده ممررًا إياها على الألواح الخشبية الملساء المقوسة والممتدة، وقد انتابته رقة نادرة جراء لمسته تلك، لقد طال انتظاره هذه اللحظة، طال انتظار كلينا.

ثم تنهدث، وقالت: "ولكن يجب أن أعلمكما بأن أولئك الحمقى في الحانة يزداد فضولهم بمرور الأيام".

نظر كلوف صوبي، كانت تلك مشكلة، لم نكن وحدنا من نحاول إنشاء تجارة يترأسها أحد أبناء منطقة المضايق، وثمة قباطنة كُثر يعتزمون حرق هذه السفينة لئلا يسمحوا لنا بأن

نمضي قدمًا في هذا المسعى. لقد نجحنا في إبقاء أمر السفينة أستر سرًّا أثناء تشييدها، لكن إن اكتشف الناس في قرية ديرن أن روزاموند كانت تشيد سفينة لنا، فسوف يلفت هذا الانتباه تجاهنا. والخوف ليس مقتصرًا على قباطنة منطقة المضايق الذين يرسون في ديرن فقط، بل إن قباطنة منطقة البحر المجهول أيضًا لا يريدون أن يفقدوا سيطرتهم على التجارة، و لن يعود إبحار سفينة تجارية أخرى عليهم بأي نفع. لذا نحن لا نريد أن يكتشف أحد أي شيء عن هذا الأمر، أو يعرف مدى اقترابنا من تحقيق المرام.

وضعت روزاموند يديها على وركيها بنفاد صبر، وتساءلت: "كيف الوضع يا ناش؟".

قال وهو يتروى في تمحيص كل كومة من النقود: "جيد حتى الآن".

عندما أدركت أنه لم يحصِ سوى نصف ما في حافظتي من مال فقط أخرجت الساعة من جيبي للتحقق من الوقت مرة أخرى، كان العقرب قد تجاوز علامة الثلاثين دقيقة قليلًا، وأنا أعرف ما يحدث حين أتأخر. الشخص الذي سأقابله تاليًا لن ينتظرني، ولا يأخذ في اعتباره طول الفترة التي تعاونا فيها معًا.

عندئذٍ أومأ كلوف باتجاه الباب وهو يقول لي: "اذهب. سوف أتم الأمر هنا وأوافيك في الحانة".

أومأت برأسي، وأغلقت غطاء الساعة قبل أن أدسها مرة أخرى في سترتي. ووضعت قبعتي على رأسي، وانطلقت نحو الباب، لكنني التفت مرة أخرى قبل أن أنطلق إلى الخارج تحت المطر.

تألقت السفينة أستر في ضوء الفانوس، وامتد خشبها اللامع منسابًا كصفحة البحر في الصباح. فلم تكن مجرد سفينة، بل كانت فكرة، كانت الشيء الذي خاطرت من أجله بحياتي مائة مرة على مدار العامين الماضيين، كانت فرصتي للحصول على رخصة تجارة، إلى

جانب أنها ستحمل شعاري الخاص. ولن تغير السفينة أستر كل شيء في حياتي وحياة كلوف فحسب، بل ستغير طبيعة مجريات الأمور في منطقة المضايق بأسرها.

2 سينت

انبثقت ثلاث مداخن من الضباب فوق الحانة الوحيدة الموجودة في قرية ديرن، وتصاعدت ألسنة الدخان من فوهاتها السوداء.

لم أرَ هذه الحانة خاوية قط خلال زياراتي القرية على مدار العامين الماضيين، إذ لا يوجد مقر سوق هنا، على الرغم من وجود تجارة متنامية، وهذا يعني أن الحانة كانت مقرًّا يمارس فيه الوافدون على القرية أعمالهم التجارية، وأنا من هؤلاء.

حين فتحت باب الحانة انهال هدير الأصوات صوب الشارع، ولفحني الهواء الدافئ الرطب الصادر من المدفأة الحجرية في آخر المكان. إنني لم أكن أبقى على اليابسة فترة تكفي لنفض البرد عن عظامي، أو لتجف رطوبة ملابسي تمامًا. لكن رائحة الخشب المحترق هيجت ذكرى الأيام الخوالي التي قضيتها على اليابسة قبل أن أهب البحر حياتي.

انغلق الباب ورائي، وبعفوية حركت كتفيَّ حركة دائرية. إذ لا يروقني أن أكون محاصرًا بين أربعة جدران، ولا يروقني شعور الأرض الصلبة تحت قدميَّ، إنما أحبِّذ البحر المترامي، حيث تتسنى للمرء على الأقل رؤية ما هو قادم في الأفق.

أومأ لي الساقي إيماءة ترحيب حين لمحني، وعلى الفور استدار نحو الجدار المليء بالزجاجات من خلفه، ومد يده إلى الزجاجة المكتوب عليها اسمي، حرفيًّا. دأبَ السقاة على تحقيق ربح إضافي كبير عن طريق تخفيف الجاودار بالماء، وتقديمه إلى الزبائن عندما يثملون بعد تجرع بضع كئوس منه، وبذلك يتعاظم مكسبهم. وفي أول مرة حاول أن يسقيني فيها ذلك الجاودار المغشوش وجد نفسه في طرفة عين تحت خطر نصل سكيني بعد أن استللتها من حزامي بسرعة خاطفة باغتته.

كان بوسعي رؤية تلك النظرة التي تلتمع في عيون من سمعوا الحكايات عن قبطان سفينة ريفين. تروي تلك الحكايات أنني قد أبرمت عهدًا مع شياطين البحر يقضي بتجنيب سفينتي خطر الهلاك في العواصف مقابل تقديم أفراد طاقمي قرابين للبحر، وصوَّرتني تلك الحكايات مخبولًا متهورًا ألتمس موتي في البحر.

ومنذ ذلك اليوم لم يحاول الساقي تخفيف الجاودار الذي يقدمه لي مرة أخرى، وأشك في أنه سيفعل ذلك بعد أن زوَّدته بزجاجات عالية الجودة من مدينة سوان. لست ألومه على محاولة خداعي، لكن أنا وكلوف لم نكن مجرد صبيين من قرية صيد زحفا إلى الموانئ. وقد عوَّلت على هذا الساقي لإظهار أن مكانتي ليست هينة أمام ضيفي.

ارتكزت على المنضدة بيديَّ منتظرًا إياه وهو يسحب الزجاجة من مكانها على الجدار قبل أن يضعها أمامي متبوعة بكأسين صغيرتين لونهما أخضر.

قال: "حظك الطيب لا يفتأ يُدهشني يا سينت. نجوت من فورك من جحيم عاصفة عاتية".

ابتسمت في نفسي، فلم نتحاشَها، والحظ لا شأن له بالأمر. سألته: "غرفتنا جاهزة؟".

أومأ لي، ثم خلعتُ العلبة الأسطوانية الطويلة المعلقة على ظهري وأعطيته إياها. وعقب ذلك مباشرة كانت إحدى خادمات المطبخ ترتقي الدرج المفضي إلى الغرف في الطابق الثاني، في حين أمسكتُ بالزجاجة والكأسين، وقصدتُ إلى صف الحجيرات الخشبية الصغيرة المتراصة إزاء الجدار.

التمع طرف الحذاء الجلدي اللامع من أسفل إحدى الطاولات، وحين لففت الكرسي المقابل لصاحب الحذاء لم يتكلف هنريك روث عناء رفع عينيه من دفتر الحسابات المفتوح أمامه.

ثم جلست على الكرسي، وأنا أشاهد عضلات فمه تتحرك في صمت، وهو يتمتم بالأرقام التي كان يدوِّنها على طول العمود الأيمن من الصفحة المفتوحة. كانت ساعة الجيب

الخاصة به على الطاولة مفتوحة الغطاء، وعقرب الثواني يدور بتأنٍّ. انتظرته حتى ينتهي قبل أن أضع الكأسين بيننا.

بعد هنيهة، أسقط هنريك ريشة الكتابة، ورفع عينيه نحوي. كان يكبرني بأربع أو خمس سنوات فقط، لكن شيئًا ما كان يلوح في نظرة عينيه يجعلني دائمًا أنسى ذلك. كان يلوح في شعره البني الفاتح طيف من اللون الأحمر، وعلى الدوام كان شعره يبدو محلوقًا في الحال وممشط ببراعة، كأنما يوجد حلاق على متن أية سفينة يركبها. سترته، المصممة خصيصًا على مقاسه، وقميصه الأبيض النظيف جعلاه يتميز بين بقية التجار ذوي الملابس المتسخة الذين ملأوا الحانة، لكنني دائمًا ما أحسست بأنه يروقه تميزه هكذا بنظافته وأناقته. لقد كان أدهى مجرم قابلته في حياتي.

اتكأ بظهره إلى المقعد، وارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة وهو يقول: "شممت رائحتك بمجرد دخولك الباب. أنت هذه الأيام أقرب إلى أن تكون أحشاء سمكة أكثر من أن تكون إنسانًا".

فتحت الزجاجة، وصببت في كأسه قبل أن أصب في كأسي، وأنا أقول: "لعلك محق في ذلك"، ثم وضعت الزجاجة ورفعت كأسي.

رفع هنريك كأسه ومدها إلى وسط الطاولة نحو كأسي ليقرعها في بادرة تنم عن التحية، ثم أعاد كل منا كأسه نحو فمه وتجرَّعنا الكأسين مرة واحدة. ألهب الشراب مؤخرة حلقي، وارتفعت حرارة بطني، ثم بادر هنريك بمعاودة ملء الكأسين.

ورفع أحد حاجبيه وهو يسأل: "متى ستخبرني من أين تأتي بهذا الشراب؟".

هززت كأسي في حركة دائرية ليدور السائل كأنه دوامة. إن الزجاجات التي كنت أبيعها أنا وكلوف بطريقة غير قانونية في كل ميناء لم تحمل شعارًا يدل على منتجها، وقد كان ذلك مقصودًا، ففي حالة إلقاء القبض علينا ونحن نبيعها لا أريد أن يتضرر المزارع البسيط الذي

أنتجها. لكنني أيضًا لا أريد أن يعرف أي شخص مصدر ذلك المنتج؛ لأنه حين نحصل في النهاية على ترخيصنا سوف نكون المحتكرين لتجارته.

ثم أجبته: "سوف أخبرك من أين يأتي الجاودار إذا أخبرتني كيف تستطيع جعل الأحجار المزيفة تبدو مثل الكريمة الأصلية تمامًا".

فابتسم هنريك، والتمعت عيناه البنيتان. لقد شيد آل روث أعمالهم على الأحجار الكريمة المزيفة غير أنها متقنة التزييف للغاية، ولكن اللغز الحقيقي يكمن في الكيفية التي استطاعوا بها جعل أحجارهم تجتاز اختبار المعايير الكاشف للتزييف. بحسب الروايات التي سمعتها في حانات منطقة المضايق، فقد ظهرت منتجات آل روث المقلدة في الأسواق للمرة الأولى منذ ما يربو على العقود الثلاثة، ولم يتمكن أحد من كشف زيفها، ولا القلة القليلة ممن بقوا من خبراء الأحجار الكريمة أيضًا.

وبين تجارة الجاودار وأحجار هنريك بدأنا مشروعًا محفوفًا بالمخاطر في منطقة المضايق، لكنه يعود بالنفع علينا وعليه. وبعد مرور عامين تقريبًا تمكنت أنا وكلوف أخيرًا توفير المال لبناء السفينة أستر، ودفع تكاليف حيازة ترخيص التجارة في آن واحد.

دس هنريك يده في سترته، واستخرج حافظة مخملية صغيرة لونها أزرق ووضعها أمامي، فأفرغت الكأس في جوفي، ثم فتحت الحافظة وسكبت الأحجار القرمزية المصقولة في راحتي، وأخذت انكسارات سطحها تتألق تحت ضوء الفانوس حتى جعلني منظرها المدهش أزدرد ريقي بصعوبة. لقد كانت هذه أكبر كمية أبيعها لحسابه على الإطلاق، وإن أحكمتُ التدبير وأبليت حسنًا فقد تكون تلك آخر عملية أجريها من هذا النوع. والآن بعد أن سددت ثمن السفينة أستر، ودفعت تكاليف رخصتنا التجارية، فسأخصص ربحي من هذه العملية لتأمين أول طريق تجاري رسمي لنا عبر منطقة المضايق. إن مثل هذه العمليات تسيل من أجلها الدماء؛ دماؤنا إن لم نتوخَّ الحذر.

ثم قال: "زمرد أحمر، يتراوح كل حجر منه بين ربع وثلث قيراط. مصقول بدقة بالغة، ولونه من أفضل ما أنتجتُ. لن يكتشفه أي شخص ما دمت بمنأى عن خبراء الأحجار الكريمة".

قلت وأنا أرفع أحد الأحجار باتجاه النور: "من حسن حظك أنه يتعذر العثور على مثل هؤلاء الخبراء في أيامنا هذه".

هذه الأحجار المزيفة كانت الثلاثة منها تساوي حجرًا حقيقيًّا، لكنني لا أستطيع التمييز بين المزيف والحقيقي، وإن كانت حياتي مرتهنة بذلك. بل إن المصابيح المتطورة التي يستخدمها تجار الأحجار الكريمة لاكتشاف المزيف من الحقيقي نادرًا ما تكتشف هذه الأحجار متقنة التزييف.

قال: "هذا من دواعي سروري بالطبع".

أعدت الأحجار إلى الحافظة، وأغلقتها ودسستها في سترتي قبل أن أخرج آخر حافظة نقود أحملها. لم يتكلَّف هنريك عناء إحصاء النقود؛ فتاريخ تعاوننا طويل بما يكفي ليثق بأمانتي، كما أنني قد خبرته جيدًا بما يكفي لأعرف أنني إذا استلبت شيئًا من آل روث فستكون حياتي ثمن ذلك.

ثم أردف: "يسرني التخلص من أولئك الخبراء. لقد اختفى معظم مَن كانوا منهم في مدينة باستيان، وفي مدينة ساجساي هولم أيضًا".

سألته: "إلى أين قصدوا؟".

هز هنريك كتفيه قائلًا: "لست أدري. ولست أكترث. لكن عملي صار أيسر كثيرًا في غيابهم".

حل زمن كان خبراء الأحجار الكريمة مطلوبين بشدة في مدينتي باستيان وسيروس لبراعتهم البالغة في التعامل مع الأحجار الكريمة. ولكن حينما بدأت أرباحهم تزيد على ما يجنيه التجار الذين اعتمدوا عليهم ما أثار حنقهم عليهم، وخصصوا مكافآت لمن يقبض

على أولئك الخبراء ويحضرونهم إليهم، وقد كان ثمة أعداد غفيرة من الناس راغبين في نيل تلك المكافآت. وقد استفاد من ذلك أناس مثل آل روث أصحاب تجارة الأحجار المزيفة التي يقومون بصنعها.

ثم أردف: " لقد سمعت أن ثمة تجّارًا في منطقة المضايق يدفعون مبالغ كبيرة مقابل إحضار خبير أحجار كريمة. لو كنت مكانك لتوخيت الحذر".

لم يفاجئني ذلك؛ فالآن بعد أن أصبح لمنطقة المضايق مجلس تجارة خاص، صار جميع أعضاء النقابات يحاولون الارتقاء إلى مكانة تمكّنهم من التغلب على تجار منطقة البحر المجهول. وإن توجّب شراء خبراء الأحجار الكريمة لمساعدتهم في هذا المسعى، فلن يألوا جهدًا في شرائهم.

قلت: "شكرًا على المعلومة".

ثم ارتكز على الطاولة بمرفقيه قائلًا: "إن خسرت في عملك؛ أخسر في عملي".

حدّق إلى عينيّ ليتأكد من أنني أفهم أن هذه المعلومة ليست نصيحة مجانية، إنما كانت تحذيرًا، إذ في حالة عدم رجوع هنريك إلى أبيه - فيليكس روث - بالأرباح فسيُنزل به أبوه عقابًا. وهذا ما جعل العبث مع آل روث خطرًا بالغًا. إن كل امرئ لديه شيء يخسره.

كان هنريك هو الوحيد الذي يعرف إلى أين تذهب هذه الأحجار. لقد بعتها في مدينة سوان، لتاجر يُدعى لاندر، وكان يمررها إلى سوق الأحجار الكريمة بمدينة باستيان مقابل نسبة ربح له، لكن لم يكن يعرف أي شيء عن مصدر تلك الأحجار، أو كيف دخلت إلى منطقة المضايق أصلًا. وكنت مجرد الحلقة الأولى في السلسلة.

سألته: "هل يوجد أي شيء آخر يجب أن أعرفه؟".

أجاب: "لا، ليست هناك معلومات أخرى مهمة".

ثم قلب كأسه الفارغة على الطاولة، وبدأت النظرة التي تلوح في عينيه تزداد حدة، وأدركت أن اللطف الذي كان يميز سلوكه قد تبدد فجأة، ثم سألني: "هل يوجد شيء يجب أن أعرفه أنا؟".

أجبت: "لا".

قال: "هذا طريف. لقد سمعت حديثًا يُتداول عن صانعة سفن هنا في ديرن تبني سفينة جديدة لقبطان مجهول من أبناء منطقة المضايق".

نظرت في عينيه وأنا حريص على ألا يبدر مني رد فعل. وكان يعرف بأمري ويرتاب بي، لكنني لا أستطيع المجازفة بتزويده بأية معلومات ليست في جعبته بالفعل. ثم سألته: "هل تريد أن تسألني عن شيء يا هنريك؟".

حنى رأسه جانبًا وقال: "أنت على دراية بالحكايات التي يتداولونها عنك، أليس كذلك؟ عن صبي ظهر من العدم، ويبحر في خِضم عواصف عاتية جديرة بجعل بحار مُحنك يتبوَّل في سرواله. وعن أنك مخلص الإيمان بالأساطير والخرافات القديمة، وعن أن ثمة عهدًا موثقًا بالدم عقدته مع شياطين البحر، وهو السبب الوحيد الذي يجعلك حيًّا إلى الآن".

اشتدت قبضتي تحت الطاولة على الجرح الذي شقه نصل سكيني في راحة يدي.

كنت على دراية بتلك الحكايات. التي كانت هي السبب وراء حملي اللقب الذي اشتهرت به خارج قرية كراجسماوث - سينت. لم يعرف أحد إلياس، الصبي المولود في قرية صيد نائية اقترف غلطة كلفته كل شيء.

وأردف: "أول مرة سمعت عنك فيها، قلت لنفسي: ذلك وغد فطن، يترك الشائعات تمهد له الأمور نيابة عنه، في حين يكتب هو قصته. وهذا أحد أسباب موافقتي على التعاون معك، لكن هذه الزلة الصغيرة جعلتني أتساءل عما إذا كنت قد أخطأت".

قلت: "لم تخطئ".

قال: "جيد. لأنني لا ألدغ من جحر مرتين. إن كنت ترغب في التجارة برخصة شرعية والإبحار تحت شعارك الخاص على متن سفينة جديدة فهذا شأنك، أنت وما تريد. لكن حالما يسمع الناس ذلك، فثمة من سيحرص منهم على ألا تصل إلى الميناء التالي، وستصحبك نقودي إلى قعر البحر".

كان هذا هو بالضبط السبب الذي جعلنا نجري معاملاتنا بحذر وحرص.

قلت: "ما من أحد سيسمع بذلك".

سألني: "أأنت واثق بذلك؟".

تدفق الدم الدافئ عند الجرح في راحتي.

وانحنى هنريك مقتربًا مني وهو يقول: "شخص ما في هذه القرية لسانه ثرثار. لعل هذا هو الوقت المناسب لتقطع ذلك اللسان".

كززت على أسناني وأنا أومئ برأسي. إن كان أحدهم يثرثر بشأننا، فهذا يعني أن الوقت يداهمنا للحصول على هذا الترخيص ورفع شعارنا فوق السفينة أستر، وعندئذ فقط سنكون في حماية مجلس التجارة، وهي حماية من شأنها أن تقينا من أن نُطعَن بسكين في ظهورنا.

التقط هنريك ساعته، وأغلق دفتره، ودسَّهما داخل سترته، ثم قال: "ألقاك بعد ثلاثة أسابيع".

نهض مغادرًا، فلبثت منتظرًا حتى ينغلق باب الحانة عقب خروجه، ثم سكبت لنفسي كأسًا أخرى. وكنت أعرف منذ بادئ الأمر أننا كنا نخاطر مخاطرة بالغة بالتعاون مع آل روث، لكن

المخاطرة آتت أُكلها. حتى إن كانت الاحتياطات الدقيقة التي اتخذناها تُنذر بعدم الصمود، وتوشك أن تتداعى.

رفعت الكأس، وطوَّحت رأسي للخلف وأنا أتجرع الشراب الذي ألهب صدري. ثمة مئات السبل المختلفة التي قد يتأتى منها هذا الخطأ، انكشاف أمري، وثمة أوغاد كثر يتربصون لي ليفتكوا بي، لكن قبل أن أغادر هذه القرية يجب أن أنهي أمرَ واحدٍ على الأقل من أولئك الأوغاد.

3 إيزولد

لم يكن في الطاقم أحد غيري من منطقة البحر المجهول، وقد كانت لهذا الأمر مزاياه، إلى أن وجدت جرذًا ميتًا تركه أحدهم في أرجوحتي الشبكية.

وقفت في الضوء الخابي أحدِّق في منظر الأرجوحة التي فاحت منها رائحة العفن والجاودار، لكنها لم تكن ملطخة بالخداع والمكر والشر كالأسِرَّة التي نمت عليها من قبل، فكل شيء كنت أمتلكه في مدينة باستيان كان ثمنه مدفوعًا بدماء الآخرين.

لم أشعر بالحنين إلى دفء غرفتي المنبعث من نار المدفأة، ولا الألحفة الفاخرة، ولا السجاد الوثير الذي كسا الأرضية الرخامية في منزل آل آزمث. بل لم أفتقد إلا إنسانًا واحدًا لم يعد له وجود.

أمسكت بذيل الجرذ الميت المسكين، ورفعته وأنا أبعده عني. لن تضيرني بقعة الدم التي تلطخ مكان الجرذ، لكن الرسالة المقصودة من وراء هذه الفعلة كانت مسألة أخرى. إذ كان ذلك عُرفًا قديمًا، وقد رأيت مثل هذه الأفاعيل على متن سفن والدتي مرات عديدة. ليس الجرَّافون أصحاب المنزلة الأدنى على متن السفن، لكنهم مثار ريبة، إذ تُوجه إليهم اتهامات باختلاس الأحجار الكريمة من مواقع الغوص، أو اتهامات بإرشاد تجار آخرين إلى مخابئ الأحجار الكريمة ليناولوا ثمن وشايتهم. لكنها كانت إزعاجات لم أعانِ بسببها قط؛ لأن والدتي كانت هي مَن توظِّف جميع أفراد الطواقم الذين كنت أعمل معهم، ومن ثم معاداتي تعني معاداة تاجرة الأحجار الكريمة العظيمة هولاند، وما من أحد يود تعريض نفسه لهذا الخطر.

بيد أنني لم أعد في منطقة البحر المجهول. إذ حالما سلَّمت القرطين وفستاني، اصطحبني سيمون إلى الميناء صوب السفينة لونا، وبمجرد أن التقيت بقبطانها عرفت أن نقلي عبر منطقة المضايق لن يمضي بالسلاسة المعهودة في عمليات النقل العادية. لكن على أية حال، إن جرذًا ميتًا يتدلى من أطراف أصابعي لم يكن خطبًا ذا بال قياسًا بالفوضى التي خلفتها ورائي في باستيان.

ارتقيت الدرج المفضي إلى سطح السفينة، فأضاءت أشعة الشمس وجهي، وهبت الرياح مزيلة الرائحة النتنة التي عبَّأت المكان في الطابق السفلي. وكان أفراد الطاقم يعملون، وكان الملَّاح - بيرك - واقفًا عند عجلة الدفة، وعيناه ترصدانني، وأنا أسير نحو سور الجانب الأيسر من السفينة. لقد مضى على إبحارنا أسبوع تقريبًا، وإلى الآن لم أحظَ برضا أحد منهم، ولن أحظى بالرضا إلا إذا بدأت أدر الربح على القبطان بجلب الأحجار الكريمة له من قاع البحر.

ألقيتُ الجرذ في الماء، واستدرت على عقبيَّ وأنا أمر ببصري بقمم الصواري، حتى رصدت ياسمين، التي كانت تشغل منصب رئيسة البحَّارة على السفينة. كان شعرها الأشقر الطويل مجدولًا في شكل حبل كثير العُقد، ومتدليًا بين كتفيها، وكانت تكبح ابتسامة تحاول الارتسام على شفتيها. وإن كان لا بد من التخمين، فسأقول إن فعلة الجرذ تلك منها أو ربما من دارين، وهو أحد العمال العاديين على السفينة، وهو حبيبها. لم يُكِن أي منهما ولاءً للسفينة لونا، والحق أنني كنت متيقنة من أنهما كانا يديران تجارة جانبية لصالحهما الخاص على متن السفينة. وقد كانت فعلة الجرذ تلك لإعلامي بحدودي. إنني هنا لم أكن منيعة الجانب كما كنت في باستيان، وقد راقني ذلك، تمنيت فقط ألا يتطور الوضع بما يفضي إلى مقتلي.

رمقني بورك من فوق عجلة الدفة، وسألني: "ما هذا يا جرَّافة؟".

قلت كاذبة وأنا أشبك إبهامي في حزامي: "مجرد شيء من المرح". وأحسست أن وركيَّ عاريتين دون وجود أدوات التجريف التي تعلَّق في حزامي فتجعله ثقيلًا. لم أعتد عدم

وجود هذا الثقل.

أومأ بذقنه إلى أحد العمال في إشارة لتولي أمر عجلة الدفة بدلًا منه، ثم لوَّح لي باتجاه الممر المفضي إلى غرفة القبطان، وقد ندت من تنهيدة طويلة وأنا أرمق الزخارف الخشبية التي تزين باب الغرفة.

لم يكن أمامي طواقم أخرى أختار من بينها حين ذهبت إلى سيمون، وطلبت منه أن يضعني على متن سفينة تقلني خارج مدينة باستيان، كان هذا الطاقم هو الخيار الوحيد، وقد ضمني قبطان السفينة لونا دون طرح أسئلة عندما قرأ رسالة سيمون، واشترط شرطًا واحدًا فقط: أن أوقِّع عقدًا يقضي بأن أتولى مهمة التجريف على السفينة مدة عام. لقد كان ذلك ثمنًا زهيدًا أدفعه مقابل عدم التوقيع باسمي على تلك الورقة. ولم أعُد إيزولد، بل صرت إريس. وقد ولَّى زمن غوصي لصالح أي شخص آخر سواي.

متى أصل إلى سيروس، فسأغادر لونا، ولن ألتفت إلى الوراء مطلقًا. إذ ما لم يكن للجرَّافة التي وقعت على الورقة وجود أصلًا، فما من سبيل للتظلم ضدها إن هي نكثت ببنود العقد، حتى مجلس التجارة الجديد لن ينظر في الأمر.

تعالت أصوات الطاقم أثناء عملهم على سطح السفينة، في حين كنت أمضي في الممر، وألصقت جسدي بالجدار كي أفسح المجال لمسئول الإمدادات القادم، وهو يحمل في كلتا يديه طائرًا منتوف الريش. وحين دلفت إلى الغرفة، كان بيرك مستغرقًا في سرد حادثة الجرذ على مسمع القبطان الذي لم يبدُ مسرورًا.

رفع زولا عينيه السوداوين نحوي حين دلفت إلى الغرفة، لكنه لم ينهض عن كرسيه الذي يجلس عليه. كان زولا من المغرورين الذين يحاولون إبهار الناس بمدى أهميتهم، بيد أنهم يفتقرون إلى البراعة اللازمة لذلك، ومن الجلي أنه من أبناء منطقة المضايق، لكنني لم أكن متأكدة مما كان يفعله في منطقة البحر المجهول أصلًا، وكيف سُمح له بالرسو في موانيها.

إن التفسير الوحيد لذلك هو أن لديه خطة ما؛ خطة تعود بالنفع على شخص مهم. ومع ذلك إن الوصول إلى باستيان دون تصريح يستلزم التحلي بالشجاعة، إنني أقر له بهذا.

رمقني زولا منتظرًا تفسيرًا مني لما حدث، مناديًا باسمي ليحثني على الكلام: "إريس؟".

قلت بنبرة لطيفة: "هكذا يتصرف البحَّارة كما تعلم"، حرصت على عدم النظر إلى عينيه فترة طويلة. إذ لم يكن يروقني كيف حاول دائمًا إبقاء التواصل البصري بيننا مستمرًّا بلا انقطاع.

قال: "نعم، أعلم".

وضع ريشة الكتابة التي كان ممسكًا بها، وتحوَّل عن الرسالة التي كان يدوِّنها، أما أنا، فأبقيت عينيَّ مثبتتين على ريشة الكتابة الخاصة بأحد طيور السمان. اعتادت والدتي إهداء التجار المخلصين لها ويحققون مآربها ريشة طائر من إحدى فصائل البجع المعروفة بريشها اللامع والرأس الأسود - وكانت رمزًا للمنزلة الرفيعة. كما كانت تلك الهدايا تشبه أوسمة تؤكد بها سلطتها على مَن اعتبرتهم جديرين باهتمامها، وعلامة على أنها تدعمهم بسطوتها. لكن هذا الرجل مجرد تاجر طموح، وغالب الظن أنه لا يعرف حقيقتي، وليس ذي مكانة مهمة بما يكفي للفت انتباه والدتي.

وأردف: "لا يمكنني تحمُّل خسارة جرافتي الجديدة"، جرَّافتي الجديدة!

جعلتنا كلماته أكز على أسناني حنقًا. إن وقوفي هنا برهان على أنني للمرة الأولى في حياتي لست ملكًا لأي أحد، لكن شخصًا من طينة زولا لن يفهم ذلك أبدًا، فمثله بغروره لا يرى سوى نفسه ومصلحته فقط.

ثم تحوَّل زولا إلى بيرك موجهًا إليه الأوامر: "انقل أغراضها إلى هنا حتى نصل إلى سيروس".

قطَّبت جبيني، وأنا أتساءل: "ماذا؟".

قال: "ستمكثين هنا في غرفتي حتى يعتادوا وجود شابة من ذوي الدم المملح على متن السفينة".

ذوو الدم المملح - كان هذا الوصف مهينًا، يلقَّب به أبناء منطقة البحر المجهول، إذ إن المياه في تلك المنطقة شديدة الملوحة. أما هنا في منطقة المضايق، فملوحة المياه تخففها ما تصبه الأنهار في بحرها من ماء عذب.

قلت بحدة أكثر من اللازم: "هذا ليس ضروريًا. ولا أكترث ما إذا اعتادوا وجودي أم لا. بوسعي الاعتناء بنفسي".

قال: "لقد وقَّعتِ على عقد. وإن قرَّر أحدهم أن يبقر بطنك في منتصف الليل، فسأخسر جرَّافة قبل أن أستفيد من مهاراتها في الغوص ولو مرة".

امتلأ ذهن القبطان بأفكار جامحة تتعلق بالغوص لاستخراج الأحجار الكريمة والمتاجرة بها حالما يمنحه مجلس التجارة الجديد في منطقة المضايق رخصة التجارة. لكنه كان يخادع نفسه، فالسفينة لونا ليست مجهزة لمهمات الغوص التي تستهدف استخراج الأحجار الكريمة، حتى إنني لم أرَ خريطة لتيارات المد والجزر بين الأوراق في غرفته. ولم تكن لدى الرجل أية فكرة عما كان يفعله.

قلت بنبرة قاطعة: "سوف أنام في حجرة الطاقم"، وكان رفضي يخلو من أي لطف، فأن يضعوني في صندوق في مخزن الشحن ويتركوني هنالك بضعة أيام خير عندي من النوم في غرفة زولا.

ارتكز براحتيه على المكتب، وهو يدفع نفسه لينهض، فانطرح ذيل معطفه الأسود من فوق الكرسي مع نهوضه، وتدلى حتى بلغ كاحليه. ثبت بصره على وجهي وهو يلتف حول

المكتب حتى وقف على مقربة مني، لدرجة أن أزرار سترته احتكت بكمي، وهو يميل ببصره إلى الأسفل صوب وجهي.

كانت عيناه الفضيتان باردتين، وهما مسلطتان على عينيَّ، لكنه بعد هنيهة حركهما هبوطًا إلى ذقني.

ثم قال: "يمكنني الاستعاضة عن أي عامل، أو أي مسئول إمدادات، أو أي رئيس بحَّارة بمائة غيرهم في سيروس. لكن سيمون قال إنك جرَّافة ذات مهارة فذة. ومثل هذه النوعية يصعب الحصول عليها".

ضيَّقت عينيَّ وأنا أرمقه، وازداد خفقان قلبي بعض الشيء وأنا أفتش في عينيه عن أي معنى وراء الكلمات. لكن ما من سبيل لمعرفة زولا حقيقة أنني خبيرة أحجار كريمة، لقد حرصت والدتي على ذلك.

عاودت كلامي: "بوسعي الاعتناء بنفسي".

قال: "حسنًا"، وقد بدا الانزعاج في نبرته وهو يقترب مني أكثر فأكثر، بيد أنني لم أتزحزح، وأبقيت قدميَّ ثابتتين. أرادني أن أخافه، وقد كنت أخافه، لكنني لن أريه ذلك.

ثم أدار رأسه أخيرًا صوب بيرك قائلًا: "إن أصابها أي أحد بسوء فسأقطع له طرفًا من أطرافه يختاره هو"، فأصابتني الكلمات بالقشعريرة.

لم يكن زولا يُتقن إخفاء غضبه، ومن الجلي أنه انزعج لأنني لم آبه كثيرًا بما أظهره من اهتمام نحوي. بيد أنني لم أكن لأطري عليه بما يشبع غروره، حتى إن كان ذلك سيحقق لي مآربي، إذ كان هذا بابًا يتعذر إغلاقه بمجرد فتحه.

لم ينظر بيرك نحوي، ومع ذلك شعرت بأن أفكاره تحوم حولي. إن وعيد القبطان لن يقع على أفراد الطاقم فقط، بل سيقع أيضًا على بيرك بصفته الرجل الثاني في سلسلة القيادة

إذا أخفق في السيطرة عليهم، وكنت في غنى عن إثارة استيائه.

ثم صرفه زولا بتلويحة من يده، وهو يقول: "تأكد من استعدادهم للرسو".

بدا أن بيرك لا يزال يقلِّب رأيه بشأن ما إذا كان سيحتج على أمر زولا، لكنه أحجم عن ذلك وغادرنا.

سألت زولا وأنا أحاول استبيان مضمون الدفتر المفتوح عند زاوية مكتبه: "رسو؟ حسبت أننا لن نبلغ سيروس إلا بعد بضعة أيام".

شق طريقه حول الطاولة عائدًا إلى كرسيه، وقد أشاح بعينيه عني الآن، وقال: "ليست هذه سيروس".

فسألته: "إذن أين سنرسو؟".

قال بتهكم غَيَّر إيقاع حديثه: "لنا مسارات تجارية نسلكها في منطقة المضايق، كما هي الحال في منطقة البحر المجهول. فنحن نرسو في موانئ معينة". تلاشت الآن طريقته اللطيفة المغموسة بالسم التي استخدمها منذ لحظات، وعاد الرجل الذي كان يخشاه الطاقم، ذلك الرجل الباطش الذي سمعت الشائعات تُتداول خفية عن إقدامه على غمد سكينه في صدر آخر مسئول إمدادات عمل تحت إمرته، وذلك قبل أسابيع فقط من وصولي إلى لونا.

عضضت لساني، وازدردت رغبة المجادلة التي أوشكت أن أخوضها معه. إن كل يوم أقضيه في البحر يعرضني لاحتمالية الوقوع في يد أحد الباحثين عن ابنة هولاند والأحجار الكريمة التي سرقتها. وكان عليَّ الوصول إلى سيروس قبل أن يجدني أحدهم.

أعاد زولا عينيه إلى المخطوطة المبسوطة أمامه. وهبت رياح، فمالت السفينة على إثرها، ولولا الحافة الخشبية التي تطوق مكتبه لانزلقت جميع المحتويات. ومع ميلان السفينة

مِلت إلى اليسار بعفوية لأوازن نفسي.

ثم قال: "إن لم يكن ثمة شيء آخر تريدينه، فلديَّ عمل أضطلع به".

كان زولا يحتاج إلى الشعور بأنه صاحب الأمر والنهي الأوحد والمتحكم في خيوط الأمور كلها. وقد ذكَّرني بوالدتي بأكثر من طريقة - تلك الشخصيات التي لا تتوانى لحظة في التفكير والتدبير وإحكام المكائد.

أغلقت الباب ورائي وعدت أدراجي إلى سطح السفينة، حيث حملت الرياح الأصوات المترددة في الأرجاء. لاح الأفق خطًّا أزرق سميكًا يطوِّقنا من كل جهة، وقد ازدادت قتامته قبل أن يغوص في البحر.

اجتازني بيرك وهو ينطلق مباشرة نحو صدر السفينة رافعًا يده ليقي عينيه الشمس، فضيقت عينيَّ وأنا أحاول رؤية ما كان ينظر إليه، ولكن لم يتضح المشهد إلا حين انقشعت السحب الدانية من سطح البحر، إذ رأيت من ورائها الساحل المصطبغ باللون الفضي العميق على مرمى البصر.

تواثب قلبي حين وقعت عيناي على اليابسة، يابسة ليست فيها الرمال الحمراء أو الصخور الوعرة المنتثرة على سواحل منطقة البحر المجهول. هذا يعني أننا قد دخلنا فعليًّا في منطقة المضايق، حيث أكواخ المزارعين والصيادين الواقعة على مسافة بعيدة من أقصى شمال مدينة باستيان. كانت مياه منطقة المضايق المصطبغة باللون الأزرق الضارب إلى الخضرة تجوبها عواصف أسطورية في فتكها، وكذلك كانت آخر مكان يمكن لوالدتي أن تفكر في البحث عني فيه، هكذا تمنيت.

سألته: "ما هذه المدينة؟".

ضحك بيرك ضحكة مشوبة بنخير، وهو يتكئ على السور ليبصق في الماء، ثم قال:
"مدينة؟ لا توجد سوى مدينة واحدة في منطقة المضايق، هذا إن أردت تسميتها مدينة، ألا

وهي سيروس. أما هذه، فهي ديرن، مجرد قرية مزارعين مزرية. ولكن فيها حانة، وأسماكًا، ودواجن، وأشياء أخرى يمكننا تناولها"، ثم عاد قاصدًا عجلة الدفة، وقوَّس يده حول فمه وهو يهتف: "نحو الشمال بمقدار ست درجات! استعدوا لطي الأشرعة!".

شرع البحَّارة في التحرك بالفعل، كل إلى مكانه، لبدء إجراءات رسو السفينة. أما أنا فمددت يدي أتحسس الحافظة الجلدية الصغيرة أسفل قميصي، والمتدلية من السلسلة الذهبية الطويلة التي تطوق رقبتي.

كان من المُحال إحياء أبي، أو السفر عبر الزمن لإنقاذه، كما كان من المُحال الرجوع إلى الوراء لإخبار نفسي بأن آخذ بيده، وأركض في الطريق الذي أرادني أن أسلكه.

إن مفارقتي والدتي سوف يفت في عضد تجارتها، وسوف يزعزع بأسها المتعاظم بسرعة في منطقة البحر المجهول.

كان ثمة شيء واحد فقط تمقته والدتي مقتًا أشد من الخسارة في حد ذاتها، ألا وهو فكرة الخسارة أمام منطقة المضايق. وحين نرسو في سيروس سوف أقصد إلى مقر مجلس التجارة، وسوف أطلب مقابلة زعيم نقابة الأحجار الكريمة الذي لا تراه هولاند كفؤًا بما يكفي ليكون ضمن حاشيتها، ثم سأسلمه الشيء الذي من شأنه أن يُسقط هولاند - ألا وهو حجر قلب الليل.

اشتدت الرياح، ودفعت لونا نحو الساحل، ونظرت إلى الأسفل حيث تشق السفينة البحر فيتناثر رذاذ المياه أيضًا من حولها. إنني لم أبحر قط في مياه منطقة المضايق، ولم تطأ قدماي شواطئها، ولكن غزاني شعور قوي غمر نفسي وأنا أشاهد السفينة وهي تمخر عباب البحر.

إنني لم أغادر والدتي في منطقة البحر المجهول فحسب، بل غادرت موطني؛ المكان الذي تنسمت فيه أول أنفاسي، وساورني شعور بأنني سألفظ آخر أنفاسي في هذه المياه الغريبة

عني التي أبحر فيها الآن.

4 سينت

جلس كلوف على صندوق مقلوب وهو يلف نصل السكين على فوهة الزجاجة الزرقاء ليفتحها، ولاحت في عينيه النظرة الهادئة الواثقة التي لا تفارقه.

لا يمكننا الاضطلاع بمثل هذه المهمة على متن السفينة، فكلما تضاءلت معرفة أفراد طاقمنا المتغيرين باستمرار؛ كان ذلك أفضل. وبما أن صاحب الحانة يدين لنا بالكثير، فقد سمح لنا بالحصول على غرفة في نهاية الردهة لنعمل فيها حين نأتي إلى ديرن، وكان أجره عبارة عن زجاجات الجاودار التي لا تحمل شعارًا والتي نحضرها من سوان.

لف كلوف الزجاجة دائريًّا حتى انشق الشمع الجاف، ثم انتزع السدادة قبل أن يسلمني الزجاجة. كانت فكرة استخدام زجاجات الجاودار في تهريب الأحجار المزيفة من بنات أفكاره، وقد جنينا من وراء عمليات التهريب هذه معظم النقود التي دفعناها لصنع السفينة أستر، لكننا لم نحسب حساب أن مشروب الجاودار نفسه سينال استحسانًا كبيرًا في الحانات، وكان علينا توخي الحذر كي لا تخرج الأمور عن السيطرة، فإذا أُلقي القبض علينا فقد نخسر فرصة الحصول على الرخصة التي طال انتظارنا لها.

وضعت الزجاجة على الطاولة بجوار بقية الزجاجات؛ صندوق الزجاجات الخاص هذا لن يصل إلى حانة أو إلى تاجر من تجار النقابات في سيروس.

ثم فتحت الحافظة المخملية التي أعطاني إياها هنريك وأفرغت الأحجار الحمراء على صينية خشبية، ثم قسَّمتها إلى مجموعات بطرف سكيني، كل مجموعة تتضمن اثني عشر حجرًا. سأضع عشرات الأحجار في أربع زجاجات، بعض الأحجار مزيفة، وبعضها أصلية، ومع ذلك لن يتمكن تجار الأحجار الكريمة في سيروس من التمييز بينها ما لم يستعينوا بخدمات خبير أحجار كريمة. وحتى إن اكتشفوا هذا الاحتيال، لا يمكنهم إبلاغ مجلس التجارة، إذ إنهم متورطون أيضًا بشرائهم تلك الأحجار بطريقة غير مشروعة. إن مثل هذه

التجارة يكون كل المتورطين فيها عرضة للخسارة إن سارت الأمور على غير ما يرام، وكذلك يجنون جميعًا أرباحًا كبيرة إن سارت الأمور على ما يرام.

بالنظر إلى كمية الزمرد الأحمر أمامي الآن ثقلت وطأة الإحساس بالخطر في صدري. لقد تعاونا في كميات صغيرة عدة مرات من قبل، لكن مع مثل هذه الكمية الكبيرة، لن يتردد فيليكس روث في بقر بطوننا قبل أن نفقد مثل هذه الكمية القيمة. وتساءلت عما فعله هنريك لإقناعه بأنها فكرة سديدة.

قال كلوف كأنما يقرأ ما يجول في خاطري: "هذه العملية لا تختلف عن أية عملية أخرى أجريناها"، وانعكس الضوء على رموشه الشقراء وهو يحوم بكتلة الشمع الأحمر فوق لهب الشمعة المثبتة على الطاولة.

أسقطتُ أول اثني عشر حجرًا في الزجاجة المفتوحة أمامي. ولا سبيل لأن يدَّعي أحد أن لنا علاقة بالأحجار، لأننا عمليًا لم يكن لنا وجود، إذ لم نكن تجارًا، ولم يعرف أحد مصدر الجاودار، ومن ثم لا يمكن تعقب الجاودار للوصول إلينا. ومع ذلك كان حظنا ينفد بعد تعاون امتد عامين مع آل روث، إذ في حالة كان كلام هنريك صحيحًا، وكانت الشائعات تروج حول السفينة أستر، فهذا يعني أن الوقت يداهمنا بشدة.

غاصت الأحجار في قاع زجاجات الجاودار، واختفت في السائل الداكن. وعقب انتهائي من آخر زجاجة وضعت السدادة وتحركت للأمام مفسحًا المجال لكلوف كي يقطر الشمع المذاب على فوهة كل زجاجة. التمعت قطرات الشمع وهي تبرد على الزجاجة، في حين راح كلوف يلفها بوتيرة منتظمة كي يعيد إحكام إغلاق الفوهة بالشمع.

ثم أطفأ كلوف الشمعة، وارتكز بمرفقيه على ركبتيه متسائلًا: "إذن، مَن برأيك يثرثر بشأننا؟".

رفعت بصري نحوه: "لعله جيريك؟".

قال كلوف مشككًا في الاحتمال: "لا أظن ذلك. إذ إن اختفاءنا يعني اختفاء النقود التي يتقاضاها منا".

عقبتُ: "ربما يتقاضى مبالغ أكبر من شخص آخر يمكر بنا".

عندئذ أطبق شفتيه في خط مستقيم، وغالب الظن أن الخاطرة التي تجول في بالي الآن تجول في باله أيضًا. ولم يقلقني سوى قبطان واحد من بين كل قباطنة منطقة المضايق ممن يسعون إلى بدء طرقهم التجارية الشرعية، ألا وهو زولا؛ إنه أرعن وسريع في انتهاز أية فرصة تسنح في طريقه، وليس في نفسه ولاء لمنطقة المضايق مثل بقية القباطنة هنا. وبهذه الشخصية صار ساعيًا تحت طوع مجموعة من تجار مدينة باستيان، إنني لا أقبل بمثل هذه المأموريات المهينة، وإن ملأوا مخزن شحن سفينتي نقودًا.

ثم قلت: "زولا ليس أبله. إنه يعلم أننا نخطط لشيء".

لقد كان يراقبنا من كثب خلال الأشهر الستة المنصرمة، وأنا متأكد أنه على دراية بأننا قدَّمنا طلبًا للحصول على رخصة تجارة. لكن ما من سبيل ليخمن من أين ندفع تكاليف استخراج الرخصة، خصوصًا أننا نبحر بسفينة متهالكة مثل ريفين. كما أنني كنت متأكدًا أنه قدَّم طلبًا للحصول على رخصة تجارة لنفسه، وما دام يملك النقود، فسوف يحوزها.

كثيرًا ما اعتقدت أنه من الخير وجود المزيد من التجار من أبناء منطقة المضايق، فمن دون وجودهم لن يصمد مجلس التجارة في منطقة المضايق أمام نفوذ منطقة البحر المجهول. لكن ولاء زولا ليس لمنطقة المضايق، إن ولاءه لمصلحته فقط.

رفع كلوف الصندوق الفارغ إلى فوق الطاولة، ورسم خطًّا مستقيمًا على زاويته بالشمع المذاب المتبقي ليميزه به، إذ كانت تلك العلامة الوحيدة التي استخدمناها لتمييز الصندوق الذي يحوي الأحجار الكريمة بين عشرات الصناديق التي ننقلها في كل ميناء.

وضعت آخر زجاجة داخل الصندوق، ولبست الحزام ذا العلبة الأسطوانية الطويلة لتتدلى على ظهري، وأنا أقول: "حسنًا، فلننطلق".

رص كلوف صندوقًا مملوءًا فوق الآخر ورفعهما إلى صدره ولبث منتظرًا. ازدحمت الحانة مع حلول الليل، لكن ما من أحد سيمعن النظر إلى شخصين ينقلان صناديق جاودار، خاصة إن كانت تلك عملية دورية معتادة.

فتحت الباب، وحملت الصندوقين الآخرين، وانطلقت نحو الدرج المفضي إلى الحانة. وكانت ليلة شديدة البرودة، وكان الحطب في المدفأة معدًّا لإشعاله بالفعل، فأحسست في ظل هذه البرودة أن الهواء جاف في حلقي.

وعندما وصلنا إلى أسفل الدرج، طأطأ الساقي رقبته ليمر من تحت المنضدة نحونا وهو يجفف كأسًا بالمنشفة في يده. ثم وضعتُ الصندوقين على الكرسي المجاور لي، ومددت المفتاح نحوه.

فأخذه ودسه في جيبه، وهو يسأل: "ثلاثة أسابيع؟".

أجاب كلوف: "ثلاثة أسابيع".

عقَّب الساقي: "هذا المشروب لا يدوم طويلًا هذه الأيام".

همس كلوف: "أنا واثق بأن إضافة بعض الماء سيحل الأزمة".

تغافل الساقي عن الاتهام الضمني. إن صحة الاتهام لا تتوقف على إقراره به، إذ لا يوجد ساقٍ في منطقة المضايق كلها لا يغش المشروبات.

عندئذ سألته: "تقول روزاموند إن ثمة أحاديث تُتداول عن السفينة التي تصنعها، أهذا صحيح؟".

سألني: "وما شأنك بهذا؟".

لم تتغير نبرة الساقي وهو يتكلم، لكن قبضته اشتدت على الكأس بدرجة لفتت انتباهي. إن أسرع طريقة يرمي بها نفسه إلى التهلكة هي نقل الثرثرات التي يسمعها على هذه المنضدة.

قلت مذكرًا إياه: "كلما قل فضول الناس بشأن ما يحصل على ذاك الرصيف، ازدادت احتمالية استمرار توصيلي الجاودار إليك".

أثار كلامي اهتمامه. وضع الكأس وراءه، ورمى قطعة القماش على كتفه.

عاودت سؤاله: "مَن الذي يثرثر بهذا الحديث؟".

خفض رأسه، وقال بصوت خافت: "ذاك الأحمق مساعد روزاموند".

انتفضت عينا كلوف نحوي، وراح يسب بكلام غير مفهوم.

ناش.

أردف الساقي: "لقد عرض تقديم تفاصيل صنع السفينة لأي شخص لديه استعداد لأن يدفع حافظة نقود. وحتى الآن لم يدفع له أحد".

إنَّ تخيُّل الناس ما يجري على ذاك الرصيف ليس مثل حديث ناش عنه، فهو يعرف ما يحصل حقًّا. ولم يكن من الممكن أن أنتظر طيلة ثلاثة أسابيع وأنا أترقب ما إذا كان ناش قد وجد شخصًا مهتمًّا بالمعلومات التي يبيعها، بل كنا قاب قوسين أو أدنى من انهيار كل شيء.

قلت: "أَطلِق شائعة جديدة ينشغل بها الناس، لست آبه بفحواها ما دامت ليست ذات صلة بي".

فأجاب الساقي بإيماءة مترددة وهو يقول: "لك ذلك".

"سينت!".

تردد اسمي عبر الحانة منطلقًا من فم آخر شخص أردت رؤيته.

عندئذ رنا كلوف إلى عينيَّ، وزفرت زفرة طويلة قبل أن ألتفت لأرى زولا متكئًا بكتفه على الجدار المجاور لموقد النار، ووقف إلى جانبه بيرك، ملَّاح السفينة لونا. كادت سترة زولا السوداء الطويلة تلامس حذاءه الجديد، وتسنى لي من موقفي رؤية بريق العُرى النحاسية اللامعة. خلال الأشهر القليلة المنصرمة كان يتردد على منطقة البحر المجهول في معظم رحلاته. وقد كنت واثقًا بأننا لن نلتقي به هنا.

تمتم كلوف: "لا بد أنه وصل مبكرًا".

لوح زولا بيده في الهواء يدعونا لموافاته، وترددت قبل أن أحمل الصندوقين مرة أخرى، ثم شققنا طريقنا نحوهما، بينما كان بيرك يملأ غليونه بأوراق نبتة البوصير، بغير اكتراث.

أما زولا، فاصطنع ابتسامة. ولم يكن سرًّا أنه يتربص بنا الدوائر، ولكن ثمة شكليات يجب مراعاتها في منطقة المضايق، خاصة إن أردت مغافلة مَن تتربص به. فلكل منا دور يؤديه، وحتى الآن أدى كل منا دوره بإتقان.

وضعت الصندوقين أرضًا، وتلقفت يد زولا مصافحًا إياه، وأنا أسأله: "كيف وجدت باستيان؟".

فاتسعت ابتسامة زولا وهو يقول: "مربحة".

لقد عرفته منذ أمد بعيد، فترة كافية لجعلي قادرًا على كسفه حين يتحايل ويمكر. لكن المشكلة أن زولا كان يأخذ كل شيء على محمل العبث، وهذا جعل من المتعذر تمييز الأكاذيب من الحقائق.

أول مرة تقاطعت طرقنا، كنت أنا وكلوف نشرع في شق طريقنا التجاري الذي سيصير فيما بعد طريقنا التجاري غير الرسمي، التقيناه أول مرة حين رسونا في سيروس، وفي تلك الآونة كان زولا مجرد عامل عادي يتنقل من سفينة إلى أخرى. أما الآن، فله طريق تجاري من غير تصريح فيما ينتظر استخراج رخصته، مثل بقيتنا. إننا بطبيعة الحال متنافسون في منطقة المضايق، لكن أنا وكلوف لم نشكل تهديدًا كبيرًا له، ونحن نبحر بالسفينة ريفين. أما إن عرف ما كانت تصنعه روزاموند، فلن يقف مكتوف اليدين بالطبع.

سألني وعيناه تهبطان إلى الصناديق: "قصدت سوان؟".

أومأت وأنا أجيب: "كالمعتاد".

فعقَّب: "أخبرتك بأنه لا ربح في تجارة الجاودار يا سينت. عليك أن تنقل الأحجار الكريمة، هذا كل ما يهتم به أوغاد النقابة أولئك في سيروس. ثق بكلامي".

أجبته وأنا أعاني صعوبة جمة في مواصلة التمثيل المعتاد بيننا: "سوف أفعل ذات يوم".

كان زولا قد جمع لنفسه طاقمًا، وكانت لديه صداقات كثيرة في النقابات لضمان حصوله على ترخيص، لكنه كان منصاعًا بمهانة لجميع تجار منطقة البحر المجهول، خاصة منذ شرع يبحر إلى مدينة باستيان. وقد كانت تلك خطوة أثارت ازدراء جميع التجار الذين يشقون طريقهم للحصول على ترخيص في منطقة المضايق بدءًا من قرية ديرن وصولًا إلى مدينة سيروس، وكان على دراية بذلك. إنه من مواليد منطقة المضايق، بيد أنه لم يكن واحدًا منا.

قال: "أتعلم، ليس هذا هو الشيء الوحيد الذي يدر الربح الوفير. سوف أجني الكثير من النقود على مدار الأشهر المقبلة بمجرد وصولي إلى سيروس".

هكذا كانت تجري هذه المحادثات عادة، بلفت زولا الانتباه إلى بعض أنشطة التجارة الغامضة، وأنا أتظاهر بإبداء الاهتمام.

سألته: "ما الذي أقحمت نفسك فيه الآن؟".

التقمت الطُّعم؛ لأن هذا ما كان يفترض بي فعله. فأيًّا يكن ما جلبه من باستيان، فقد بث التماعة في عينيه، وما دام هذا الأمر قد أثار حماس زولا بدرجة تدفعه إلى التباهي به، فلعله شيء يجدر بنا الانتباه إليه، هذا هو ما استفدته من زولا.

انحنى إلى الأمام حتى احتكَّ بكم سترتي قبل أن يضع ذراعه حول كتفيَّ، فتأهب كلوف بجواري، ويده تقصد السكين المغمدة في مؤخرة حزامه. لكن زولا لن يقدم على إلحاق الأذى بي هنا، ليس على مرأى من الملأ.

ثم قال: "تجارة بضائع لا يصنعها أحد".

قطبت جبيني وأنا أمعن النظر فيه. كانت كلماته تخرج متثاقلة إثر ثمالته، ولاح انحراف في صوته وفي كتفيه لا يكون موجودًا عادة.

دفعته بعيدًا، فضحك وهو يمد يده إلى زجاجة الجاودار ليعيد ملء كأسه.

قال: "دائمًا ما كنت مفتقرًا إلى روح الفكاهة يا سينت".

قلت وأنا أنظر في ساعتي: "لعلك محق".

كان من المقرر أن نغادر عند الفجر، ولكن ثمة عملًا لا يزال علينا إنجازه الليلة، عملًا لا نريد أن يلاحظه أحد.

لبث زولا صامتًا هنيهة قبل أن يفتح فمه للتحدث مرة أخرى، بيد أنه قطع ما كاد يشرع في قوله، حين انفتح باب الحانة، وراح ينظر نحوه.

التفتُّ وتجمدت وهلة حين لاح لي وجه بين عشرات الوجوه التي ملأت الحانة، وجه لم أتعرف على صاحبته.

فتاة ذات شعر أسود، وعينين زرقاوين زرقة فاتحة، تطوقهما رموش داكنة، دلفت إلى الداخل، وأغلقت الباب من ورائها بإحدى ذراعيها، أما الذراع الأخرى، فكانت تحتضن بها عدة لفائف ورقية تشبه الخرائط.

عندئذ تمتم زولا، وارتسمت على شفتيه الرفيعتين ابتسامة: "يا له من جمال يسر الناظرين".

ثم نادى ليلفت انتباهها إلى مكانه: "إريس!".

تعرفت على مكانه بعد هنيهة، وأحجمت وهلة قبل أن تشق طريقها نحونا، وكان بصرها يتردد بيني وبين زولا وكلوف وهي تسير بين الطاولات.

رمق كلوف زولا بنظرة سأم، وهو يسأله: "هل وجدت أخيرًا فتاة تقبل مشاركتك السرير؟". لم يكن لدينا متسع من الوقت لمثل هذا الحديث.

لكن زولا ضحك مرة أخرى، وهو يربت على ظهر كلوف في بادرة غريبة، ثم قال: "لا يُدر الحب نقودًا".

توقفت الفتاة أمام زولا وهي تعيد تسوية اللفائف تحت ذراعها. وانسدل شعرها الطويل الداكن منسابًا من فتحة سترتها، ولم ألحظ أنه لم يكن أسود إلا حين خلعت غطاء الرأس الملحق بسترتها ليسقط على كتفيها، إنما كان مصطبغًا بطيف داكن من اللون الأحمر.

كانت ترتدي سترة مصطبغة بطيف من اللون الأخضر، كلون الطحالب العالقة في جانب السفينة ريفين، أما الأزرار فكانت نحاسية لامعة، وكان حذاؤها في حالة سيئة، لكنه ليس باليًا. لم يظهر على محياها أثر الشقاء الذي يغشى بقية الحضور في الحانة، كانت غضة، كأنها منحوتة من العاج. ليست من مواليد منطقة المضايق، ومن الجليِّ أنه ما من أحد أخبرها بأن ذوي الدم المملح لا يغامرون بالتجول خارج الميناء في ديرن. إن واصل زولا عرضها على الملأ من ميناء إلى آخر، فسيجذب إليها انتباهًا هي في غنى عن عواقبه.

قال زولا: "الجرَّافة الجديدة على سفينتي".

نظر كلوف نحوه بطرف عينه. دائمًا ما قال زولا على مدار سنوات إنه سيبدأ تجريف الأحجار الكريمة بمجرد حصوله على الترخيص، لكن ذلك لم يفسر الباعث على استمرار ابتسامته العريضة المرتسمة على شفتيه كابتسامة القطط.

قبض على ذراع الفتاة ليجذبها إلى جانبه، ولكن حالما لمستها أصابعه، انتزعت ذراعها من قبضته، وحدجته بنظرة صارمة. فالتمعت عيناه بوميض خاطف من الغضب، وامتُقِع وجهه، ثم تقهقر خطوة كأنه يفسح المجال لها كي تتسلط عليها الأنظار فيتباهى بها. وكان بذلك يحفظ ماء وجهه، وإن كان من الجلي أيضًا أنه يريدنا أن نرى الشيء القيِّم الذي في حوزته، ويتمثَّل في هذه الفتاة.

راح يسهب في سرد تفاصيل ضمها إلى طاقمه، وحين رنوت إلى الفتاة من طرف عيني، رأيتها قد رفعت يدها صوب الشمعة الموجودة على الطاولة المجاورة لنا، وأطراف أصابعها تحوم فوق اللهب المتراقص على الفتيل.

ثم قال زولا محادثًا الفتاة: "إنه ليس ألطف قبطان، أليس كذلك؟"، ثم رنا نحوي مرة أخرى، وأردف: "هيا يا سينت، أين دماثة الخلق؟".

انقبضت عضلات فكي حين التفتتُّ أخيرًا لأنظر نحوها، وعلى الفور تمنيت لو لم ألتفت. تناثر النمش على بشرتها المائلة للسمرة، وامتد من وجنتيها على طول فكها وصولًا إلى حلقها.

أبقت يدها فوق اللهب هنيهة أخرى، قبل أن تمدها تجاهي وتنظر في عينيّ، ولم تطرف بعينيها تقريبًا، ثم قالت معرَّفة نفسها: "إريس"، ولبثت منتظرة أن أنطق اسمي.

انكب زولا على فتح زجاجة جاودار جديدة في حين كانت يدي تصافح يدها وأصابعها تلتقي بأصابعي، فبعثت دفقًا من الدفء في كفي. وأدركت أنه دفء من أثر الشمعة. ولكن

حالما أحسست بذلك الدفء سحبت يدي من يدها، وتقهقرتُ خطوة صغيرة، في حين أمالت رأسها وضيَّقت عينيها وهي ترنو إليَّ.

وأدركت أنها لا تزال تنتظر ردًّا.

قلت: "إلياس". انفلت اسمي من لساني بسلاسة بالغة حتى ساورني إحساس بالفزع وهلة، لأنه لم يكن الاسم الذي اشتهرت به، ولم أكن قد اعتزمت نطقه كذلك. وفي الواقع لم أسمع اسمي هذا يُنطق بصوت عالٍ طيلة سنوات.

وراحت تدقق النظر تجاه فمي كأنها انتظرت مني نطق اسمي مرة أخرى، أما أنا فدسست يدي التي صافحتها بها من فوري في جيبي بحركة عفوية. فثمة شيء بشأنها بث في نفسي شعورًا قويًّا أثار أعصابي.

فتح زولا الزجاجة أخيرًا، والتفت إلينا، ثم قال بنبرة لا تخلو من سخرية: "ذلك تصرف أفضل"، وأردف: "سوف تجدين أن هذا القبطان من أساطير هذه المنطقة"، وسحب غليونه من جيبه وسلمه إلى بيرك ليعبئه.

أزعجني كلامه، ولم تعجبني الثقة التي سمعتها في صوته، كان ذلك ينم عن أنه بصدد فعل شيء ما، شيء جلل.

تململت الفتاة بجانبي، فالتفت لأرى عينيها مثبتتين على الصندوق الموضوع بجانب قدمي؛ ذلك الصندوق المميز بخط عشوائي من الشمع الأحمر. التوت شفتاها، وانحرفت جانبًا، ولاحظتُ أن يدها التي كانت تحوم فوق لهب الشمعة تنجرف بعفوية صوب الزجاجات في الصندوق، كأنها لم تقصد أن تفعل ذلك.

نظر إليَّ كلوف، لكنني وجدتها تكبح حركتها العفوية تلك، وكورت أصابعها في راحة يدها قبل أن تنظر إليَّ بحركة سريعة. وبدأ خداها يتوردان ما بث تألقًا في عينيها الزرقاوين الضاربتين إلى طيف من اللون الرمادي.

وذاب صوت زولا في ضجيج الحانة فلم أعد أسمعه، قبل أن يتضح في أذنيَّ مرة أخرى رويدًا رويدًا. لعل هذه الفتاة تكون جرَّافة كما قال زولا، لكن هذا لم يكن شأنها كله، إذ لم يكن ثمة باعث على التحديق إلى صندوق الجاودار هذا إلا باعث واحد، الأحجار الكريمة الموجودة فيه، وخبراء الأحجار الكريمة وحدهم مَن يستطيعون الشعور بها متى كانت موجودة.

عندئذ تردد في رأسي صدى تحذير هنريك. إن كان زولا متجهًا إلى سيروس ليجني أرباحًا طائلة، فهذا يعني أنه سيبيع شيئًا، أو شخصًا. لقد كان يزور منطقة البحر المجهول، ويبقي ما يفعله هنالك طي الكتمان. حتى إن مديري الموانئ في منطقة المضايق لا يبدو أنهم يعرفون ما كان يفعله. وإذا كان يبيع خبراء الأحجار الكريمة للتجار في سيروس، فهذا يعني أن لديه صداقات ذات نفوذ أقوى مما كنت أظن.

ولكن إذا كانت هذه الفتاة خبيرة أحجار كريمة متوجهة إلى ساحة المزاد، فلا يبدو أن لديها فكرة عن ذلك.

غمغمت وانتزعت عينيَّ من عيني الجرَّافة. كنت مشغولًا بمهام أخرى أكبر من أمر زولا وما يفعله، لكنه إذا كان يتاجر بخبراء الأحجار الكريمة، فهذا يعني أنه على وشك أن يغدو أكثر من مجرد تاجر مولود في منطقة المضايق، إذ من شأن الأرباح من وراء مثل هذه التجارة أن تجعله قادرًا على تمويل أسطول كامل.

أدار زولا غليونه في يده، وهو يكبس أوراق نبتة البوصير، وقال: "أتود أن تحتسي مشروبًا معنا؟".

فأجبته وعيناي تتجهان مرة أخرى إلى الفتاة قبل أن أرفع الصناديق من الأرض: "ليس الليلة". وكانت يدها لا تزال مكورة في قبضة محكمة، وتتحاشى النظر في عينيَّ.

عندئذ قال كلوف وهو قريب مني: "لنذهب".

استدرت موليًا الفتاة ظهري، ومشيت بمحاذاة كلوف.

سألني بنبرة رتيبة: "حسنًا؟ ما رأيك في ذلك؟".

نظرت إلى الوراء نحو الجرَّافة ونحن نمرق من الباب، ووجدتها ترنو إليَّ.

ثم قلت: "أظن أن زولا اقتحم مجال تجارة جديدًا".

5 إيزولد

ظلت ذبذبات الأنغام الصادرة عن حجر الزمرد الأحمر تتردد في أذنيَّ حتى بعد خروج القبطان إلى الشارع. وهاتان العينان الزرقاوان الضيقتان ألهبت نظراتهما كل موضع هبطت عليه في جسدي، وما زلت أشعر بعينيه إلى الآن، شعرت بطيفهما باقيًا على جلدي.

اعتقدت خلال وهلة أنه قد رآني من قبل، إذ لاحت في عينيه نظرة كأنه يعرفني بطريقة ما، وأحسست بأنه يعلم شيئًا ما لا يريد البوح به، ولكن ما لبثت هذه النظرة أن تلاشت.

إن هذا الزمرد الأحمر من أوائل الأحجار الكريمة التي علَّمني أبي التعامل معها، هذا الحجر ذو طنين خفيض يتردد صداه في الجو، وهذا الإحساس جعلني أستحضر وجه أبي على الفور في ذهني.

طرفتُ بعينيَّ في محاولة لمحو الصورة قبل أن يجيش ألم مبرح في صدري.

عندئذ تمتم زولا وهو يدخل الحجيرة: "وغد مراوغ".

لبثت عيناي مثبتتين على الباب هنيهة أخرى. فأيًّا مَن يكون هذا القبطان اليافع، فلسوف يُهلك نفسه بتنقله وهو يحمل تلك الأحجار الكريمة داخل زجاجات الجاودار. كان ذلك دهاءً بالتأكيد، بيد أن تجارة كهذه لن تلبث أن توقعه في المآزق.

قال زولا آمرًا: "اجلسي".

انتزعت بصري من الباب، وتذكرت سبب مجيئي إلى الحانة في الأساس. وجلس بيرك بجواره محدودبًا متكئًا على الطاولة، وأخذ ينفخ في غليونه، فاشتملني دخان أوراق نبتة البوصير ما جعل عينيَّ تغاران بالدمع.

جلست بامتعاض على كرسي مقابل لهما، وأنا أضع اللفائف التي أُعطيتْ لي. إن هذه الخرائط أكدت شكوكي تجاه زولا وسفينته لونا، إذ إن ظنه أنه سيقدر على تدشين تجارة قائمة على استخراج الأحجار الكريمة ينم عن سذاجته وعدم تقديره السليم للأمور. إذ ثمة سبب وراء تحكُّم منطقة البحر المجهول في سوق تجارة الأحجار الكريمة.

أتتنا شابة متوشحة بوشاح أزرق حول رأسها، وأمسكت بزجاجة جاودار فارغة قبل أن تنظر نحوي وتسأل: "ماذا تودين أن أُحضر لكِ؟".

فقلت وأنا ألقي نظرة على زولا: "إبريق شاي".

تفحصتني بنظرة ذات مغزى قبل أن تمضي. إن رجالًا ذوي عيون محتقنة، وأصوات صاخبة إثر الثمل ليسوا مصدر إزعاج لها، أما أنا فأريد أن يبقى القبطان يقظًا، فهو ليس ذا نفع لي، إذ إنه ثمل، بل يمكن أن يكون خطيرًا.

تجرَّع زولا كأسه ومسح زاوية فمه بظهر يده، ثم سألني: "هل انتهيتِ من مراجعة الخرائط؟".

فأجبته: "بلى".

فتساءل: "وماذا وجدت؟".

حركت كأس زولا إلى حافة الطاولة كي أخلى سطحها لأبسط أول خريطة، لقد كانت قديمة وتصعب قراءتها، لكنها كانت خيرًا من عدمها. وإذا كان تجهيز السفينة لونا للانطلاق في عمليات تجريف سيصرف انتباهه عني، فسأعمل على الأمر، لكنني سأغادر سفينته قبل أن يُسقط زولا المرساة عند منطقة شعاب مرجانية.

وضعت إصبعي على مجموعة الشعاب المرجانية الممتدة وسط منطقة المضايق، مع وجود تدوينات تتعلق بطبيعة تكوينات الصخور في تلك المنطقة. ولم يكن ثمة شعاب مرجانية

كثيرة ذات شأن باستثناء تلك المحيطة بجزيرة صغيرة، وكذلك المجموعة الكبيرة الموجودة في منطقة تسمى بحر شرك العواصف، لكن في العموم كان يوجد ما يكفي لتسيير العمل.

قلت: "هنا"، ثم أردفت: "توجد أماكن كثيرة يمكن الشروع في العمل انطلاقًا منها، وهذا أحدها".

انتبه بيرك على الفور، واعتدل في جلسته وهو يطبق بأسنانه على غليونه. وإلى جواره كان وجه زولا قد تخفَّف من بعض الغرور المرتسم عليه.

نقلت عينيَّ بينهما وأنا أتساءل: "ما الخطب؟".

أجاب بيرك: "ما من أحد يبحر في شرك العواصف. وهذا لسبب وجيه".

عدت أتساءل: "ماذا؟ ما السبب؟".

شهق زولا، وقال: "إنه شرك هلاك. تمتد المياه الضحلة أميالًا، وترمي بك العواصف إلى تلك المياه الضحلة. ثمة العشرات من السفن الغارقة في تلك الشعاب المرجانية، كما أن الإبحار في تلك المنطقة يعني احتمالية انخراق قعر السفينة، وهكذا تكون النهاية".

أومأ بيرك بذقنه تجاه الباب الذي خرج منه القبطان اليافع قائلًا: "حتى سينت لا يجرؤ على الإبحار في تلك المياه".

سينت. هذا هو الاسم الذي أُشير به إلى القبطان الذي كان يحمل صندوقي الجاودار، لكن القبطان قال إن اسمه إلياس. ولا أدري لماذا فاجأني ذلك. فإذا كان ذاك القبطان على شاكلة زولا، فسيكون الكذب أهون مثالبه. ولكن لتحري الإنصاف، أنا أيضًا لم أخبره باسمي الحقيقي.

عاد زولا يقول بلهجة أشد ثقلًا: "إننا لا نبحر في بحر شرك العواصف".

ولاحت في نبرته آثار من التوتر، بل الخوف.

تنهدت وقلت: "لا بأس"، وانتقلت إلى الخريطة التالية، ثم أردفت: "إذن أرى أن أفضل الخيارات التي ستكون متاحة أمامك هو التنقيب عن أحجار العقيق الأحمر وأحجار الزركون، ويمكن العثور عليهما في ثنايا الصخور الرسوبية، التي ستجدها فيما يقرب من نصف مساحة قاع البحر. ومن السهل تحديد موقع الأحجار الكريمة، ومن السهل تجريفها، وبوسعك العمل على الشعاب المرجانية لمعرفة ما تنطوي عليه أيضًا. وبمجرد تحديث خرائطك يمكنك إعداد خطة أشمل، فتستعين بخدمات المزيد من الجرَّافين، وتعثر على...".

عندئذ نقر زولا بخاتم إصبعه على كأسه الفارغة، وقال: "نحن".

تساءلت: "ماذا؟".

قال: "استعملي ضمير الجمع، فأنتِ لا تنفكين تتحدثين بضمير المخاطب".

راجعت نفسي وأنا مثبتة عينيَّ على الخريطة وقلت: "نحن".

يبدو أنني قد هوَّنت من شأن زولا حين اعتبرته ساذجًا منذ صعدت للمرة الأولى على متن السفينة لونا، إذ رأيته مجرد شخص مفتقر إلى المهارات اللازمة، وأداة في يد أشخاص أقوى منه، وكل ما يفعله هو أن يخدم أمثال سيمون في منطقة البحر المجهول، لكن هذا القبطان لم يكن بهذه السذاجة التي حكمت عليه بها أول الأمر، إذ كانت لديه خططه الخاصة، ويعتزم تحقيقها.

تساءل: "إذن، كيف يسير الأمر؟ ننزل مرساتنا في أي مكان، ونبدأ تجريف الأحجار الكريمة؟".

أجبته: "ليس بهذه البساطة. ثمة تخطيط يجب العمل عليه، وينبغي تجهيز السفينة لونا بالمعدات المناسبة".

أرخى زولا إحدى ذراعيه من فوق ظهر كرسيه، وقال: "من الخير إذن أنني سأستفيد من خبرتك. وأعطي بيرك قائمة بما نحتاج إليه وسوف يحضرها حين نرسو في سيروس".

رنوت إلى وجه بيرك بنظرة فاحصة، بيد أن انتباهه كان مصروفًا إلى محادثات الطاولة المجاورة، والدخان يُنفث من منخريه الواسعين. إنه لا يعرف أي شيء عن اللوازم التي يحتاجون إليها للغوص، وهذا لا يعنيني في شيء. لكن التجريف كان أفضل خياراتي لجمع العملات المعدنية بعد إنجاز المهمة التي ينبغي لي إنجازها في سيروس، وسوف أحتاج إلى حزام تجريف بأدواته.

قلت: "الأدوات التي سأحتاج إليها للغوص والتجريف".

عندئذ سألني بيرك: "ألا تثقين بي؟"، باغتني حين أدركت أنه لا يزال منصتًا إلينا ومنتبهًا معنا.

قلت: "ليس الأمر هكذا بالضبط". على الأرجح أنه لا يستطيع التمييز بين الإزميل ذي النصل الدقيق وعود تنظيف الأسنان.

ارتفع أحد جانبي فم زولا وهو يقول: "أنا لا أشتري الأدوات التي يحتاج إليها مَن يشغل منصب رئيس السفينة، وكذلك لن أشتري الأدوات التي تحتاجين إليها".

قلت: "وكذلك، أنت لا تحاول تشييد تجارتك بجهود غيرك".

عندئذ اتقد النشاط في عينيه، واعتدلت وضعية جسده المتراخية وهو يقول: "تجارتي تُشيَّد بجهودي أنا"، وتحدث بنبرة لم أسمعها منه قبل ذلك؛ نبرة أثارت قشعريرة في جسدي.

ارتدت كتفاي إلى الوراء، وانقبضت عضلات فكي في توجس.

وتابع قائلًا: "اسمعي، لست أدري ما الذي تفرين منه في منطقة البحر المجهول، ولست أكترث بذلك. لكنني أعرف أنه إذا كان لديك أي مكان آخر كي تذهبي إليه ما كنتِ لتطلبي من سيمون أن يضعك على متن السفينة لونا؛ لذا كُفِّي عن التظاهر بأن لديك نقاط قوة تساومين عليها".

ساورني شعور الاضطراب الذي ساورني في غرفته ظهر اليوم وأنا أنظر إلى عينيه، لم يرقني ما لمحته فيهما. وقد كان محقًّا، حتى إن كان يجهل هوية والدتي أو الباعث على ذهابي إلى سيمون في تلك الليلة، فإنه يعلم أنني أحتاج إليه من أجل شيء ما، ولن يسمح لي بأن أنسى ذلك.

وواصل حديثه: "إنها لعبة يا إريس. الأمر كله لعبة. النقابات، والمجالس، والتجار، ونقودهم".

كنت أدرى منه بذلك، وكان أبي أيضًا على دراية بذلك.

أردف: "أقترح عليكِ أن تبدئي استكشاف كيفية اللعب".

عادت المرأة تحمل إبريق الشاي وكوبين، ولكن بمجرد أن وضعتهما على الطاولة، مد زولا يده نحو زجاجة الجاودار مرة أخرى.

أما أنا، فسحبت الإبريق نحوي، وملأت أحد الكوبين، ورأيت الرواسب تحوم في القعر، فتجهمت.

ثم قال زولا وهو يرفع كأسه ليلامس به كوب الشاي: "إن كنتِ تريدين التواري في منطقة المضايق يجب عليك أن تندمجي مع طبيعة الحياة هنا".

قلت: "أهذا كل ما يقتضيه الأمر؟ أتجرع الجاودار الذي أضع فيه أحجاري الكريمة بُغية تهريبها، وعندئذ أكون واحدة منكم؟"، خرجت الكلمات بمرارة أشد مما أردت إظهاره، ولم

يرقني أن ذلك جعلني أبدو مكترثة بالأمر.

لكن لم يبدُ أن زولا لاحظ تلك المرارة. فقد جمدت يده التي تحمل الكأس في الهواء لحظة نطقي تلك الكلمات، ومع أنني لم أكن متيقنة من السبب وراء ذلك، كنت واثقة بأنني اقترفت خطأ.

ثم وضع الكأس على الطاولة وتساءل: "ماذا قلتِ؟".

ألقيت نظرة خاطفة صوب بيرك عبر الطاولة، وهو يسحب الغليون من فمه.

وانحنى زولا مقتربًا مني، وتساءل بصوت عميق: "هل هذا ما يفعله؟ سينت؟ يهرِّب الأحجار الكريمة؟".

انزاحت عيناي تجاه الباب الذي مرق منه القبطان ذو العينين الزرقاوين قبيل دقائق، وعاد شعور الاحتراق يغزو جلدي.

تلوَّى وجه زولا بسخرية ساخطة، أما أنا فثبتُّت بصري على الشاي في كوبي قبل أن أرتشف رشفة. لم أكن أقصد الوشاية بالقبطان، لكن الوغد بفعلته هذه كان كأنما يتوسل للقبض عليه. لقد أحسست بوجود الزمرد الأحمر حالما دلفت إلى الحانة، فأذناي تلتقطان أدنى موجات تصدرها الأحجار الكريمة، لكنني في المعتاد كنت أُحسن إخفاء معرفتي بوجود هذه الأحجار.

عاد يسأل: "وكيف تعرفين أنه يهرِّب أحجارًا كريمة في الجاودار؟".

ولوهلة اعتقدت أن زولا قد اكتشف أمري، فغاص قلبي. لقد كشفت نفسي أكثر مما ينبغي.

أجبته كاذبة: "كان الصندوق مُعَلَّمًا عليه. لقد رأيت آخرين يفعلون ذلك في مدينتي باستيان وساجاساي هولم".

كنت بتلك الكذبة أراوغه مراوغة خطيرة، لكن بدا أن زولا قد صدقها. كان طموحًا، حتى لو لم يكن يتمتع بالبراعة والحذق. إن مَن هم على شاكلته لم يكونوا أكثر من مجرد جرذان تلتقط الفتات المتساقط من المائدة، أما مَن يتناولون الطعام على المائدة، فهم مَن شاكلة والدتي. وذلك لا يعني أن زولا لم يكن يمثل تهديدًا.

ترددت نظرة بيرك بيننا، وخبط زولا الطاولة بقبضته ففزعت.

ثم قال محادثًا نفسه: "هكذا إذن استطاع الإبحار، ودفع أجور البحَّارة. من يدري كم عدد الأحجار التي نقلها. بالطبع لا يتاجر في الجاودار فقط"، لكن صوته تلاشى وهو يستنشق نفسًا طويلًا منتظم الوتيرة، ومع زفيره ذلك النفس كان قد عاد إلى طبيعته المعهودة. ثم التفت إلى بيرك وسأله: "ماذا يقول جيريك بشأنه؟".

أجابه بيرك: "لا شيء. يقول إنه يأتي ببعض الجاودار كل بضعة أسابيع، كميات صغيرة نسبيًا دون تصريح من مجلس التجارة".

كانت مجازفة أن تثق بمدير ميناء، لكن ما من أحد في الميناء يعرف أكثر منه عما يجري في السفن أو في السوق.

ضيَّق زولا عينيه وهو يرمي ببصره ورائي بتركيز شديد مثير للقلق، ثم قال: "لقد قدَّم طلبًا للحصول على رخصة تجارية، والآن ينخرط في تجارة أحجار كريمة".

قال بيرك: "حتى إن حصل على الرخصة، فلن تلبث سفينته أن تغرق بعد رحلتين أو ثلاث".

إن زولا لديه خطط كبيرة بشأن تدشين مساره التجاري في منطقة المضايق حين يحصل على رخصته التجارية، ومع ذلك منذ أن ركبتُ سفينته لم أرَ منه سوى التملص من حقيقة كونه أحد أبناء منطقة المضايق. ولعل هذا أقرب تفسير لسبب قبوله انضمامي إلى طاقمه، ربما يرى أن انخراطه في عمليات تجريف الأحجار الكريمة كما يفعلون في منطقة البحر

المجهول، ووجود فتاة من ذوي الدم المملح بين طاقمه، أمران يقربانه خطوة إلى أن يكون هو نفسه من المنتسبين إلى منطقة البحر المجهول.

قال زولا: "يجب أن نصل إلى سيروس في غضون ثلاثة أيام. فاحرص على عدم ابتعاد طاقمنا، سنغادر قبل غروب شمس الغد".

أومأ بيرك ممتثلًا للأمر.

أمسكت بكوبي مرة أخرى لأشغل يدي المتململة بشيء يواري تلك الحركة العصبية التي دبت فيها. والآن تسير الأمور في الوجهة الصحيحة. لست آبهة بنزاعاتهم وخصوماتهم اللعينة، بل كل ما أكترث له هو الوصول إلى سيروس.

دس زولا يده في سترته وسحب حافظة صغيرة تحوي نقودًا قبل أن يلقي بها أمامي على الطاولة.

رنوت إلى الحافظة.

صاح: "من أجل أدواتك".

قلت: "حسبت أنك لا تشتري أدوات لطاقمك".

قال: "أحسب أنك قدمت ما يستحق ثمنها"، ونهض ثم مضى وتبعه بيرك تاركين إياي وحدي على الطاولة.

وفي غضون لحظات، صُوبت نحوي الأعين من كل جهة في الحانة، إذ رموني بنظرات خاطفة حادة من أطراف الأعين، وكذلك سلط عليَّ بعضهم أعين تتقد خبثًا وشرًا.

لا يروق سكان ديرن وجود ذوي الدم المملح في حاناتهم، وقد أرادوا إيصال ذلك لي.

أخذت حافظة النقود، وتركت بقية الشاي، وزررت سترتي، ثم انطلقت نحو الباب. إن الاعتراف بذلك ليس بالأمر السهل على نفسي، لكن ربما ذلك القبطان أعمق غورًا مما ظننت، وستكون أموري معه أشد تعقيدًا مما توقعت.

6 سينت

غرقت شوارع ديرن في هدوء عقب حلول الليل، ومع ذلك في قرية بهذه الضآلة لا سبيل للهروب من المراقبة.

اتكأت على الجدار عند زاوية الزقاق وأنا أشاهد ضوء الفانوس الخارج من نافذة عبر الشارع وهو يتراقص فوق الدرب المرصوف بالحجارة. وعكفت المرأة في الداخل على غزل الصوف باستخدام عجلة غزل، وترامى ظلها على الجدار كأنه أحد عروض الدمى المتحركة التي تقام في شوارع مدينة سيروس.

كنت صبيًّا في أول مرة رأيت فيها أحد تلك العروض، ذلك حين سمح لي أبي أخيرًا بمرافقته إلى المدينة خلال رحلته السنوية لإعادة تزويد قارب الصيد بحبال، وخطاطيف، وشباك جديدة. رأيت مبانيها أطول من أي مبنى وقعت عليه عيناي من قبل، وكانت متاهة الجسور المصنوعة من الحبال والمنتشرة فوق أسطح البيوت أشبه بشيء من الخيال. ومع ذلك، أكثر ما أسَر لُبِّي كان السفن الآتية من منطقة البحر المجهول، التي رست في الميناء، بصواريها الشاهقة، وأشرعتها البيضاء الناصعة الموسومة بشعارات التجار، والعمل المحموم الذي ينهمك فيه البحَّارة على أسطحها.

أمرني أبي بانتظاره خارج مقر السوق أثناء شرائه اللوازم التي يحتاج إليها، لكنني تسلقت فرعًا سميكًا من فروع نباتات متسلقة تغطي الجدار الشرقي، حتى وصلت إلى نافذة يتسنى لي منها مشاهدة التجار في مقر السوق، وهم يباشرون أعمالهم في الأسفل.

لقد لاحظت الأمر منذ صباي، ذلك البون الشاسع بين ذوي الدم المملح المهندمين وسكان منطقة المضايق الذين يبيعون بضائعهم. لقد سمعت أحاديث تروى عنهم في قريتي كراجسماوث، ولكن لم يكن ثمة باعث يحث أحد أبناء منطقة البحر المجهول على القدوم إلى قرية مثل قريتنا، فكانت تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها أمثالهم. ومع موعد

مغادرتنا الميناء رحت أتخيل شعارًا خاصًا بأحد أبناء منطقة المضايق مرسومًا على إحدى تلك السفن، وهأنذا الآن، بعد أن صار في مدينة سيروس مجلس تجارة خاص بها قادر على منح التراخيص، أمامي الفرصة لأبحر بسفينة تحمل شعاري، تمامًا كما تمنى أبي.

تردد دبيب رقيق لقدمين حافيتين على حجارة الطريق في الزقاق، فاتجهت عيناي صوب مصدر الصوت المقبل في الظلام. وبعد هنيهة ظهرت الفتاة، فأضاء نور القمر وجهها الشاحب. ثم ألصقت نفسها بظلي على الحائط، ونظرت إليَّ بعينين واسعتين مظلمتين.

ثم قالت: "إلى الشارع التالي، المبنى الثالث على اليسار. الشقة الموجودة في الطابق العلوي".

سألتها: "هل رآكِ؟".

هزت رأسها نفيًا، وبسطت كفها نحوي.

أخرجت عملة نحاسية من سترتي، وأمسكتها أمامها، وحين حاولت أخذها رفعتها لأعلى بعيدًا عن متناولها، ثم قلت: "لا تعطي هذه العملة أحدًا. أحضري بها عشاء. افعلي ما أقوله، وسوف أكلفك بمهمة أخرى في المرة المقبلة التي آتي فيها إلى ديرن. مفهوم؟".

ارتفعت زاوية فمها قبل أن تومئ برأسها في تردد قبل أن أضع العملة النحاسية في راحة يدها. إن فتاة كهذه لديها مخاوف جمة، إن وراءها أختًا تطعمها، وأمًّا ترعاها، ولكن إذا ما تحلَّت بالفطنة فسوف تراني على حقيقتي: فرصة لتحسين أوضاعها، وما من أحد آخر سيوفر لها مثل هذه الفرصة.

كوَّرت يدها على العملة، وانطلقت حتى توارت عند المنعطف.

لقد قرصني الجوع كثيرًا مثلها، ومن ثم أنا أعرف أن أمثالها من المساكين هم الأجدر بالثقة في أي ميناء، وكنت بحاجة إلى شخص على شاكلتها لا يسترعي الانتباه. وعلى الأرجح

سوف تكون الفتاة منتظرة في المرة المقبلة التي ترسو فيها السفينة ريفين هنا، وسوف أفي بوعدي لها. لست بصدد تغيير مصيرها البائس - فتلك مهمة لا يقوم بها سواها - لكن على الأقل سوف تحصل على بعض وجبات ساخنة من ورائي.

خرجت من الزقاق، وحثثت الخطى إلى الشارع التالي، ثم أحصيت ثلاثة مبانٍ قبل أن أجد الباب الذي بحثت عنه، ورفعت عينيّ لأراقب النوافذ العلوية قبل أن أفتحه. كان الدرج في الداخل ضيقًا، ويتقاطر منه ماء المطر الأخير المتسرب عبر السقف، فارتقيته بخطوات متمهلة وساكنة، أمر بالباب تلو الباب، ومن خلف الأبواب سمعت أصوات بشر، واحتكاك ملاعق تفرغ الأطباق، ونشيج طفل.

أفضى الدرج إلى الطابق العلوي، حيث وجدت بابًا خشبيًا مطليًا باللون الأحمر في جدار متصدع مغطى بالجص. فاستللت السكين من مؤخرة حزامي، وأصخت السمع، كان الجو هادئًا في الداخل، ما يعني أنه كان بمفرده، وهذا يسهل الأمر عليّ، ويجعل العملية أنظف أيضًا إن وصل الأمر إلى إراقة دماء، وهذا احتمال وارد.

دسست طرف النصل في الشق بين مصراع الباب والإطار الخشبي، ورفعت النصل حتى اصطدم بالمزلاج الموجود على الجهة الأخرى من الباب. واستغرق مني الأمر محاولتين للنجاح في فتح الباب، وعندئذ تدفق الضوء من الغرفة إلى الردهة. وكان كل ركن من أركان الغرفة الضئيلة مرئيًا من المدخل؛ سرير صغير، ومنضدة صغيرة للكتابة. كانت الغرفة ضئيلة وقليلة الأثاث، لكن الدلائل التي وشت بوجود شخص يعيش فيها هي البطانية المطوية على كرسي وبعض الكتب المرتبة بدقة على رف غير منتظم الأبعاد. وكاد المشهد يثير ضحكي، إذ كان يروق ناش الاستهزاء بنا أثناء زياراتنا مقر روزاموند، لكن حياته كانت مختلفة كل الاختلاف عن حياتي.

وجدته بجوار النافذة محدودبًا فوق الحوض يفرك وجهه بيديه قبل أن يرفع الماء إلى شعره. وكانت الحمالات الملحقة بالسروال متدلية من خصره وقميصه غير مرتب، فبدا أنه

عاد من فوره من عمله على الرصيف، ولعله في غضون بضع دقائق أخرى كان سيتوجه إلى الحانة.

دلفت إلى داخل الغرفة، ومشيت بخطوات خفيفة، تلك الخفة التي علمني إياها أبي حين كنا ننصب بها الفخاخ للطيور في الحقول، ودائمًا ما أحسست بثقل في قلبي خلال تلك الصباحات التي نصطاد فيها الطيور، وأحسست بتأنيب ضمير دائم. بيد أن تأنيب الضمير ذاك ليس له أثر في نفسي الآن، لقد انقضى أمد طويل منذ آخر مرة ساورني فيها ذلك الإحساس.

انتصب ناش في وقفته وهو ينفض أصابعه التي يتقاطر منها الماء في الوعاء، في حين ظهرت خلفه وهو يمشط شعره بيديه المبتلتين، فلما رأى انعكاسي في المرآة تجمد في مكانه.

وحل صمت لم يقطعه سوى تساقط القطرات المتسربة ببطء عبر سقف الردهة، وصوت الرياح وهي تلطم مصراع النافذة في الخارج. إن صرخ فقد يسمعه أحدهم، أو قد لا يسمعه. في قرية مثل ديرن تتضاءل احتمالية أن يخف أحد لنجدتك.

بدا كأن الخاطرة ذاتها تجول في باله، ولاح الهلع في عينيه، وهو يستعرض الخيارات المتاحة أمامه. وعندما استدار ليواجهني أخيرًا، تحدث كأن صوته لا يزال يحتفظ برباطة جأشه كما بدا، لكن كان بوسعي رؤية الخوف الشديد في عينيه. قال وهو يهبط ببصره إلى يدي الملفوفة بضمادة: "ماذا تفعل هنا بحق الجحيم؟".

لم أُحر جوابًا. فما المغزى من ذلك؟

والآن زايله معظم العجرفة التي كان يتصرف بها عند الرصيف، فهنا لم يكن يعدو أن يكون مجرد أحمق اكتسب عداوة شخص لا يقوى على مناطحته إطلاقًا.

خطوت نحوه، فرفع إحدى يديه في المسافة الفاصلة بيننا، وقد تلاحقت أنفاسه، ثم قال: "ما الخطب يا سينت؟".

قلت: "أعتقد أنك تعرف ما الخطب".

اتسعت عيناه، وتقهقر قليلًا ناحية النافذة.

أردفت: "أعلم أنك كنت تثرثر بشأننا، والآن علينا أن نرى ما يجب فعله حيال ذلك".

شخص ناش ببصره ناظرًا إلى الباب من خلفي، وكأن أحدهم سيظهر هنالك لينقذه من هذه الورطة، ثم قال: "اسمع، لديَّ نقود، حسنًا؟ خذ كل ما تريده وامضِ إلى حال سبيلك فحسب".

اشتدت قبضتي على مقبض السكين، وأنا أقول: "لقد فات الأوان على ذلك".

لم تكن الأمور معقدة الفهم، في منطقة المضايق كانت ثمة أفعال وردود فعل، وكان معظم الأفعال ذات عواقب معروفة لا مناص منها. وكان ناش يعلم حين نشر ثرثراته في الحانة أن ذلك سيكون له رد فعل، وإن لم يكن يعلم ذلك فهو هالك على أية حال. إن من لا يلتزمون بالقواعد لا يعمِّرون طويلًا في عالمنا هذا.

شخصت عيناه نحو المنضدة، فثمة سكين بجوار ساعته، ولكن قبل أن يتحرك نحوها هجمت عليه، وقبضت على حلقه دافعًا إياه إلى الوراء حتى ارتطم بالجدار، فكاد يهوي.

أبقيت صوتي رزينًا وهادئًا وأنا أقول: "أمامك خياران: إما أن أسفكُ دمك على هذه الأرضية، أو تصحبنا".

استكان ناش، وحلت الحيرة محل الذعر في عينيه، ثم تساءل: "أصحبكم؟".

قلت: "إن ريفين في حاجة دائمة إلى شخص قادر على إجراء إصلاحات فيها، وقدومك معنا سيجعلك بعيدًا عن الحانة حتى نعود لأخذ السفينة أستر والإبحار بها".

قال: "لن أذهب إلى أي مكان معك، فركوب تلك السفينة ليس أقل خطرًا من ربط صخرة في قدمي ودفعي إلى المياه، لن تصمد هذه السفينة رحلة أخرى".

دائمًا كان هذا هو حال السفينة ريفين، ما ينفك الناس يستهينون بكفاءتها.

قلت: "حسنًا"، ثم تراجعت خطوة إلى الوراء وأنا أدير السكين في يدي بحيث أسدد النصل نحوه، فرفع ناش يديه، واتسعت عيناه.

وقال: "مهلًا! مهلًا!".

أحجمتُ، وأعطيته الثواني التي يحتاج إليها لاتخاذ القرار الصحيح. وعلمت أنه سيتخذه؛ لأنه جبان لن يتوانى في فعل أي شيء ليحول بينه وبين قطع حلقه.

وراحت أسنانه تحدث صريرًا، ومنخاراه ينتفخان، ثم نظر في عينيَّ أخيرًا، وقال: "لا بأس".

عندئذ تركته، فطاح ليلتصق ظهره بالجدار، وتجعد قميصه الأبيض، ثم قلت: "مرحبًا بك في طاقم سفينة ريفين، يسرني انضمامك إلينا".

طوحت بذراعي إلى الخلف قبل أن أضربه بكل قوتي على صدغه بمؤخر السكين، فمال رأسه إلى الجانب، وتهاوى ساقطًا الأرض بقوة.

ما كنت لأخاطر بأن يثير شغبًا في الميناء، فمدير الميناء جيريك يتغافل عن القليل، ولم يكن لديَّ ما يكفي من النقود لأدفع له مقابل تغافُل آخر. لذا كان لا بد أن يدخل ناش إلى السفينة بهدوء.

أغمدت السكين في حزامي مرة أخرى قبل أن آخذ الساعة الموضوعة على المنضدة، وأطفئ الشمعة، فملأ ضوء النجوم الغرفة الصغيرة، وانحنيت حتى أخذت بذراعه، وألقيته على كتفي حتى أتمكن من حمله.

لم يكن هناك أحد ينتظر على الدرج، أو ينظر من النوافذ حين خرجت إلى الشارع. إن كان أي شخص قد سمع جدالنا أو ارتطام جسد ناش بأرضية الطابق العلوي، فإنه لم يعتبر ذلك جديرًا باهتمامه. وشعرت بأن ناش ليس لديه الكثير من الأصدقاء في هذه القرية، أو أنهم كانوا أذكياء بما يكفي ليتدبروا شئونهم الخاصة فقط.

عدت أدراجي عبر الأزقة سالكًا الطريق الذي أتيت منه، وارتقيت العتبات شديدة الانحدار المفضية إلى الميناء، وأنا أتوارى في العتمة قدر المستطاع. في حين كان كلوف في انتظارنا بالفعل.

جعلته سترته الداكنة يذوب في الظلام خلال وقوفه على العتبات تحت الفانوس الذي كان يضاء عادة في هذا الوقت من الليل، إذ كان يراقب ما إذا كان مدير الميناء أو أي شخص آخر لا يزال موجودًا على الأرصفة. عندما غادرت قاصدًا إلى ناش، كانت ثمة احتمالية كبيرة بأنني سأعود إلى ريفين حاملًا جثة، وكانت تلك جريمة يمكن أن تعوقنا في وقت لاحق حين نحصل على رخصتنا التجارية.

عندما وصلت إليه، حنى كلوف رأسه جانبًا وهو يحدق إلى وجه ناش الغائب عن الوعي.

ثم قال: "أخمن إذن أنه سيأتي معنا؟".

قلت: "أحسب ذلك".

وعندما وصلنا إلى حيث ترسو ريفين، أفلتُّ ناش، فارتمى على الرصيف، ومن فوقنا وقفت ريفين تكسوها الظلمة بسوادها.

كان السلم ممدودًا على جانب السفينة، وإلى جواره بعض الحبال التي أعدها كلوف وتركها متدلية، ومن ثم رفعنا ناش إلى سطح السفينة.

مع اختفاء ناش، سوف ينحسر زخم الثرثرات التي نشرها في الحانة، خاصة حين ينشر الساقي في الحانة ثرثرات أخرى لينشغل الناس بها. ومع ذلك ستظل السفينة أستر قائمة على ركائز خشبية عدة أسابيع أخرى قبل أن تكون جاهزة للإبحار، وقد كانت تلك فترة طويلة سيتعيَّن علينا فيها الانتظار، ورؤية ما إذا كان فضول الناس بشأن الثرثرات القديمة قد تلاشى.

سوف يستغرق الأمر يومين على الأقل قبل أن يدرك أي شخص أن ناش غائب، ما يمنحنا متسعًا من الوقت للتوجه إلى مدينة سوان. وإذا بقينا بعيدًا عن الأنظار حتى ذلك الحين، ووصلتنا دعوة الحصول على ترخيص من مجلس التجارة، فسوف نبحر من ديرن في أول مساراتنا التجارية المرخصة. لكن قبل ذلك الحين كانت أمامنا فرص عديدة لجني الكثير من المال.

سحبنا ناش تجاه العتبات المفضية إلى الممر، ووضعت يدي تحت ذراعيه في انتظار أن يفتح كلوف مخزن الشحن، وحالما فتحه، جررت ناش إلى الداخل، وألقيته على الأرضية. تأرجح رأسه من جانب إلى آخر، وكان خط الدم الرقيق الممتد على خده قد جف بالفعل. سوف يعاني من صداع مبرح حين يفيق، لكنه كان محظوظًا بالبقاء على قيد الحياة، فمعظم القباطنة ما كانوا ليعطوه الخيار الذي أعطيته إياه.

انتزع كلوف حبلًا ملفوفًا من العارضة الخشبية، وجثم ليربط يدي ناش بعقدة احترف إحكامها، ثم قال: "سيكون من الصعب منع أفراد الطاقم من الحديث عن هذا في مدينة سوان".

قلت: "لا يهم، بحلول الوقت الذي تذاع فيه القصة سنكون قد وصلنا إلى سيروس". وإذا حالفنا الحظ، فسنحصل على الترخيص قبل مغادرتنا سيروس.

نظرت إلى أعلى إثر صوت طقطقة الخشب الخافتة من فوقي، وشاهدت شعاع الضوء المنسرب بين الألواح.

قال كلوف: "ما هذا؟".

طللت برأسي في الممر، وأنا أصيخ السمع. كانت السفينة هادئة، لكن ثمة تغيرًا في الأجواء في الطابق السفلي لم يرقني، وكأن السفينة ريفين تحس قلقًا بطريقة ما.

ارتقيت العتبات المفضية إلى السطح، حيث ارتمى نور القمر على الخشب الأبيض، ونظرت ما إذا كان الميناء لا يزال خاليًا، وما إن كان ثمة طنين يمكنني استشعاره في الأجواء، ينم عن وجود شخص ما، ثم عدت أدراجي مرة أخرى إلى الممر، وانطلقت إلى حجرة نوم أفراد الطاقم، وفي الداخل لم يكن سوى تلك الأراجيح الشبكية التي ينامون عليها، وكانت خاوية تتأرجح برفق مع اهتزاز السفينة. إذ لم يكن من المقرر عودة أفراد الطاقم حتى الصباح.

برز كلوف في مدخل مخزن الشحن متسائلًا: "هل تسمع هذا؟".

ثمة صوت حركة خفيف على سطح السفينة، إنه ليس صوت احتكاك الحبال بالصاري بفعل الرياح، إنما صوت شيء آخر، لا أستطيع تبيُّن ماهيته.

ارتفع خفقان قلبي قليلًا، وراحت عيناي تحومان حول زوايا المكان الضيق، ثم تحسست العوارض الخشبية من فوقنا، فشعرت بمصدر الصوت، إنه اهتزاز خافت لتسلل أقدام. ثمة شخص على متن السفينة.

"سحقًا".

انطلقت عبر الممر، ومرقت مرتقيًا العتبات بسرعة خاطفة؛ فتعثرت مع وصولي إلى سطح السفينة، وسمعت صوت ارتطام شيء في الماء عند الجانب الآخر من السفينة.

هتفت: "يا هذا!"، واندفعت إلى الأمام وأنا أشق طريقي عبر كومة من الحبال الملفوفة، لكن حين وصلت إلى السور، وأطللت من فوقه نحو ظلمة المياه لم أجد شيئًا، سوى تموجات ضوء القمر على المياه.

تشكَّلت سحابة بخار وأنا أزفر أنفاسي، في حين انطلقت عيناي صوب عقدة الحبل المعقودة بجانب يدي. ثمة حبل كان مربوطًا بالحلقات الحديدية عند قدمي، ومتدليًا على جانب السفينة حتى توارى في المياه السوداء.

أيًّا مَن يكون الهارب، فقد أفلت مني بالفعل.

عندما عدت أدراجي، كان كلوف قد دخل من باب غرفة القبطان المفتوحة، وحين دلفت وراءه كان واقفًا أمام المكتب وعيناه جامدتان.

سألته بصوت متحشرج: "ماذا؟".

فأجاب: "لقد اختفت".

بالكاد استطعت تمييز صوته العميق من صوت الرياح في الخارج.

وتابع كلامه: "الأحجار الكريمة التي أعطانا إياها هنريك. اختفت كلها".

تحركت متجاوزًا إياه، ولففت حول المكتب، ورحت أسحب القماش الذي يغطي الصناديق المتاخمة للجدار، كانت موضوعة في غير نظام على الأرضية، وثمة صندوق منها مفقود، ذلك الصندوق الموسوم بعلامة شمع أحمر.

قال كلوف: "أنا لم أغادر السفينة. لقد لازمت السفينة منتظرًا".

أغمضت أجفاني بقوة، وازدردت الرغبة في الغثيان التي تهيِّج بطني. أيًّا كان هذا الشخص، فقد كان يراقبنا، وحالما هبط كلوف إلى الرصيف انتهز الفرصة.

تساءل مخمِّنًا: "هل هو أحد أفراد الطاقم؟".

قال: "لا".

لم يكن بين أفراد الطاقم أحد قد مكث معنا طويلًا بما يكفي لاكتشاف أمر تجارة الأحجار المزيفة التي كنا نديرها. لم يعرف أحد بهذا الأمر سواي أنا، وكلوف، وهنريك، ولاندر - وهو التاجر الذي كنا نبيع له الأحجار في سوان.

عندئذ، لاحت الإجابة بوضوح في عيني كلوف في اللحظة ذاتها التي خطرت في ذهني.

زولا.

لم يكن ذكيًا بما يكفي لاكتشاف أمرنا، ولكن جرافته الجديدة، خبيرة الأحجار الكريمة، كانت قادرة على اكتشاف أمرنا. لقد رَبطت الخيوط بعضها ببعض في غضون دقائق.

لقد فقدنا أحجارًا كريمة أصلية ومزيفة تبلغ قيمتها ستة وثلاثين ألف عملة نحاسية. ومهما تبلغ المودة بيني وبين هنريك روث، فلن تشفع لي عند أبيه حين يكتشف تلك المصيبة، سوف يبقر بطني.

7 إيزولد

حدجني الحداد بنظراته وأنا أُقلِّب المعول الصغير في يدي، وأضغط على طرفه المدبب.

لم يرفع عينيه عني منذ دخلت من الباب، حين يأتي تجار منطقة البحر المجهول إلى منطقة المضايق، فإنهم عادة لا ينشغلون إلا بجمع مخزونهم وتجرُّع الجاودار على الأرصفة قبل عودتهم إلى مدينة باستيان، أو أي ميناء آخر في منطقة البحر المجهول لبيع ذلك المخزون، وجني أرباح طائلة. لذا قد تكون هذه هي المرة الأولى التي يدخل فيها أحد أبناء منطقة المضايق إلى محله الخاص بأدوات التجريف.

هذا الحداد، الذي يتوارى محله في زقاق خلفي من أزقة قرية ديرن، كفء وماهر، لا بد أن أشهد له بذلك. إذ كانت الأدوات متينة، حتى إن كانت جرداء من الزخارف التي زُخرفت بها أدواتي التي استخدمتها في منطقة البحر المجهول.

أهدتني والدتي آخر مجموعة أدوات امتلكتها، وكان ذلك عقب مهمة تجريف قمنا بها عند مجموعة الشعاب المرجانية المعروفة باسم كوكبة يوري، وقد درَّت تلك المهمة ربحًا عظيمًا على والدتي، وكانت تلك الأدوات المهداة أروع أدوات تجريف رأيتها على الإطلاق، ربما أروع أدوات تجريف صُنعت على الإطلاق، وهذا بالضبط هو سبب التخلي عنها. إذ كان اسمي محفورًا على كل أداة في الحزام، ومُطعَّمًا بالذهب، بالإضافة إلى ختم شعار أمي. ظننت في تلك الآونة أن الهدية كانت طريقتها لإظهار افتخارها بي، بيد أنني الآن أرى أنها كانت مجرد طريقة أخرى لخدمة نفسها وتعظيم ذاتها فقط.

إن معظم المطارق والأزاميل والأدوات الأخرى التي ملأت محل الحداد الصغير لم تكن ذات منظر جمالي، وقد تغيَّر لون المعدن في الأماكن التي صُهِر فيها النيكل مع الحديد، هذا غالبًا

لأن التاجر كان يقتصد في نفقات التصنيع. وقد كان ذلك عيبًا ربما ما كنت لألحظه على الفور لو لم أسمع الرنين المميز للنيكل بين أصابعي. ومع ذلك نجح الحداد في صُنع أدوات تفي بالغرض منها في العمل الفعلي وتصمد للاختبار، وقد تطلب ذلك مهارة لا سبيل لإنكارها.

وضعت المعول الصغير على الصينية بجوار بقية الأدوات التي انتقيتها. لم أكترث لأشكالها، إذ سوف تفي بالغرض. والآن كل ما يتعيَّن عليَّ فعله هو مفارقة زولا حين نصل إلى سيروس.

نقل الحداد الميزان إلى المنضدة، ووضع أول أداة في إحدى الكفتين، ثم سألني وهو يدوِّن رقمًا على قصاصة ورقية: "هل ستحتاجين إلى حزام أيضًا؟".

أجبته: "نعم".

قال: "حسنًا، انتقي ما تريدين".

التمع في يده خاتم الاعتماد من النقابة، وهو يشير نحو النافذة البعيدة، حيث عُلقت مجموعة من الأحزمة الجلدية على الزجاج. لم تكن المشابك النحاسية في الحزام لامعة، وتفاوتت ألوان الجلود المطلية بالزيت من اللون الذهبي الفاتح إلى لون يقارب الأسود.
شببت ومررت أصابعي على حزام مصطبغ بطيف أحمر. وكان عدد الفتحات المصممة لحمل الأدوات متساويًا على كلا جانبيه، لكنني سأضطر إلى تقصير طوله كي يناسب مقاس خصري، ولكن ما دامت لم تنزلق تحت ثقل المعدن، فبوسعي إنجاح الأمر.

خلعت الحزام من مكانه، ووضعته على المنضدة، في حين كان الحداد قد أنهى الحساب، ثم لف القصاصة نحوي، وأشار إلى إجمالي المبلغ المستحق مقابل الأدوات.

إحدى وأربعون عملية نحاسية. ساورتني رغبة في الضحك حين رأيت الرقم. لقد ظننت أن زولا يعبث معي حين أعطاني خمسين عملة نحاسية فقط لشراء أدوات التجريف، فحزام

كامل الأدوات من هذه النوعية سيكلفني ضعف هذا المبلغ في منطقة البحر المجهول.

أحصيت العملات المعدنية من الحافظة، ووضعها الحداد في علبة تحت المنضدة دون أي شكر، حتى أنا لو كنت مكانه ما كنت لأشكرني، إذ إن الناس في موانئ منطقة المضايق يبغضون ذوي الدم المملح بقدر ما كانوا يحتاجون إليهم، فنقودنا تدفقت عبر ميناء سيروس، وأحجارنا الكريمة ملأت متاجر تجار الأحجار الكريمة. وكانت تلك النقود هي مصدر تمويل الحدادين، وصانعي السفن، وصانعي الأشرعة، بل الصيادين والمزارعين. لقد احتاجت منطقة البحر المجهول إلى الحبوب ذات الثمن البخس التي تُنتج في منطقة المضايق، واحتاج سكان منطقة المضايق إلى نقود ذوي الدم المملح، وإلى مساراتهم التجارية لنقل المنتجات إلى خارج تلك المياه. وكان هيكل العلاقات بين المنطقتين مزعزعًا وهشًّا؛ إنه جسر يوشك أن ينهار، إن أُزيلت قطعة واحدة، فسوف يتداعى كل شيء.

توارى الحداد في الغرفة الخلفية، ووضعت الحزام أمامي، وملست براحة يدي على جلده الخشن. أزكم أنفي بالرائحة النفاذة للزيت المستخدم في صبغ الجلد، لكن هذا ما سيحميه من التلف في الماء يومًا تلو آخر.

أدخلت الأدوات بطريقة منظمة في فتحات الحزام، إذ رتبتها بالترتيب الذي فضلته شخصيًّا. لقد طوَّرت نظام ترتيب خاصًّا بي على مر السنين، حيث أضع المعاول الصغيرة والأزاميل بحسب تواتر استعمالي لها، لا بحسب أطوالها كما يفعل بقية الجرافين. وهكذا يكون بوسعي إيجاد الأداة التي أبحث عنها دون النظر إلى الحزام.

وحين انتهيت، رفعت الحزام، واستشعرت ثقله بين ذراعيَّ، كان أثقل كثيرًا من حزامي القديم، لكن ما هي إلا بضع غطسات حتى تعتاد رجلاي هذا الوزن. يعتبر الحزام طرف الخيط الوحيد الذي يتيح لي الفرصة للبدء من جديد في منطقة المضايق. ومهما يكن، وتحت أية ظروف قد تطرأ، كان بوسعي الغوص والتجريف. كان هذا ما قلته لنفسي حين وقفت في مكتب والدتي في الليلة التي غادرت فيها، وكان هذا آخر ما جال ببالي قبل أن أطرق باب سيمون.

مددت يدي لألمس الحافظة المعلقة أسفل قميصي، لم تكن تلك الذكرى هي الشيء الوحيد الذي أخذته معي وأنا مغادرة، بل أخذت معي حجر قلب الليل المتدلي من سلسلة تطوق رقبتي، الذي أعتبره تذكيرًا دائمًا باللحظة التي أدركت فيها أن البحر بريء من تهمة الفتك بأبي، وكذلك كانت الشعاب المرجانية، والمد والجزر، ودورة الرياح، كلها أشياء بريئة من هذه التهمة، والمتهم هنا كانت هولاند.

كان أبي خبير أحجار كريمة، وقد تخلى عن موهبته تلك وكرَّس حياته لمهنة الملَّاحة الفلكية المتواضعة. ولكن حين تجلى له أنني قد ورثت الموهبة وجَّه انتباهه إلى تدريبي، فكنا نجلس كل ليلة على أرضية غرفة نومي ليعلمني لغة الجواهر بدقة بالغة، أسماءها، ألوانها، وضوحها، والأهم أنغامها.

كنت في الرابعة عشرة من عمري حين شرعت في العمل لصالح والدتي، حيث قصدتُ إلى أقاصي منطقة البحر المجهول على متن سفنها للغوص مع أطقم من الرجال والنساء يكبرونني بضعف عمر، أو بضعفيه. وكدت ألقى حتفي أكثر من مرة عند تلك الشعاب المرجانية، لكن والدتي كانت تُسر متى عدت إليها بالأحجار الكريمة، وحين أحسست بحلاوة رضاها عليَّ جراء ذلك، دأبتُ على مواصلة ما أفعله.

رفعت الحزام على كتفي وخرجت إلى الشارع، وقد راقني إحساسي بثقله، فمن دون حزام كنت أشعر بأنني خفيفة الوزن جدًّا، لكن الآن صار لديَّ إحساس بالاستقرار والتوازن والثبات، وإحساس بالهوية. لم أكن أعرف ما إذا كنت سأشعر بأنني على سجيتي القديمة مرة أخرى، لقد اختفت شخصية إيزولد هذه، لكن الفتاة التي تحس بأنها في منزلها حين تغوص في الماء كانت لا تزال كامنة داخلي في زاوية من زوايا النفس.

عُدت أدراجي صوب الميناء كما وعدت، حيث ينتظرني بيرك هنالك. وفي طريقي شاهدت سلسلة المحلات الممتلئة بالبضائع في هذا الجزء من القرية، وكان عمال الموانئ لا يزالون يفرغون البضائع التي وصلت ليلًا. إن الحدادين، وصانعي السفن، وصانعي الأشرعة من الحرفيين اللازم وجودهم في أي ميناء، مهما كان صغيرًا. ونظرًا إلى أن ديرن هي آخر

محطة يابسة يمكنك الوقوف عندها قبل خوض مياه البحر المجهول كان يتوافد عليها الكثير من التجار في طريقهم التجاري من سيروس وإليها. وتخيلت أنه في غضون بضع سنوات أخرى سوف يبدو الميناء مختلفًا تمامًا عما هو عليه الآن.

وتراءت لي قمة الصاري الرئيسي في السفينة لونا أثناء انطلاقي إلى الميناء، وما زالت المياه رمادية من أثر أمطار الصباح، وهي تتدفق على أحجار الطريق، لكن البحر بدا هادئًا بما يكفي لنبحر بأمان إلى سيروس. وفي تلك الأثناء كان زولا ينهي تعاملاته مع التجار قبل أن نبحر، وكان في عجلة من أمره.

خطوت خطوة أخرى قبل أن تنطلق يد من خلف زاوية المبنى التالي، وقبضت على سترتي، وسحبتني بقوة من الشارع. انزلق الحزام من فوق كتفي، وارتطمت مؤخرة رأسي بالجدار الحجري، وشهقت حين ظهرت أمامي عينان زرقاوان تتقدتان بالشر، هاتان العينان اللتان كانتا تتألقان في ضوء نيران الحانة ليلة أمس.

كان ذلك هو القبطان صاحب صناديق الجاودار، الشخص الذي لمسني البارحة، فأشعل في جسدي لهيبًا لا يزال يلازمني.

أما الآن فهو قابض على سترتي وجمدني بقوة في مكاني. ثم قال: "اصرخي وسيكون ذلك آخر صوت تصدرينه على الإطلاق"، وكان صوته منخفضًا وثابتًا، ونبرته مختلفة عما كانت عليه حين قال لي ذاك الاسم - إلياس.

حاولت دفعه بيد أنه لم يتزحزح، ولم تهتز النظرة الهادئة المخيفة المتألقة في عينيه وهو مطأطئ رأسه لأسفل كي ينظر في عينيَّ مباشرة. كان شديد القرب مني لدرجة أنني شعرت بأنفاسه تلامس خدي.

سألته وأنا أطبق أسناني: "ماذا تريد؟".

قال: "أريد استعادة أحجاري الكريمة".

تفحَّصت وجهه وأنا ألتصق أكثر بالجدار. الأحجار الكريمة. في زجاجات الجاودار. لم يهدر زولا أي وقت وتحرك على الفور، وكان صوت القبطان خلوًا من أي أثر للتساؤل أو التخمين، كان متأكدًا أنني أعرف أمر الأحجار الكريمة، وهذا يعني أن النظرة ذات المغزى التي رمقني بها في الحانة كانت حقيقية، وليست من نسج خيالي.

قلت بغضب: "أحجارك الكريمة ليس معي".

قال: "إنها مع قبطانك. وسوف تعيدينها إليَّ".

قلت: "ليس لديَّ أدنى فكرة عما يملكه زولا. أنا مجرد جرَّافة تعمل لصالحه".

ظهرت ابتسامة ساخرة على شفتيه صاحبتها التماعة في عينيه، وسأل: "أهذا كل شأنك؟".

عندئذ سكنت حركتي، وراح صدري يرتفع ويهبط في جو الصمت الذي حل، وبدت أصوات القرية كأنها تأتي من مسافة بعيدة.

وارتخت قبضته فجأة وأفلتني، لكنه لم يتراجع قيد أنملة. كان لا يزال مثبتًا بصره على وجهي، واحتلت ذهني فكرة صاخبة واحدة، ألا وهي أنني لم أشعر بالشعور ذاته الذي ساورني حين اقترب زولا مني بهذه الدرجة، إنما ساورني شعور آخر. ومن نظرة عينيه لم أشك بتاتًا في أنه يعرف أمري، لقد كان يعرف حقيقتي.

ثم قال بغضب: "رأيتك في الحانة. أنت خبيرة أحجار كريمة، ما هي إلا ثوانٍ حتى عرفتِ ما كان في تلك الزجاجات، ثم أخبرتِ قبطانك بالأمر".

زممت شفتيَّ، والتهب وجهي بحرارة الدماء المتدفقة إلى رأسي عند سماعه يتحدث عن أنني أنتمي إلى زولا. لكنني لم أنكر الاتهام، إذ حدثتني نفسي بأن ذلك لن ينفعني في شيء.

وأردف: "آمل أن تكوني على الأقل قد ساومتِه على نسبة من الأحجار".

لم أساومه على شيء، لأنني لم أقصد أصلًا أن يفضي الأمر إلى سرقة تلك الأحجار. وعلى أي حال لم يكن زولا من تلك الشخصيات التجارية التي تساوم على أمر كهذا.

وتابع: "أحتاج إلى إعادة الأحجار. اليوم".

أحتاج. لم يقل أريد. على الرغم من الهدوء البادي على وجهه كان بوسعي أن ألمح في عينيه طيفًا من اليأس كامنًا فيهما من وراء تلك الكلمات. وقد كنت محقة حين قلت لنفسي أمس إن هذا القبطان يتعامل مع شيء أكبر من قدراته.

استرسلت ببصري في الشارع من ورائه، ما زالت قمة صاري لونا الرئيسي تتراءى لي، وفي خلفيته السماء الرمادية، ثم قلت: "وإلا ماذا؟ ستخبر زولا بحقيقتي؟".

أخيرًا تقهقر خطوة إلى الوراء مُتيحًا مساحة أكبر بيننا، وكدت أتقدَّم خطوة إلى الأمام نحوه إثر تحركه، وكأن للهواء قوة سحب كما الماء، بيد أنني لم أتحرَّك، ورويدًا رويدًا تبدَّلت تعابير وجهه إلى ما ينم عن تسلية أو ما شابه، حتى إنه كاد يضحك وهو يتساءل: "أتحسبين أنه لا يعرف حقيقتك؟".

اشتد خفقان قلبي، وارتفع دويه عاليًا في أذني. أيًّا كان الذي يُلمح إليه فلن أسايره.

وأردف: "هذا الوغد سيأخذك إلى سيروس كي يبيعك لمن يدفع أعلى سعر، ولن يبيعك بصفتك جرَّافة، بل بصفتك خبيرة أحجار كريمة"، لم يتحدَّث بصوت خفيض وهو ينطق الجملة، وتردد صدى الكلمات من حولنا في الزقاق، ما جعلني أزدرد ريقي بصعوبة.

ثم قلت باضطراب خارج عن سيطرتي: "أنت تكذب".

قال: "أترينني كاذبًا؟ سوف يجني زولا من بيعك ما يربو على عشرين ضعف ما يمكن أن يجنيه من شحنة أحجار كريمة. سوف يجني ما يكفي لتدشين مسار تجاري".

شحب وجهي، وأحسست بالبرودة تحتل كياني، وكدت أتمنى أن يقترب مني مرة أخرى حتى استشعر الدفء الذي حام حوله.

نظرته لي وهو ينتظر بصبر أن أربط الخيوط بعضها ببعض أججت شعور الإعياء والاضطراب الذي غزَّاني. جزء من صدق كلامه، حتى إن كان جزءًا ضئيلًا.

ثم قلت: "لماذا تخبرني بذلك يا إلياس؟"، واستعملت الاسم المستعار الذي قاله لي. أردت أن أشعر بأنني أوازن بين المعطيات، صحيح أن زولا كان كاذبًا، لكن كان هذا القبطان أيضًا كاذبًا.

عاد يقترب مرة أخرى، وارتكز بيديه على الجدار من ورائي ليحصرني بين ذراعيه، وفي الحال أسفت على أنني وددت بيني وبين نفسي أن يفعل ذلك. كانت ياقة قميصه غير مزررة أسفل سترته المفتوحة، فانكشفت مساحة من جلده اسمر جراء تعرضه للشمس.

ثم قال: "لقد كلفتِني خسارة فادحة من فورك، وعليك إصلاح خطئك. وإن لم تفعلي، فسوف أحرص على إفشاء سرك بين الجميع، وستجدين نصف قباطنة منطقة المضايق يحاولون بيعك لتجار الأحجار الكريمة في سيروس".

لبث ينظر في عينيَّ هنيهة أخرى قبل أن يُسقط ذراعيه، فعاودني الشعور بالبرد في الحال، ودبت القشعريرة في جسدي.

ثم قال: "سوف أنطلق بسفينتي عند غروب الشمس، وأريد استعادة تلك الجواهر قبل رحيلي"، وطرف بعينيه طرفة قبل أن يوليني ظهره، وتطاير من ورائه ذيل سترته ذات الزرقة المنطفئة وهو يتوارى عند المنعطف.

أخيرًا زفرت النفس الذي كنت أحبسه، وارتميت بثقلي على الحائط، وتهاويت ببطء وأنا ملتصقة بالجدار حتى جلست القرفصاء في ظل المبنى. وبجواري انغمر نصف حزام أدوات التجريف في بركة مياه، فبدت حمرة جلده أكثر قتامة.

كان ذلك القبطان يكذب، لا بد أنه كان كذلك، إذ لو كان زولا يعرف حقيقتي ما كان ليحتاج إليَّ بصفتي جرَّافة. ومع ذلك انتشرت قصص اختطاف خبراء الأحجار الكريمة في كل ركن من أركان منطقة البحر المجهول. لقد كانوا يختفون؛ وهذا هو السبب الذي جعل أبي يرغب في أن نغادر مدينة باستيان، وألا ننظر إلى الوراء مطلقًا.

كان تجار النقل يُهرِّبون خبراء الأحجار الكريمة إلى تجار الأحجار الكريمة الذين كانوا على استعداد لدفع أثمان كبيرة مقابل ذلك، لكنني لم أخشهم بتاتًا، لأنني كنت في حمى عائلتي القوية؛ أعني هولاند، بيد أنني الآن لم أعد ابنتها، لقد قطعتُ هذا الخيط بيننا في اللحظة التي فتحت فيها علبة الأحجار الكريمة وسلبتها حجر قلب الليل.

والحقيقة الآن أنني هنا في منطقة المضايق كنت مجرد نكرة.

8 إيزولد

كان بيرك منتظرًا على الرصيف حين وصلت إلى الميناء، وقد رأيت فمه، الذي عادة ما يكون مائلًا، مستويًا الآن في خط مستقيم. ومن ورائه كانت السفينة لونا تتحضر للإبحار، حيث تسلق العمال الصواري لإجراء فحوصاتهم الروتينية. وحالما يعود زولا سوف نرفع المرساة وننطلق.

مددت يدي نحو مؤخرة رأسي لأفرك مكان الخبطة التي تؤلمني إثر ارتطامي بالجدار، لكن الألم لم يكن شيئًا يُذكر بالقياس إلى ما قاله ذاك القبطان. ما زلت أحس بجسده وهو يضغط عليّ، وما زالت رائحته تتكاثف في صدري، وشعرت بأن كلماته حبل مشدود حول أضلعي.

لقد انضممت إلى طاقم لونا دون تفكير، وقد وقَّعتُ على عقد العمل باسم غير اسمي الحقيقي، وأنا أضمر في نفسي أنني سوف أهرب في مدينة سيروس قبل أن ينتبه زولا إلى غيابي. ولكن إن كان زولا يعلم أنني خبيرة أحجار كريمة، فليس من الصعب إذن استنتاج أنه يضمر لي خططًا أخرى حين نصل إلى سيروس، وفي تلك الحال لن يكون الاختفاء يسيرًا.

أخذ بيرك يتفحَّص الحشد المتدفق في الشارع، وأخيرًا حين وقعت عيناه عليّ رفع حاجبيه في انزعاج. انجرفتُ مع تيار المتجهين إلى السفن، وشددت قبضتي على حزام أدوات التجريف الذي كان معلقًا على كتفي.

لقد أُقحمت في خِضَم تناحرات من قبل، ودائمًا ما كانت تلك التناحرات بين والدتي وطرف آخر، وكنت معتادة أن أكون أداة طوع أمرها. كانت تستغلني لخدمة مصالحها، وتستعرضني أمام أعضاء النقابة وزملائها التجار في باستيان كأنني خاتم ألماس تملكه.

والآن بعد أن فكرت في الأمر وجدت أنني قد شعرت بالشعور ذاته ليلة أمس في الحانة مع زولا.

جمجم بيرك وهو يمسك بالسلم حين وصلت إليه: "لماذا غبتِ كل ذلك الوقت؟".

أجبته: "كان في محل الحداد عملاء آخرون".

لا أستطيع البت بشأن ما إذا كان يصدقني. عندئذ لوَّح بيده تجاه السفينة منتظرًا أن أتسلق السلم، فارتقيت حبال السلم وأنا أحس كأن الرصيف يتلاشى أسفلي. دائمًا ما كان بيرك فظًّا، لكنه الآن منفعل بطريقة بثت الاضطراب في نفسي. فإذا كانوا قد سرقوا الأحجار الكريمة الليلة الماضية - وقد كانت تلك احتمالية كبيرة - فمن الطبيعي أن يتعجلوا لمغادرة الميناء سريعًا.

لقد عشت ما لا يقل عن شطر حياتي في البحر، ودائمًا ما أشق سبيلي إلى المياه. لكن عندما عدت إلى السفينة لونا هذه المرة، افتقدت شعور الأمان الذي منحتني إياه، عندما صعدت على متنها قبل أيام فرارًا من والدتي.

كانت قصص اختفاء خبراء الأحجار الكريمة تبدو أساطير شعبية في منطقة المضايق، قصص رعب تُروى أثناء جلسات احتساء المشروبات. بيد أن شيئًا في كلام سينت بدا صادقًا للغاية، كان في طيات الكلام أكثر من مجرد نزاع بين قبطانين.

وإذا كان سينت صادقًا، وكان زولا سيبيعني لتاجر في سيروس، فلن تتسنَّى لي فرصة الإفلات من هذا المصير حالما نغادر الميناء. غاص قلبي إثر تلك الخاطرة. ولم أرد أن أتخيَّل ما يكمن في نهاية هذا المصير. غرفة بابها موصد. الموت وحدي. وسنوات من الاضطرار إلى تحقيق الربح مجبرة لأحد أعضاء النقابة في سيروس. لقد عشت مصيرًا شبيهًا بذلك المصير بالفعل.

لكنني أيضًا لم أشك في أن سينت كان يخبرني بما أحتاج إلى سماعه من أجل أن يحثني على إحضار ما يريده - أحجاره الكريمة. وهكذا كان لديَّ خياران. إذا وثقت بزولا، فإني أجازف باحتمالية أن يسلمني إلى أحد التجار، ولم تكن كل القصص تنتهي بأن يكون خبير الأحجار الكريمة حبيسًا في ورشة أحد أعضاء النقابة، إذ انتشرت الشائعات أيضًا بشأن دفع بعض التجار مبالغ لقاء ذبح أحد أولئك الخبراء، فكلما قل عددنا ازدادت قوة نقابة الأحجار الكريمة وثراؤها.

وإذا وثقت في سينت، فلعلي بذلك أنجو بحياتي، لكنني سأكتسب عداوة زولا، وأفرِّط في الفرصة الوحيدة المتاحة لنقلي إلى سيروس، وعندئذ، كل ذلك - مغادرة باستيان والفرار من هولاند وكل ما فعلته - سيضيع سدى.

مناط المشكلة أنني لا أثق بأحد، وبمجرد انطلاق السفينة لونا سيكون مصيري قد تحدَّد على الرغم مني.

حين وصلت إلى السور، وجدت أفراد الطاقم منتشرين على سطح السفينة، وتوجَّه بيرك على الفور إلى العمل، وهو يسحب دفتره من سترته. حتى ينتهي من فحص الإحداثيات، ومتى عاد زولا سوف نبحر.

رنوت إلى الباب الموارب في الغرفة المجاورة لغرفة القبطان في الممر، التي يعكف مسئول الحسابات على العمل فيها من الصباح إلى المساء. لم يكن لديَّ أي أصدقاء على متن السفينة لونا، ولم أقدِّم إلى أحد معروفًا أطلب رده، ولكن إن كانت الإجابات التي أحتاج إليها موجودة على متن هذه السفينة، فستكون في تلك الغرفة. وكان مسئول الحسابات يعمل بالفعل في مكتبه الصغير، حيث انخرط في تحديث بيانات الدفاتر بالأرقام الجديدة بعد تداولها في ديرن، قبل أن يقدِّم دفاتره إلى زولا ليفحصها.

ندَّ عن الباب صرير وأنا أفتحه برفق، ونظر الرجل صوبي وهو يرفع ريشته عن الورق. بدا شعره الأسود رطبًا تحت قبعته إثر ابتلاله بأمطار الصباح.

ولاح في عينيه شيء من الجفول وهو يسأل: "ما الخطب؟"، إذ كنت آخر شخص يتوقع أن يراه عند باب غرفته الصغيرة.

أومأت بذقني تجاه سطح السفينة، وقلت وأنا أحاول أن أبدي عدم الاكتراث قدر الإمكان: "مدير الميناء يبحث عنك".

تقلص جبينه وهو يتساءل: "مدير الميناء؟".

قلت: "أظنه شيئًا يتعلق بتكاليف الرسو؟".

تنهد تنهيدة ثقيلة وأغمض عينيه، وهو يقول: "لا بد أنك تمازحينني".

قلت: "يقول لا يمكننا المغادرة قبل السداد".

غمغم وهو ينهض: "إنه رجل قليل الكفاءة، ضحل المهارة".

ثم مد يده لأسفل ليجذب قفل الصندوق القابع على الأرضية جذبة قوية كي يتأكد من انغلاقه، وطوى الدفتر قبل أن يدسه في سترته. ما من مسئول حسابات له أقل حظ من العقل يمكنه أن يترك دفتر حسابات دون رقابة. فإن لم يكن الدفتر معه، فسيكون مع زولا، لكن ذلك لم يكن ما كنت أبحث عنه.

والتف حول المنضدة في الغرفة الضيقة ليخرج من الباب، ومشيت في إثره خلال الممر، وتبعته حتى هبط إلى الرصيف. وبمجرد أن توارى عن نظري تمهلت هنيهة وأنا أتفحص سطح السفينة. كان بيرك مشغولًا بإخراج آلة القياس الفلكية المسماة بـ"السدسية"، لكن لم يكن هنالك ما يشير إلى وجود زولا في الميناء.

ثم استدرت صوب الممر، وعدت أدراجي إلى غرفة مسئول الحسابات، وأغلقت الباب من ورائي. تراصت خزانات مقفلة بأقفال، ومؤمنة بقبضان حديدية، وقد حوت النقود التي تحتاج إليها لونا. ومما استنبطتُه خلال الفترة الماضية على متن هذه السفينة، فإن

الصندوق المثبت في الأرضية كان يحوي نقودًا أيضًا. لكن مسئول الحسابات لم يكن يتولى أمر دفاتر الحسابات فقط، إنما تولى أيضًا إدارة المراسلات والعقود التي تخص إبحار لونا.

وقد وجدت تلك الوثائق على الرف المثبت فوق المكتب، مررت أصابعي سريعًا فوق عشرات اللفائف وأنا أتفحصها بنظرة خاطفة، حيث تحمل الأوراق من الخارج كتابات بأحبار مختلفة ومختومة بأختام شمعية مفضوضة تشير إلى موانئ وتجار. وبالنسبة إلى شخص لم يحصل على رخصة تجارة، فإن زولا منخرط في عدد هائل من الأعمال.

يبدو أنه ابتعد عن التعامل مع والدتي. إذ لم يكن ثمة ورقة واحدة مختومة بختمها، ولم يفاجئني ذلك، فهي لم تكن بحاجة إلى قبطان قليل الشأن من منطقة المضايق وأمامها جميع تجار منطقة البحر المجهول رهن إشارتها.

لكن ثمة ورقة واحدة لفتت انتباهي.

توقفت أصابعي عند ختم شمعي مفضوض لونه أرجواني، ذاك اللون الأرجواني العميق ذاته الذي رأيت سيمون يستخدمه في الضاحية الشمالية بمدينة باستيان.

فاستللت الورقة من بين بقية الأوراق، وبسطتُها بعناية. كانت تلك هي الورقة التي سُلِّمت إلى زولا حين أتيت إلى الرصيف ليلة الفرار، لكنها كانت مختومة، فلم أستطع الاطلاع عليها، والآن فقط يمكنني أن أرى أن الورقة تحوي بيانات عقد مختوم بختم تاجر لم أتعرف عليه، وكانت شروط العقد أمامي، ومن تحتها التواقيع.

اتفاقية نقل

جهة النقل: السفينة لونا

المتسلم: أوليفر ديورانت

المسار: من باستيان إلى سيروس

الحمولة: 26 لفافة من حرير نيمسمير

دفع 8.000 عملة نحاسية عند التوريد،

و 15.000 عند التسليم يوم 12 أكتوبر

توقفت، وعاودت قراءة الأرقام. كان المبلغ مرتفعًا للغاية مقابل حرير نيمسمير. وكذلك ست وعشرون لفافة كانت كمية لا يحتاج إليها تاجر واحد، خاصة في منطقة المضايق.

التوقيع:

سيمون فويرست

سيمون فويرست - طرفت عيناي حين قرأت الاسم.

سيمون. باب أزرق، فانوس أسود.

كان السؤال يحوم في رأسي بالفعل كأنه دوامة تدور فوق الشعاب المرجانية قبيل عاصفة.

أنا أعرف من أنت.

عندما قال سيمون تلك الجملة لم أفكِّر إلا في أنه يعرف اسمي، ووالديَّ. لكن ماذا لو لم يكن هذا كل ما عرفه سيمون فيما يخصني؟

تحرك إصبعي فوق الكلمات، وأنا أعاود قراءتها، وما زلت أخبر نفسي بأن هذا لا يثبت أي شيء. لقد أرسلني سيمون إلى زولا، لكن هذا لا يعني أن سينت محق.

وضاقت عيناي وأنا أرمق التاريخ. 12 أكتوبر. سوف يحل هذا التاريخ بعد أربعة أيام. لقد دب وخز بارد في أصابعي وفوق يدي وأنا أطوي الورقة، وأعيدها إلى مكانها. كان زولا مصممًا على أن يكون في سيروس في غضون ثلاثة أيام.

إن مخزن الشحن مملوء ببضائع كان ينقلها، ولم يكن ثمة باعث على الشك في عدم وجود ست وعشرين لفافة من حرير نيمسمير في مكان ما بين تلك الصناديق. إلا إذا...

تهاويت على الكرسي، ورحت أفتش بين الأوراق التي على المكتب حتى وجدت ما أبحث عنه - سجل الجرد. هذا هو السجل الوحيد الذي لا يغادر هذه الغرفة مطلقًا.

مررت بإصبعي على القائمة سريعًا وأنا أقرأ، وتفحصت بيانات الشحنة من التوقف الأخير في مدينة باستيان. يبدو أنه الميناء الوحيد الذي توقفوا فيه في منطقة البحر المجهول.

سبائك فضية، أكواب كريستالية، رزم أوراق، حتى إنه يوجد صندوق من أزرار مصنوعة يدويًّا من عظام قرون حيوانات. لكن لا وجود لحرير. لم يكن ثمة أي ذكر لشحنة الحرير في بقية صفحات السجل.

عندئذ زحفت عيناي تجاه الجدار الفاصل بين غرفة مسئول الحسابات وغرفة القطبين.

لم يكن هذا برهانًا على أن سينت نطق بالحق، لكنه يتسق مع كلامه. ربما لم يكن زولا ينوي إشراكي في إجراء أية عمليات تجريف لأحجار كريمة وبيعها إلى التجار الصاعدين في منطقة المضايق.

ربما كان مضطلعًا بعمليات نقل أخرى بدلًا من ذلك.

9 إيزولد

ترددت أصداء ضربة قادوم حادة في الألواح الخشبية أسفل قدمي، ما يدل على أن ياسمين كانت تعمل في الطابق السفلي. لم تكن صديقة لي بأي شكل من الأشكال، لكنني علمت أيضًا أنها لا تحب زولا. ومع ذلك الجميع يحب النقود.

مر من جانبي أحد العمال في الممر وأنا منطلقة أتتبع الصوت الصادر عن أدوات ياسمين، حتى وجدتها جالسة القرفصاء عند باب مخزن الشحن، وبجوار قدميها مجموعة من المفصَّلات الجديدة. وتأرجح الفانوس المعلَّق فوق رأسها حين لطمت موجة جانب السفينة، فانزلق القادوم من بين أصابعها. أما أنا فأسندت نفسي إلى الجدار بجوارها قبل أن يختل توازني.

ونظرت إليَّ نظرة جانبية بلا اكتراث وهي تلتقط القادوم، ثم سألتني: "ماذا تريدين يا جرَّافة؟".

انتظرت هنيهة حتى اختفى دبيب الأقدام التي ترتقي الدرج، وقلت بصوت منخفض: "لديَّ سؤال سوف أدفع مبلغًا لقاء إجابته".

نظرت نحوي وهي عابسة في غير اكتراث، وبسطت كفها.

التقطتُ عملة نحاسية من حزامي، ورفعتها في المسافة الفاصلة بيننا، ثم سألتها: "كم مرة تتردد السفينة على مدينة باستيان؟".

سألتني: "أي نوع من الأسئلة هذا؟".

قلت: "أخبريني فحسب".

أجابت: "لست أدري. ليس جدولًا محددًا. ربما مرة في الشهر. لماذا؟".

سألتها: "وما الذي تحملونه من باستيان؟".

قالت: "أنا رئيسة سطح السفينة فقط، ومهمتي تنحصر في أن أُبقي السفينة عائمة من ميناء إلى آخر. لا أراقب المخزون حين نصل إلى الميناء".

حدجتها بنظرة ثابتة وأنا أقول: "كلانا يعرف أنك لستِ مكتفية بهذه المهمة. فأنت منخرطة في تجارة جانبية على هذه السفينة، ما يعني أنك تعرفين بالضبط ما على متنها".

حين رفعت عينيها مرة أخرى لم أجد جمود الوجه الذي توقعت أن أراه، بل كانت تعابيرها تشي بشيء من التسلية. ثم قالت: "انظروا مَن كان منتبهًا. ظننتك مجرد طفلة رقيقة أخرى من ذوي الدم المملح تبحث عن مغامرة".

قلت: "لعلَّي كذلك".

عقبتْ وهي تنظر إلى مدخل الممر: "أشك في ذلك"، ثم أردفت: "إن كنتِ ترغبين في الحصول على حصة فحري بك أن تقطعي رجاءك في ذلك. لديَّ أيادٍ كثيرة مبسوطة طلبًا للنقود".

قلت: "لست آبه بما تختلسينه. يهمني فقط معرفة كيف تفعلين ذلك، وما الأغراض التي يُحمِّلها زولا من باستيان؟".

قالت: "غالبًا معادن؛ أطقم شاي فضية، وأدوات مائدة مطلية بالذهب وأشياء من هذا القبيل. الأشياء التي يطلبها أعضاء النقابة في مدينة سيروس لتشعرهم بالترف".

سألتها: "ماذا عن الحرير؟".

ضحكت نصف ضحكة وهي تنتزع العملة من بين أصابعي، وقالت: "حرير لمنطقة المضايق؟ لا، لا حرير".

اتكأتُ على إطار الباب، وعيناي تفحصان محتويات الحمولة في مخزن الشحن من خلفها. كان ما يزيد على نصف المخزن فارغًا، وكل ما رأيته كان داخل براميل وصناديق، ولم أرَ ختم ميناء نيمسمير على أي منها.

سألته: "هل سبق أن توقفتم في ميناء نيمسمير؟".

عندئذ تقوَّس حاجبها وهي تعقد ذراعيها على صدرها، فتنهدتُ وأنا أُخرج عملة نحاسية أخرى.

أخذتها وأجابت: "لا. لم نبحر إلى أقصى الشمال من قبل"، ثم سألتني: "هل توجد أسئلة أخرى ترغبين في خسارة نقودك من أجل الإجابة عنها؟".

من الجلي أن زولا كان لديه أصدقاء أقوياء في سيروس، ما دام قد استطاع تسيير تجارته دون ترخيص كل هذه الفترة الطويلة. وإذا كان يجري تجارة من تحت الطاولة لصالح أعضاء النقابات، فهذا من شأنه أن يفسِّر الأمر، إن كبار التجار الذين يسنّون القوانين هم أول المخالفين لها، ولعل مجلس التجارة الجديد في منطقة المضايق لا يخلو من هذا الفساد.

ثمة أشياء كثيرة يخفيها زولا في هذا الصدد، كنت على يقين بذلك. وشرعت في معاودة أدراجي عبر الممر، إلا أنني توقفت حين استقرت كلمات ياسمين في ذهني ووعيتها تمامًا.

ثم استدرت لمواجهتها مرة أخرى، وسألتها: "ماذا قصدتِ ... بأخرى؟".

عندئذ بدا انزعاج ياسمين واضحًا وهي تسأل: "ماذا؟".

قلتُ: "قلتِ إنني مجرد طفلة رقيقة أخرى من ذوي الدم المملح".

تساءلت: "وماذا في هذا؟".

سألتها: "ماذا قصدتِ بتلك الكلمة؟ هل ثمة آخرون من ذوي الدم المملح نُقلوا على متن لونا من قبل؟".

أجابت: "أكيد، بضعة أشخاص".

لحظتئذ ربطت الخيوط بعضها ببعض. خطوت خطوة نحوها، وسألتها: "من أين أتوا؟".

هزت كتفيها وهي تقول: "من باستيان. عادة ما ننقل واحدًا على الأقل من هنالك".

تساءلت: "ثم؟".

أردفت: "ثم ينزل كل منهم في سيروس".

خامر ذهني شعور بالخدر. وأحسست ببرودة تزداد داخلي. لم يكن زولا يقوم بمهمات لصالح أعضاء النقابة، بل كان يبيع لهم، إنه يذهب إلى باستيان لنقل خبراء الأحجار الكريمة.

هذا ما قصده سيمون في الليلة التي طرقت فيها بابه، حين قال إن القدر كان يبتسم له. وكنتُ مثل صندوق مُترع بالنقود سوف يدخل خزانته.

أطرقت ببصري نحو شعاع الضوء الآتي من عند الدرج المفضي إلى السطح، حيث رسم بقعة ضوء على الأرض. كان زولا يجمع ثروة طائلة. وما من أحد يدري كم عدد خبراء الأحجار الكريمة الذين سلمهم في سيروس.

مددت يدي داخل قميصي، وسحبت السلسلة التي تطوِّق رقبتي إلى أعلى رأسي، فضاقت عينا ياسمين وأنا أفك الحافظة الجلدية المتدلية من طرف السلسلة الذهبية، وأدس

الحافظة في جيب سترتي. وتلألأت السلسلة الذهبية حول أصابعي حين ضممت قبضتي عليها.

أخذت تتفحص وجهي وهي تقول: "هذه أكثر قيمة من عملتك النحاسية".

قلتُ: "هي لك إن أدخلتِني إلى غرفة القبطان. إن قيمتها لا تقل عن خمس وستين عملة نحاسية، وربما تبلغ السبعين".

أعادت ياسمين القادوم إلى حزامها، وأخذت السلسلة مني، وأجرت حلقاتها على أطراف أصابعها، وهي تتفحصها، ثم سألتني: "أتبتغين الموت؟".

قلتُ: "ربما".

ارتسمت ابتسامة على شفتيها، وهي تلتقط معولًا معقوفًا من مؤخرة حزامها وتقول: "إذا أمسكوا بكِ، فسأنكر أنني ساعدتك، وما من وغد على متن هذه السفينة سوف يتوانى في دعمي في ذلك".

أومأتُ وقلتُ: "مفهوم".

نظرت إلى طرفي الممر ثم تنهدت قائلة: "حسنًا، هلمي".

سرت في إثرها، وأبقيت بيني وبينها مسافة بضع خطوات حين صعدنا إلى سطح السفينة. كان بيرك لا يزال عند صدر السفينة مُنكبًّا على أخذ قياسات الريح قبل أن يحسم أمره بشأن مسار الإبحار، وفي أية دقيقة سوف يرتقي زولا السلم ويرفع المرساة، ومن ثم كانت لديَّ دقائق، ربما ثوانٍ.

كان دارين يعمل على إرخاء حبال الشراع الرئيسي حين مررنا من تحته، ونظرت ياسمين في عينيه وهي تومئ ناحية بيرك، فرمقها بنظرة تساؤل لم ينطقه قبل أن يومئ برأسه

متفهمًا وعلى الفور يعيد ربط الحبل ويهبط الصاري نزولًا إلى السطح. وحين استقر أمام عجلة الدفة أدركت أنه كان يراقب بيرك، ربما فعلوا ذلك عشرات المرات.

ألقت ياسمين بضفيرتها الشقراء الطويلة على كتفها تاركة إياها تتدلى حتى خصرها، وهي تدفع نفسها ناحية باب الغرفة. أوليتها ظهري لأراقب الممر، وشددت حزام التجريف حول خصري. وترامى إلى أذنيَّ صوت احتكاك المعدن بالخشب هنيهة قبيل أن يخفت مرة أخرى، ثم سمعت صرير المفصلات المنخفض قبل أن تمر ياسمين بجواري، وتصدم كتفي بكتفها أثناء مرورها، ولم تلتفت إلى الوراء وهي تحث الخطى نحو الطابق السفلي وتتوارى مرة أخرى.

بللت شفتيَّ وأنا أزدرد ريقي بصعوبة قبل أن أتقهقر نحو الباب. وحبست أنفاسي حين مددت يدي إلى المقبض، ودبت قشعريرة في جسدي. انفتح الباب، ودلفت إلى الداخل، وأغلقته من ورائي بهدوء.

رصدت خلف المكتب صندوق الجاودار الذي كنت قد رأيته في الحانة، وسيبدو لأي شخص آخر غرضًا شخصيًا عاديًا من أغراض زولا. وكان الصندوق يحوي اثنتي عشرة زجاجة لا تحمل شعار أي صانع، ومع ذلك شعرت بطنين الزمرد الأحمر يتراقص على جلدي منسابًا من ناحية الصندوق.

استللت السكين من حزامي، ورحت أتلمس كل زجاجة، ثم رفعت الزجاجات التي يتردد فيها صدى الأحجار الكريمة، ووضعتها بجواري. كان مجموعها أربعًا، ومن ثم أمسكت بالزجاجة الأولى، وشققت الشمع حديث العهد شقًّا يأخذ شكل قوس إلى أن فضضته، ثم نزعت السدادة، وفعلت ذلك في الزجاجة التالية. وحين فتحتها جميعًا فتشت الغرفة بحثًا عن وعاء قضاء الحاجة، فقد كانت كل غرفة تحوي واحدًا، وكان الوعاء الذي يقضي زولا فيه حاجته متواريًا تحت سريره، ولحسن حظي أنني وجدتها نظيفة.

قلبت الزجاجة الأولى وصببت ببطء. انسرب السائل الكهرماني البارد من بين أصابعي المرتجفة، وحين سقط الحجر الأول في كفي تنهدت. وتوالت الأحجار واحدًا تلو آخر حتى اجتمعت، وقد أوجه اثني عشر حجرًا تتلألأ ملقية ببريقها على السقف والجدران من حولي. وأمسكت الزجاجة التالية وعاودت ما فعلته مع الزجاجة الأولى.

تناثر رذاذ الجاودار من الوعاء حين اهتزت السفينة إثر موجة أخرى. وتناهى إلى مسامعي صوت بيرك الأجش وأنا أحمل الزجاجة الثالثة.

هتف: "ارفعوا المرساة!".

جفلتُ، فسقطت الزجاجة من يدي، وتدحرجت على ألواح الأرضية إلى أسفل السرير وهي تسكب السائل أثناء تدحرجها. إذ إن معنى أن يرفع بيرك المرساة هو أنه قد رأى زولا، وكانت السفينة على وشك المغادرة.

جعلت أكيل اللعنات وأنا أندفع وراء الزجاجة، وحين أمسكت بها واعتدلت في جلستي مرة أخرى أفرغتها سريعًا بشكل فائق. وسقطت إحدى الجواهر من بين أصابعي. ومن ثم صرفت النظر عن أمر الزجاجة الأخيرة، ووضعتها مرة أخرى في الصندوق.

تزايدت الأوامر على سطح السفينة، وراحت خطوات الطاقم تقرقع على السطح، في حين دفعت وعاء قضاء الحاجة إلى مكانه، ونهضت واقفة. ثم سحبت الحافظة الجلدية من جيبي وفتحتها، وكان قلبي يخفق بشدة وأنا أضع الزمرد الأحمر داخل الحافظة إلى جوار حجر قلب الليل. وحالما أغلقتها، اندفعت نحو النافذة.

شاهدت ظلال أفراد الطاقم تتحرك فوق المياه الخضراء أسفل النافذة، وأنا أرفع نفسي عبر فتحتها، ومن ورائي تحرك المقبض الحديدي في الباب، ومن ثم شبكت أصابعي بإحكام حول الحافظة قبل أن أقفز.

تهاويت في الفضاء قبل أن أرتطم بسطح المياه القاسي وأنغمس تحته. اندفعت سحابة من الفقاعات البيضاء حولي تطوق قدميَّ وساقيَّ ويديَّ وشعري. وتركت ثقل حزامي يسحبني عميقًا، وتراءى لي قاع السفينة يتضاءل أكثر فأكثر من فوقي مع انطلاق أول فقاعة هواء عبر شفتيَّ. لقد غصت أكثر من سبعة أمتار قبل أن تلمس قدماي القاع الرملي الناعم، وقد أخذ الألم يتعاظم في أذنيَّ حتى ملأ جمجمتي.

ولبثت منتظرة أراقب السطح في الأعلى. وتضخَّم صوت الزمرد الأحمر في الماء من حولي إلى جانب صوت حجر قلب الليل، واشتد إحكام أصابعي على الحافظة وأنا أضمها إلى صدري.

لقد بدأ أمري مع الأحجار الكريمة، هذا ما دار بخلدي وأنا أستشعر الألم النابض في مفاصل أصابعي جراء إحكام قبضتي على الحافظة بقوة، ومهما أبحرت بعيدًا عن والدتي، فأن أمري على ما يبدو سينتهي مع الأحجار الكريمة أيضًا.

10 سينت

"**لن** تأتي الفتاة".

قالها كلوف وهو يقف خلفي متكئًا بكتفه على الصاري الأمامي، فيما عيناه مثبتتان على مدخل الميناء، إذ كانت أعداد مغادري السوق تقل رويدًا رويدًا مع مرور الوقت.

عاودت النظر إلى ساعتي قبل أن أتفحص مياه الميناء، حيث ارتمى الضوء البرتقالي على سطحها، وفوق الأرصفة تحركت ظلال أفراد الطواقم العاملين على السفن. كانت الشمس على وشك المغيب، ولم تظهر الجرَّافة بعد، تمامًا كما قال كلوف إنها لن تأتي.

قلت وأنا أفكر بصوت مسموع: "إذن، لِمَ لا يغادرون؟".

والتفتُّ لإلقاء نظرة على السفينة لونا الطافية على مقربة منا. فبحسب ما قاله مدير الميناء جيريك كان من المقرر أن يبحر زولا قبل حلول الظلام بوقت طويل، بيد أن الأشرعة لا تزال مطوية ولم تُرفع المرساة.

أرخى كلوف ذراعيه المعقودتين، وتقدَّم ليقف بجواري. كانت وطأة صمته تشتد مع مرور الساعات، ومع أن القلق في العموم كان من خصاله المعتادة، فإنه هذه المرة كان مختلفًا. فهذه المرة لم يكن الأمر مرهونًا فقط بالسفينة أستر أو ترخيص تجاري، إنما كانت حياتنا مرهونة به.

قال: "لقد استغنيت عن نصف عدد الطاقم. أبقيت جوليان وماتيو. علينا أن ننطلق كي لا نضطر إلى دفع أجر رسو ليلة أخرى".

بوسعنا الاستغناء عن الطاقم فترة على أية حال. فليس بمقدورنا إطعامهم، ولا نريد أعينًا كثيرة من حولنا، خاصة مع وجود ناش حبيسًا في مخزن الشحن.

وأردف: "أقنعت بعض عمال الموانئ بالتحايل لاختلاس بعض البضائع الخارجة من السوق. وكان الصوف أفضل الخيارات المتاحة".

غمغمت وعيناي لا تزالان مثبتتين على السفينة لونا: "حسنًا".

لم أكن أحب سرقة أغراض المزارعين البسطاء، لكن على الأقل حصلوا على نقودهم بالفعل لقاء السلع التي باعوها، ومَن سيخسر جراء ذلك التحايل هم ذوو الدم المملح الذين اشتروا السلع، وسرقتي منهم لا تعدو أن تكون تحقيقًا للعدالة.

ثم أخرج حفنة من الأغراض الفضية والذهبية من سترته، وقال: "وهذه"، وكانت تلك الأغراض نتاج بعض عمليات النشل التي قام بها في طريقه إلى الحانة. خواتم وأساور وساعة جيب، حتى إنه نشل نظارة. وقد كانت موهبته تلك هي التي تطعمنا وقت إفلاسنا.

أومأت له برأسي.

وتابع قائلًا: "علينا أن نقرر كيفية التعامل مع ذاك الأمر؛ أمر هنريك".

دسست ساعتي في سترتي، وغاص قلبي في صدري مرة أخرى. كان هنريك يمثل ورطة أكبر من قدرتنا على التعامل معها. فسوف يغضب حين يكتشف أننا فقدنا أحجاره الكريمة، ومن جهة أخرى لن يتوانى والده - فيليكس - في بقر بطننا أمام مدير الميناء جراء ذلك.

سألته: "هل لديك أية أفكار؟".

هز كلوف رأسه قائلًا: "لا توجد فكرة تنجدنا في تلك المهلة القليلة. يجب أن نحصل على هذه النقود بحلول وقت عودتنا إلى ديرن، أي أن أمامنا ثلاثة أسابيع فقط لجمع النقود التي ينبغي أن ندفعها له".

ارتكزت بمرفقي على السور محدقًا إلى الأفق. متى يسمع هنريك بهذا الأمر، فسيشتعل الجحيم. ومعاملاتنا التجارية المعتادة لن تسد شيئًا يُذكر مما ندين له به، وستورطنا أكثر

مع إميليا صانعة الجاودار الذي نبيعه. حتى خيار الهروب ليس متاحًا أمامنا، إذ لا يمكننا الهروب قبل أن تُتم روزاموند صُنع السفينة أستر.

لم أكن أرتاب مثقال ذرة في أن زولا هو من سرق صندوق زجاجات الجاودار التي تحوي الأحجار الكريمة. لقد كان يلاحقنا منذ شهور، يحوم حولنا، ويحاول استشفاف ما نحن بصدده. لكن سفينته أكبر من سفينتنا ثلاثة أضعاف، وكذلك طاقمه أكبر من طاقمنا ثلاثة أضعاف، وإن حاولت اقتحام السفينة لونا، فسوف ألقي حتفي قبل أن تطأ قدماي ظهر السفينة. لقد عرف ذلك، ولهذا راهنت على الجرَّافة، بيد أنني خسرت الرهان.

لقد كنا على دراية بمخاطر اقتحام تلك التجارة المهولة، واستثمار مبالغ هائلة في صنع السفينة أستر. ولم تكن ثمة فرصة للتسامح في حالة خسارة النقود أو الإخفاق. وسواء أكنا نحمل رخصة تجارية، أم نقف على متن سفينة جديدة تمامًا، فما من شيء يمكن أن يدفع عنا العقوبة التي سيُنزلها بنا آل روث، كان الخطأ معهم يعني أننا صرنا في عداد الموتى.

قلت: "سيتعيَّن علينا بيع أكبر قدر ممكن من الجاودار. وربما ننقل المزيد من الأغراض إلى سوان لنبيعها هنالك أو نبرم صفقة في سيروس من شأنها أن تُصلح وضعنا المالي. إذا كان لدينا شيء نقدمه إلى هنريك حين نعود إلى ديرن، فهو خير من أن نعود إليه صفر الأيدي".

سوف تكون أسابيع يتنازعنا فيها الجوع والأرق، لكن قد تتسنى لنا النجاة بحياتنا، إن حالفنا الحظ.

أطبق كلوف شفتيه في خط مستقيم. ما قصدته بكلمة إبرام صفقة هو الاستدانة من شخص آخر، وهو شيء أقسمنا منذ البداية على ألا نفعله أبدًا.

قال: "أو نختبئ فترة؛ حتى نجمع النقود الكافية للسداد".

قلت: "لا مخبأ في منطقة المضايق. ليس لنا".

كانت هذه حقيقة، فثمة قصص كثيرة تشيع عن الصبيين المتهورين اللذين أبحرا بسفينة متهالكة، وخاضا بها عواصف فاتكة. وكذلك مجلس التجارة يراقبنا الآن بعد أن تقدمنا بطلب للحصول على ترخيص.

قال: "يمكننا الذهاب إلى قرية كراجسماوث".

نظرت إليه وقد تصلبت كتفاي وأنا أقول: "لا".

كان ذاك أمرًا آخر أقسمنا ألا نفعله أبدًا، فثمة أشباح كثيرة تنتظرنا هنالك. لم أعد أراها وطنًا لنا، خاصة منذ مات آباؤنا. وعلى أية حال لم أكن متأكدًا من أن أهالي كراجسماوث سيوفرون لنا ملاذًا آمنًا، فيداي ملطختان بدماء كثيرة.

قال: "قد لا يكون لدينا خيار آخر".

كنت على دراية بما يجول في خاطر كلوف. لم يكن يريد الاصطدام بهنريك، فما من شخص عاقل سيرغب في ذلك. بيد أنني كنت أعرف المخاطر، حين أخذت دفعة الأحجار الكريمة الأولى من روث، وقد انتفعنا من تلك التجارة نفعًا عظيمًا إلى الآن. كان القانون جليًا - لا يجوز لأحد شراء الأحجار الكريمة وبيعها سوى تجار الأحجار الكريمة الحاصلين على خاتم اعتماد من النقابة. والتجار فقط هم من يمكنهم نقل تلك الأحجار بين الموانئ، لكننا لم نكن تجارًا. وكذلك العمل مع صانع أحجار مزيفة ذي سمعة سيئة من مدينة باستيان كان مسألة أخرى تمامًا.

حاولت أن أطمئنه: "سأتدبر الأمر"، وكنت بذلك أطمئن نفسي أيضًا.

لبثت أرنو إلى صورتي المنعكسة على المياه في الأسفل هنيهة أخرى قبل أن أنطلق عبر سطح السفينة. يمكن أن نصل إلى مدينة سوان بالحد الأدنى من أفراد الطاقم، وسنجد هنالك إميليا وهي تنتظرنا بمخزون جديد من الجاودار، ولكننا خسرنا النقود التي سندفعها مقابل ذلك المخزون. إن هذه معضلة سوف أحلها حين نصل إلى هناك.

انطلقت صوب غرفة القبطان، وأغلقت الباب من ورائي، ثم اتكأت عليه بكل ثقلي وأنا أحدق إلى الظلام. وأخذت ثلاثة أنفاس طويلة قبل أن أمشي في الغرفة الصغيرة. ثم حامت يدي هنيهة فوق مقبض الدرج الذي يحوي دفتر الحسابات، وحين فتحت الدفتر قلبت صفحاته إلى آخر صفحة تحمل تدويناتي. كانت الأرقام لا تبشر بخير. مستحيل. سيستغرق الأمر شهورًا. ومثل هذا المبلغ سوف يستنزفنا حتى ينقضي أمرنا.

التقطتُ ريشة الكتابة، وتجمدت حركة يدي في الهواء حين وقعت عينا على حافظة جلدية صغيرة عند زاوية المكتب بجوار المحبرة، حافظة لم أرها من قبل، ولم تكن في هذا المكان صباحًا.

تتالت وخزات كالموج على جلدي وأنا أُسقط الريشة، وألتقط الحافظة وأضعها في بين كفيَّ، لم يكن ما تحسسته يشبه ملمس العملات النحاسية داخلها.

فككت الحبل، وفتحت الحافظة في مواجهة آخر دفقة من الضوء المتسلل عبر النافذة، فتألق ضوء أحمر من داخلها؛ إنها أحجار كريمة.

عندئذ انطلقت زفرة طويلة ثقيلة من بين شفتيَّ، وازدردت ريقي بصعوبة، وباغتني شعور بالترنح.

ثم ترامى من خلفي صوت خافت، يقول: "ليست جميعها"، فوثبت من الكرسي، واستدرت وأنا قابض على الحافظة بشدة.

وجدتُ جرَّافة زولا مقرفصة في الزاوية وملابسها مبللة، وشعرها يتدلى بكثافة فوق كتفها، بدت متماهية بطريقة ما مع ظلام الغرفة.

سألتها: "سحقًا، كيف وصلتِ إلى هنا؟".

فأشاحت بعينيها صوب النافذة في الجانب الآخر من الغرفة مجيبة إياي إجابة غير منطوقة. كان مصراع النافذة مُغلقًا على آثار أقدام مبللة ممتدة على الأرضية.

ثم عادت تقول وهي تنهض ببطء: "ليست جميعًا. لم أتمكن من الحصول إلا على ثلاث زجاجات"، ولاحظت وجود حزام أدوات تجريف على الصندوق بجوارها.

خطت نحو ثمالة الضوء المتسللة عبر الغرفة، وعيناها الرماديتان تتألقان بطيف ضارب إلى اللون الأزرق، كما لاحظت توردًا في بشرتها لم يكن موجودًا في الصباح.

قلت: "لم يكن هذا هو الاتفاق".

حدجتني بنظرة مباشرة في عينيَّ، ولم يرقني ذلك، إذ لم أعتد مثل تلك النظرات منذ زمن طويل، ذلك أن الناس كانوا يتحاشونني أنا وكلوف رهبة منا في كل مكان نتردد عليه. لكن إما أن هذه الجرَّافة لم تكن تعرف أي شيء عنا أو أنها لم تكترث بشأننا.

ثم قالت: "لست أتذكر إبرام اتفاق. فالاتفاق يعني أنه قد عُرض عليَّ شيء في المقابل".

قلت: "انظري حولك يا جرَّافة. ليس لديَّ شيء أقدمه".

لم تفارق عيناها وجهي، حيث تأملت وجهي متنقلة من عينيَّ إلى ذقني، ثم قالت: "إنها أحجار مزيفة بإتقان. ومن أفضل الأحجار المزيفة التي رأيتها على الإطلاق".

بدت نبرتها كأنها تتساءل. ولكن إذا كانت تأمل في معرفة من الذي قام بتزييفها فهي بلهاء.

عندئذ قلت: "أود أن أقول شكرًا، لكنك لم تسديني أي معروف"، وأغلقت الحافظة وألقيتها على المكتب، ثم أردفت: "كيف تخططين لأن تعوضيني عن ثمن بقية الأحجار التي لم تأتِ بها؟".

قالت: "لا أستطيع".

قلت: "إذن، لماذا تقفين في غرفتي إلى الآن؟".

عندئذ التوى فمها.

فأردفتُ: "دعيني أخمن. زولا لم يكن الرجل المحترم الذي ظننته".

حدجتني، ثم عاد ذلك الصمت العميق يلف المكان.

قطعته قائلًا: "لو كنت مكانك لبحثت عن طاقم جديد. سريعًا. أنا متأكد من أن أحد القباطنة ذوي الدم المملح العائدين إلى باستيان سيقبل أن يضمك إلى طاقمه".

وباغتتني باقترابها خطوة تجاهي حتى أحسست بتضاؤل الغرفة من حولي. كان ثمة شيء بشأنها يملأ فراغ الغرفة، كأنها دخان متكاثف في الهواء. ثم عادت تقول: "لا أستطيع".

سألتها: "لماذا؟".

فأجابت: "إنه أمر معقد".

دق جرس الميناء من بعيد، دلالة على خروج سفينة، ولاحظت حركة طفيفة في عضلة فكها قبل أن تمد يدها لتفتح مصراع النافذة بما يكفي لتطل منه، وتنظر إلى الخارج.

قلت: "لن يغادر.خاصة بعد أن فقد شحنته الثمينة. سوف يقلب هذه القرية حتى يجدك".

انزلقت أصابعها من المصراع، وطوت نفسها في ظل الجدار، وهي ترمقني، ثم قالت: "ربما ما يبحث عنه لن يكون موجودًا في القرية".

قلت: "تمازحينني بالتأكيد".

قالت: "لقد أعدت لك الأحجار الكريمة، والآن أحتاج إلى مغادرة هذه القرية".

قلت: "لقد قلت بنفسك إنه لم يكن ثمة اتفاق. وأنت لم تحضريها كاملة".

قالت: "أحتاج إلى مغادرة سيروس".

عندئذ فقط تسنى لي أن أرى ما يتوارى تحت الصلابة المرتسمة على وجهها. كانت خائفة، بل مرتعبة. وما فتئ ذاك الشعور يراودني حين أنظر إليها؛ شعور كالهدوء المخيف الذي يجثم فوق السفينة قبل الصواعق.

وترامى إلينا صوت كلوف على ظهر السفينة ينادي: "سينت!"، فتجمدنا في مكاننا.

اتسعت عينا الجرَّافة قبل أن تلصق نفسها بالجدار. ثم انفتح باب الغرفة، وظهر من ورائه كلوف يحوطه وهج ضوء الفانوس على سطح السفينة. استغرقه الأمر فترة ثلاث ثوانٍ كاملة لقراء التعابير المرتسمة على وجهي، وفي اللحظة التالية عثرت عيناه عليها.

قال بنبرة غلب عليها الطرب: "غير معقول".

قلت: "يبدو أن الجرَّافة ظهرت في النهاية".

تساءل: "الأحجار الكريمة؟ هل أتت بها؟".

حنيها سددتُ نحوها نظرة انزعاج وأجبته: "بعضها".

وترددت في ألواح أرضية الغرفة أصداء طرق منتظم آتٍ من مخزن الشحن في الأسفل، وأخذت الفتاة تنقل عينيها بيننا بنظرة حذرة.

فتمتمت: "أسكته قبل أن يسمعه أحد على الأرصفة".

لبث كلوف يرنو بعينيه إلى الجرَّافة هنيهة أخرى قبل أن يتقهقر خطوتين نحو الباب، وتبعته مغلقًا الباب ورائي.

انطلق على يعدو فوق العتبات المفضية إلى الطابق السفلي قبل أن يتوقف ويرنو إليَّ بنظرة أعرفها تمام المعرفة، ثم تساءل: "وماذا بعد؟".

ارتفعت عيناي صوب باب غرفتي، ويدي تمتد إلى السكين المغمدة في مؤخرة حزامي، ثم استللتها، وأحكمت قبضتي على النصل، ثم رفعتها في الجو فوق السور، والدم يتقاطر في دفق مستمر يسقط على مياه البحر في الأسفل.

ثم قلت: "ارفع المرساة، ويمم السفينة شطر سوان".

فزفر كلوف زفرة طويلة وتساءل: "هل أنت متأكد من ذلك؟".

ورنوت نحو عينيه في تردد، دائمًا ما كان يرى أكثر مما أردت الكشف عنه، ثم قلت: "لا".

فلبث ساكنًا هنيهة حتى تيقنت أنه سوف يجادلني، بيد أنه أومأ لي وهبط العتبات.

إن إقدامنا على ما نحن مقدمون عليه سيقلب الأمور رأسًا على عقب. كانت الخصومة مع زولا مستترة تحت السطح حتى الآن، أما ما نحن بصدده فسوف يغير كل شيء.

ألقيت نظرة خاطفة على أشرعة السفينة ريفين. كان الضباب يلتهم نصف ريفين، ما جعلها تبدو كأنها شبح أكثر من كونها سفينة، ولعلها كانت كذلك. لقد رأيت الكثير من الغرائب في البحر ما يجعلني أصدق ذلك، لقد فقدت ريفين روحها منذ أمد بعيد، وكذلك نحن.

11 سينت

توارت الشمس في الأفق وأخذت تسحب آخر ذيولها الذهبية من فوق سطح البحر، ومع أن الضوء كان صافيًا وهو يتراقص فوق السطح، أورثني هذا المشهد شعورًا بالاضطراب. إذ كان البحر هادئًا للغاية، وهذا لا يعني سوى شيء واحد؛ أنه يتجهز لشيء ما. وثمة همسة بعيدة أسمعها في ثنايا الريح، صدى آتٍ من أميال بعيدة. إنها عاصفة آتية، لطالما كانت هناك عاصفة آتية.

اصطكت الأحجار المثقوبة المعروفة باسم أحجار الأفعى المنتظمة في خيط رقيق معلق في النافذة المفتوحة. كانت تلك حيلة قديمة يستخدمها القباطنة للتحصُّن من أعين شياطين البحر، وقد دفعت لبعض متشردي حي الساحل في سيروس كي يجمعوا تلك الأحجار من أجلي خلال سويعات قبيل فجر أول يوم أبحرت فيه رفقة كلوف. إذ وقفت على الصخور أشاهد فوانيسهم تتأرجح في أيديهم وهم يفتشون في الرمال السوداء على الساحل، وأعطيتهم عملة نحاسية نظير جهدهم قبل أن أعلِّق الأحجار في النافذة.

لم أكن لأتجاهل التقاليد، فقد ذقت عواقب تجاهلها. ومع إيماني والتزامي بالعقائد القديمة ، أشيعت عني أساطير شتى في أرجاء منطقة المضايق، بيد أن ثمة أسطورة واحدة لم يعرف بشأنها سوى كلوف، ألا وهي أسطورة البحر الأسود؛ ذاك البحر الذي تفغر أمواجه أفواهها، والعيون الواسعة التي تحدجني بنظراتها من تحت الماء وهي تختفي. ثمة خطايا يعاني المرء تبعاتها طيلة حياته، وأنا أعرف ذلك الآن.

نشر الضوء وهجًا برتقاليًا في الغرفة، وأنا أغمس طرف ريشة الكتابة الدقيق في المحبرة، وأنقر الريشة على حافتها لأنفض الحبر الزائد. لقد تمكنت من الحصول على نصف لتر من الزيت لإضاءة الفوانيس حتى نصل إلى مقر إميليا، وذلك بعد أن وعدت صاحب الحانة في

ديرن بإعطائه زجاجتين إضافيتين من الجاودار حين نعود. وإذا وجدت إميليا في مزاج جيد حين نبلغ مدينة سوان، فربما تكرم ضيافتنا بزجاجات إضافية.

وعلى المكتب أمامي انبسطت الخريطة التي أمضيت العام الماضي أعمل على رسم تضاريسها. لم تكن الورقة السميكة المرسومة عليها الخريطة تحمل أسماء المناطق، ولا تزال جميع حوافها غير مصقولة. وقد كانت هي الشيء الوحيد على متن هذه السفينة الذي لم يكن ممزقًا أو نصف متعفن. وسوف تكتمل في غضون شهر أو شهرين آخرين.

كانت خريطة منطقة المضايق.

تضمنت هذه الورقة على أول رسم دقيق للخط الساحلي متقلب الأحوال الذي يزحف من منطقة البحر المجهول حتى يتشعب في عروق مائية كأنها خيوط شبكة عنكبوت تتدفق من الأنهار. لست رسام خرائط. بل كان والدي هو صاحب تلك الموهبة، على الرغم من أنه لم يُحسِن استغلالها قط، غير أنني كنت أعرف كيف أحاكيه بدقة في كل ضربة فرشاة، وكل نقش، وكل رمز.

لم يرسم أحد من قبل خريطة كاملة لمنطقة المضايق. فقد نالت مدينة سيروس نصيبًا من الخرائط، لكن لم تُرسم جميع أجزاء منطقة المضايق. ولِمَ عساهم يرسمونها؟ إن بيانات تضاريس المنطقة وعمقها وعرضها منحوتة في عظام كل قبطان كفء، ويحفظها عن ظهر قلب، ومياه المنطقة تجري منه مجرى الدم. أما الأغراب عن المنطقة، فكانوا يتخيلونها بوصفها فكرة أكثر منها مكانًا، مجرد صيت. لذا رأيت أننا لن يكون لنا وجود حقيقي إلا حين تكون لنا خريطة من الورق والحبر، وإلى ذلك الحين لن يُنظر إلينا أبدًا بصفتنا شعبًا مستقلًّا.

لقد وثَّقتُ في الخريطة كل زاوية، وكل درجة قياس للمسافة، وكل عمق بتفاصيل دقيقة. وضعتُ مؤخرة راحة يدي على حافة الورقة، وزفرت قبل أن أضع طرف الريشة عليها، ثم رسمت خطوطًا مستقيمة متداخلة بالقرب من شعاب مرجانية تأخذ شكل قوس يمتد

شرقًا، وتنفتح على بئر دائرية بعمق اثني عشر مترًا. وكانت المياه هنالك نقية للغاية، وفي الأيام المُشمسة تتسنى للناظر رؤية اللون الذهبي يتلألأ على الرمال في القاع.

ثم رفعت الريشة، ووضعتها على الكتان بجواري، ومددت أصابعي لبسط عضلات يدي التي تؤلمني. كان مستوى أبي الفني أعلى كثيرًا من مستواي، لكنه جعلني أتدرب كل ليلة على رسم مسارات الصيد بتفاصيل متناهية الدقة على قصاصة ستأكلها النيران لاحقًا.

احذر الحبر يا إلياس.

ما زلت أسمع صوته يتردد في العتمة من حولي.

والتقطتُ الوعاء الذي يحوي رملًا، ونثرته على الخريطة لتجفيف الحبر، فانتثر مغطيًا العمل الذي أنجزته من فوري. وحين يجف سوف أطوي الورقة بعناية وأعيدها إلى علبة أسطوانية مصنوعة من جلد مطلي بطبقة شمعية، وسأُحكم إغلاق غطائها.

عادة ما كانت رحلاتنا إلى إميليا يسيرة، تلك الليالي التي كنا ننطلق فيها وخزائننا تحوي نقودنا، وزجاجات الجاودار تحوي أحجارًا كريمة، أما عودتنا إلى ديرن، فهي التي كانت تبلبل فكرنا، وتبث الاضطراب في أنفسنا. لكن هذه المرة كنا نبحر إلى إميليا والمتاعب في إثرنا، زولا، وأحجار هنريك، ومساعد روزاموند المخطوف.

أثناء خروجي من الممر، وجدت ماتيو واقفًا عند عجلة الدفة، وعيناه مصوبتان نحو السماء السوداء، ما يعني أن جوليان كان نائمًا في الطابق السفلي. كانت السفينة ريفين أكبر من أن تدار بأربعة بحَّارة فقط، لا سيما إن أراد أيٌ منا أن يحظى بقسط من النوم يتجاوز الساعتين. ولكن حتى إن ارتاب جوليان وماتيو بشأن الباعث على استغنائنا عن بقية أفراد الطاقم في ديرن، فإنهما لم يظهرا ذلك، ولعل هذا هو السبب في استبقاء كلوف لهما دون الآخرين.

وعندما ارتقيت العتبات، وصعدت إلى سطح السفينة، وجدت كلوف منتظرًا، وقدماه موضوعتان على لفافة من الحبال، ويداه مطويتان وراء رأسه.

سألته: "أين هي؟".

أجاب: "في الأسفل في غرفة الطاقم. أظنها نائمة".

لم أر الجرَّافة منذ أن بعثت بها إلى الطابق السفلي، بيد أنها لم تفارق ذهني لحظة. إنني مؤمن بالإشارات، وقد كان البحر يعطي إشارات كثيرة. لكن لم أحظَ بأية إشارة تحذير حين رأيتها في الحانة، وراودني ذاك الشعور الثقيل الذي غاص في صدري. وكذلك لم يكن ثمة تفسير لحقيقة أن ذاك الشعور لم يفارقني.

فركت وجهي وأنا أستشعر خشونة يدي على بشرتي، ثم سألته: "وناش؟".

أجاب: "لا ضير من السماح له بالخروج في الصباح. فليس أمامه وجهة يقصدها للفرار".

زمجرت ريح هادرة فوق البحر، وجالت عيناي صوب الظلام المترامي المحيط بالسفينة.

وأردف وهو ينزل قدميه، ويرتكز بمرفقيه على ركبتيه، ويرنو إليَّ: "فات الأوان الآن"، وطوى يديه أمامه.

قلت: "أعرف ما يجول في خاطرك".

تساءل: "حقًّا؟".

قلتً: "كان من الخطأ مغادرة ديرن وهي على متن السفينة".

قال: "ورأيي صواب".

أنزلت يدي التي كانت ممسكة بياقة قميصي. لم يداهنني كلوف مطلقًا، أو يخبرني بما أود سماعه. وكذلك هو لا يخشاني. لكنني أضمرت أملًا بأنه لن يخالفني في هذا.

قلت: "كان بوسعك إخباري بهذا قبل أن نرفع المرساة ونغادر".

ابتسم ابتسامة متكلفة، وقال: "ما كان ذلك ليغني شيئًا. ومع ذلك علينا أن نتناقش".

تساءلت: "في أي شأن؟".

قال ببساطة: "زولا. بمجرد أن يكتشف ذلك، سنكون أعداء له للأبد".

قلت: "لقد كنا أعداء بالفعل".

عقَّب: "ليس ذاك الضرب من العداوة".

ذاك؛ فهمت ما تعنيه الكلمة. فقد كان ثمة تفاهم بيني وبين زولا، كان كل منا يحتاج إلى الآخر إن كنا نبتغي إنشاء تجارة في منطقة المضايق يقوم عليها قباطنة مولودون على سواحلنا، ومع ذلك من غير الممكن أن يترك أحدنا الآخر يتقدم عليه بأشواط كبيرة. لقد كان تحالفًا مصيره الانحلال.

قلت: "إذن، وقع ذاك الضرب من العداوة بالفعل؛ وقع لحظة مغادرتنا ديرن".

وحدجني كلوف بنظرة ذات مغزى.

جلست على ذراع التدوير بجواره، وأنا أتساءل: "ماذا؟".

قال: "لن نستطيع سداد الدين مع وجود الأحجار الكريمة التي أعادتها الفتاة".

لقد فكرت في ذلك بالفعل. ومهما يكن من أمر، سنظل عاجزين عن سداد المبلغ الذي يتوقعه منا هنريك، وما يتوقعه يشمل كل عملة معنا. سيكون ذلك خيرًا من عدم إعطائه أي

شيء، بيد أنه لن يكون كافيًا.

قلت: "أمامنا أقل من ثلاثة أسابيع لنتدبر بقية المبلغ"، وبدا مرتابًا بشأن قدرتنا على ذلك.

تساءل وهو يرمقني: "كيف؟".

قلت: "لدينا الجاودار".

عقَّب: "ليس تحت أيدينا بعد".

لن يروق إميليا رؤيتنا ونحن متخلفان عن سداد ثمن آخر دفعة زودتنا بها، وسيزداد حنقها حين أطلب منها المزيد.

قلت: "سوف تسلمنا الدفعة".

قال وهو يحني رأسه جانبًا: "لست أدري".

قلت: "إميليا تحتاج إلينا بقدر حاجتنا إليها. وسوف تسلمنا الدفعة".

عقَّب: "حتى إن بعنا الدفعة كلها، فبالكاد سيغطي العائد دين هنريك. ولن يتفضل لنا أي شيء".

كان الربح من هذه التجارة يمثل رأس المال الأساسي الذي ستقوم عليها تجارتنا تحت ترخيصنا الجديد. والآن علينا أن نتدبر الأمر من سبيل آخر. ولكن ثمة مسألة أخرى تتمثل في تعيين طاقم للسفينة أستر، وكذلك غير هذا من تجهيزات نحتاج إليها من أجل السفينة. حين نعود إلى ديرن ستكون لدينا سفينة، ولكن لن يكون لدينا شيء آخر، ولا مسار تجاري نبحر بها فيه كذلك.

عوت الريح، واستولى الاهتزاز على السفينة، وأخذت أسناني تصطك، وتوترت كل عضلة في جسدي.

تساءل كلوف: "عاصفة؟".

هززت رأسي، وقلت بصوت متهدج: "لا. ليس الليلة".

جاشت نفسي، لم يكن الطنين المعتاد الذي يتدفق تحت الماء قبل أن تمور السماء هو الباعث على ذلك، بل كان هذا شيئًا أعتى، شيئًا لم يساورني منذ أمد بعيد. ولم أستطع التظاهر بأنني لم أكن أعرف أن الأمر يتعلق بالفتاة النائمة في الطابق السفلي.

ثم قلت وأنا أزدرد ريقي: "سوف نتخلص منها في مدينة سوان".

تقوس حاجبه الأشقر تحت خصلة شعر منسدلة على جبينه، ولاحت على تعابير وجهه نظرة خبيثة مرة أخرى. أحيانًا أنسى أن ذلك الجانب من كلوف لا يزال حيًّا داخله، ذاك الجانب الذي عرفته قبل مغادرتنا قرية كراجسماوث، قبل أن يشاهد كل منا البحر وهو يبتلع أباه.

عدت أسأله: "ماذا؟".

تساءل: "هل أنا حقًّا الوحيد الذي يربط خيوط الأمر بعضها ببعض؟".

جعلت أرنو إليه.

أردف: "إن تركنا خبيرة الأحجار الكريمة تلك في سوان، فسوف يقتفي زولا أثرها. ولا يخفى على الناظر أنها ليست من أبناء منطقة المضايق، فملابسها وطريقة كلامها مغايرتان لنا، وعندما يجدها سيحملها غصبًا إلى مدينة سيروس".

لبثت ملازمًا الصمت، ولم أنطق بشيء، كنت أعرف ما سيرمي إليه ذلك التمهيد.

وتابع: "وإذا كان زولا يتوقع كسب صندوق من النقود حين يُسلمها هنالك، فهذا يعني أن أمر سفينة أستر منتهٍ قبل أن نبحر بها. لقد شققنا طريقنا حتى صرنا أندادًا لهذا الوغد، وللمرة الأولى نحن على قدم المساواة معه، لكن إذا حاز زولا ثروة كبيرة تكفي لإنشاء مساره التجاري..." ولم يكلف نفسه عناء إتمام الجملة.

كنت أعرف أن كلوف محق. والأمر لا يقتصر على أن زولا سيتقدم علينا شوطًا في بدء النشاط التجاري المرخص فحسب، بل سيكون قادرًا أيضًا على شراء ولاء المديرين والتجار في كل ميناء. وسوف تكون أولويته القصوى هي عرقلة تجارتنا والحيلولة دون انطلاقها أصلًا. وفي الواقع لن أُفاجأ إن كانت لديه خطط تستهدف الفتك بحياتنا.

ثم قال: "إنها ليست خبيرة أحجار كريمة وحسب، إنها جرَّافة يا سينت".

قلت: "أعلم أنها جرَّافة".

رنت عيناه إلى الدرج المفضي إلى صحن السفينة، وقال: "آخر علمي أنه لا يوجد جرّافون في سفينتنا".

عقَّبت: "قلت من فورك إنك ترى اصطحابها على متن السفينة خطأ، والآن تريد ضمها إلى الطاقم؟".

قال: "إنني بالفعل أرى أن هذا كان خطأ، ومع ذلك ربما كانت تلك ضربة حظ لنا. وما دامت نيران العداوة الظاهرة قد اضطرمت بيننا وبين زولا بالفعل، فربما يجدر بنا أيضًا إبقاء تلك الفتاة بمنأى عن متناوله. وإن لم نفعل، فسوف نفقد أية فرصة لهزيمته".

رحت أرنو إلى الشق الممتد على طول الألواح تحت قدمي؛ شق أسود مكسو بالقطران. وكان الوقت يداهمنا، نحن، وهذه السفينة. لقد جاشت بصدري تلك الحرقة اليائسة سنوات، كنت جيدًا في التخطيط ووضع الإستراتيجيات وتدبير الأمور، بيد أنني أيضًا قد سئمت من انتظار رؤية قطاف جهدي الجهيد.

دوَّى هزيم الرعد مرة أخرى تحت جنح الظلام، وزفر كلوف زفرة طويلة، ثم قال: "فلتنل قسطًا من النوم، سأوقظك في غضون سويعات".

لم أجادل، كنت منهكًا لدرجة شعرت معها بأنني أكاد أتهاوى على سطح السفينة، فنهضت، وأرجع كلوف رأسه إلى الوراء عاقدًا ذراعيه فوق صدره وهو يرنو إلى الضباب.

أخلدت السفينة إلى السكينة وأنا أهبط العتبات، حتى حين كنا نبحر بعدد بحَّارة أكثر من عددنا الآن لم نكن من تلك السفن التي يصدح بحارتها بالغناء، أو يلعبون النرد بعد غروب الشمس. لم نكن من البحَّارة الذين يستمتع بعضهم بصحبة بعض. كنا موجودين على متن ريفين لغرض واحد فقط - الوصول إلى الميناء التالي على قيد الحياة.

في كل مرة نستيقظ فيها على متن تلك السفينة تراودنا فكرة أننا يومًا ما سوف نتخلص منها، سوف نهشم ألواحها ونطعمها مياه البحر، ثم نعبر عن شكرنا قبل الصعود على متن السفينة أستر، وتوديع السفينة ريفين. لقد أحسنت هذه السفينة معاملتنا، بيد أنها كانت مثل فم فاغر مفتوح، وما هي إلا مسألة وقت فقط قبل أن تلتهمنا. كنت أعرف ذلك.

انطلقت في الممر، ودلفت إلى غرفتي مغلقًا الباب ورائي، وحدقت إلى الظلال مع مرور سحابة فوق وجه القمر. وغاصت الغرفة في الظلام، وسرت لسعة برد في أرجائها.
وساورني شعور الخواء ذاك؛ شعور أعرفه حق المعرفة. ولم ينسَ البحر خطايانا، كل ما هنالك أنه يقتص منا بصور شتى لا تخلو من تضحيات دموية.

خلعت قميصي وحذائي قبل أن أجلس على حافة السرير، وأمسح وجهي بيديَّ بقوة. وعبر الغرفة الضيقة عكست المرآة تحت نور القمر صورتي فوق زجاجها. أحيانًا أظن أنني أشبهه، أو على الأقل أشبه صورته التي يمكننا تذكرها. لقد مرت ست سنوات فقط على وفاة أبي، لكنها بدت دهرًا طويلًا. لقد صرت رجلًا في غيابه، لقد أصبحت مختلفًا في جوانب كثيرة منذ رحيله.

12 إيزولد

لم يكن ذاك العقار الضخم الذي أطلقت عليه والدتي اسم منزل آل آزمث في حي التجار بيتًا لي في يوم من الأيام. لطالما لازمني ذاك الإحساس بالتحير حيال مكان وجودي لحظة استيقاظي، ولم يكن ذاك الإحساس يزايلني إلا حين أكون على متن سفينة، فتلك الاهتزازة الخفيفة للأرجوحة الخشبية وأصواتها وروائحها المألوفة هي التي كنت أحس وسطها بالانتماء، كأن السفينة بيتي. ولطالما رأيت أن السبب وراء ذلك هو حب أبي البحر، فلعل ما كان يجري في عروقي من دماء يخص أبي أكثر مما يخص والدتي. لقد راقتني تلك الفكرة، ورجوت أن تكون حقيقة.

وبجواري كانت الأراجيح الأربع الأخرى المعلقة في غرفة نوم البحَّارة خاوية. لقد كانت السفينة ريفين تبحر بعاملين اثنين فقط، غير القبطان والملَّاح، ولم تكن السفينة كبيرة بأي شكل من الأشكال، لكنهم كانوا يجازفون مجازفة خطيرة بالإبحار بهذا العدد القليل من البحَّارة في ظل الحال المزرية لهذه السفينة.

رفعت جذعي، ودفعت بوزني للأمام حتى لامس طرف قدمي الأرضية التي كانت زلقة بشيء من البلل، وتكاثف الهواء الرطب في أرجاء الغرفة، حتى إن ملابسي وجدتها مبتلة في هذا الجو، وقد كانت تلك دلالة سيئة أيضًا - فهي إشارة إلى تضرر هيكل السفينة ضررًا خطيرًا.

وترامى من الخارج صوت يزعق: "اخطُ خطوة أخرى وسأذبحه".

تجمدت عند سماع الصوت، وانطلقت عيناي صوب الباب المفتوح على ممر الطابق السفلي المضاء بنور الشمس.

وعاد الصوت يقول: "إنني جاد!".

أنزلت نفسي من الأرجوحة، واستللت السكين، ومضيت بخطوات بطيئة في الممر، وكان الدرج المفضي من الممر السفلي إلى سطح السفينة تنقصه عتبته السفلية، لكن حين شببت تمكنت من رؤية صحن السفينة حيث مصدر الجلبة.

شاهدتُ الملَّاح من كثب على مقدمة السفينة، وعيناه مثبتتان على رجل شعره بُني ضارب إلى الحمرة ظهره ملتصق بالسور. وكان الرجل قابضًا على سكين في إحدى يديه، بينما الأخرى قابضة على قميص بحار يافع وجهه مليء بآثار لكمات، والرجل يُثبته بيده في الصاري الرئيسي.

سلَّط الملَّاح نظرات غضب على البحار المرتعد عن يمينه، وقال: "أخبرتك بأن تخرجه من محبسه يا جوليان، لا أن تهيئ له احتجاز رهينة".

قال الشاب وقد اتسعت عيناه، وراح صدره يرتفع ويهبط، وهو يلتقط أنفاسه بذعر: "أنا... أنا آسف يا كلوف... أنا...".

كلوف. لا أتذكر أن زولا نطق بهذا الاسم في الحانة.

لم يمهل كلوف الشاب ليتم كلامه، وبدا ضجرًا للغاية بالمشهد الذي يراه، وتساءل: "ماذا تروم من وراء كل هذا يا ناش؟".

نظر الرجل ذو الشعر الضارب إلى الحمرة صوب الماء وهو يعض على أسنانه، ويقول: "لا يمكنك احتجازي كأنني سجين، لا يمكنك أن...".

عندئذ ترامى صوت القبطان من الجانب الآخر من الصاري، ما اضطرني إلى ارتقاء أدنى عتبة حتى تتسنى لي رؤيته، قائلًا: "هذه سفينتي أفعل على متنها ما يحلو لي". وحين وقعت عيناي عليه، ازدردت ريقي بصعوبة جراء جيشان فورة مشاعر في نفسي، إذ كان عاري الجذع، كاشفًا عن عضلات ذراعيه، وظهره، وصدره المشدودة التي تتحرك تحت جلده الضارب إلى السمرة أثناء ارتكازه بإحدى يديه على السور. كأن الجلبة قد جعلته يُهرع

قبل أن ينتهي من ارتداء ملابسه، كما أنه بدا منزعجًا أكثر من كونه قلقًا على الشاب المهدد بالسكين.

وأردف قائلًا: "لقد قررت قرارًا يا ناش، والآن عليك تحمُّل تبعاته".

أغمض الشاب عينيه ضاغطًا أجفانه بشدة وهو ينشج.

ارتقيت العتبات، وصعدت إلى صحن السفينة مع تقدم القبطان نحوهما خطوة.

ثم قال: "سأبرم معك اتفاقًا. حين نكون في وسط البحر، فأنت حر تتحرك كيفما تشاء في السفينة، وستقوم بأي عمل يُطلب منك إذا كنت تريد طعامًا. أما حين نرسو في ميناء، فستعود إلى مخزن الشحن. وإذا اتبعت هذه القواعد، فسيكون بوسعك مغادرة هذه السفينة حين نعود إلى ديرن، وهكذا نكون قد صفيّنا الأمور بيننا، أما إن رفضت ذلك...".

عندئذ اصطبغ وجه ناش بحمرة قانية إثر غضبه العارم.

وتابع القبطان كلامه: "ليس أمامك سوى أن تقتله، وإن قتلته فسنقتلك بالسكين ذاتها. ولو قفزت من فوق هذا السور، فسوف تغرق قبل أن تبلغ اليابسة".

أخذ ناش يوازن خياراته، وما هي إلا لحظات حتى أدرك أنه خاوي الوفاض لا يملك خيارًا، فأنزل السكين، ودفع الشاب طارحًا إياه على الأرضية.

تراجع الشاب في حركة مضطربة، وما زالت نظرة ذعر تلوح على وجهه. وعلى الفور عاد القبطان أدراجه مرة أخرى إلى الممر ليختفي دون أن ينبس بكلمة أخرى، ولم ينتظر حتى يطمئن على الشاب.

ثم مد كلوف يده نحو الشاب لينهضه وهو يسأله: "أأنت بخير يا فتى؟".

لكنه لم يُحِر جوابًا، ورفع يده ليمسح الدم الذي سال من شفتيه.

ربَّت كلوف ظهره قائلًا: "أحضر أدوات رئيس سطح السفينة من الطابق السفلي، فسيحتاج إليها ناش لينجز عمله".

كان الشاب يبدو كأنه سيتقيأ وهو يبتعد عن ناش، وينطلق خلف الصاري الرئيسي. ولم يبدُ أن أحدًا يلاحظني حتى هذه اللحظة.

صعَّد كلوف النظر فيَّ قبل أن يمر من جانبي نحو عجلة الدفة، حيث كان دفتره مفتوحًا على سطح السفينة. بدا أنه قد أسقطه هناك، فأمسكه وقصد إلى العتبات المفضية إلى مخزن الشحن.

ثم ترامى صوت ناش سائلًا إياي: "ماذا فعلتِ لينتهي بك المطاف على سفينة الهلاك هذه؟"، منذ لحظات فقط كان قابضًا على السكين، فنظرت إليه، ووجدته متكئًا على السور، ويداه معقودتان على صدره، وهو يراقبني.

شددت قبضتي على السكين، وأنا أرفع كتفي تأهبًا، وأجبته: "احتجت إلى سفينة تنقلني فقط".

لكنه لم يقتنع بالإجابة، وانحرفت شفتاه وهو يبتسم ابتسامة خبيثة، فتغيرت تعابير وجهه، إذ خبا الغضب العارم الذي كان مضطرمًا في صفحة وجهه منذ لحظات. لقد قبل مصيره. وقال: "طبعًا. وأنا أيضًا أتيت إلى هذه السفينة كي أرى مناظر طبيعية جديدة".

لست متيقنة الآن مما إذا كان ناش قد رفع سكينه في وجه الشاب ليثير جلبة فقط، أم أنه كان عازمًا فعلًا على الشر. أولاني ظهره، واستدار يرنو إلى البحر، وطرحت الرياح شعره المنثني على جانب واحد، كما أن ملابسه لم تكن تشبه ملابس القباطنة والبحَّارة الذين رأيتهم، بدا كأنه رجل تجارة.

ترامى صوت القبطان ينادي من الممر: "يا جرَّافة!"، فانطلقت عيناي صوب غرفته.

اتجهت نحو مصدر الصوت، وحين وصلت إلى الباب ألصقت كتفي بالجدار، وانحنيت إلى الأمام بما يكفي لأنظر من خلال الشق الموجود فوق مفصل الباب، وارتمى ظلي عبر عتبة الباب. أما القبطان فكان واقفًا خلف المكتب وقد ارتدى قميصًا جديدًا، وراح يشمر كميه.

وحين انتهى من تشميرهما، أعاد ربط الضمادة التي كانت ملفوفة حول يده.

ثم رفع عينيه فجأة مصوبًا إياهما إلى عينيَّ عبر شق الباب، وتساءل: "هل ستظلين واقفة هناك؟"، رفعت رأسي ودلفت إلى الداخل. وجعل يُصعِّد النظر فيَّ من قدمي إلى قمة رأسي، وكأنه يحاول مقارنتي بالفتاة التي وجدها في غرفته ليلة أمس.

صارت جنبات غرفته منيرة الآن في وضح النهار، كانت غرفة قليلة الأثاث، لا تحوي سوى الأغراض الأساسية، منها حزام التجريف الخاص بي وقد لفه حول الكرسي المجاور للمكتب. لكن ما استرعى انتباهي كان الحبل المعلق على النافذة، وتنتظم فيه أحجار الأفعى المثقوبة؛ خرافة سمعت عنها في أساطير البحر القديمة.

رفع ريشة الكتابة عن سطح المكتب، معيدًا إياها إلى المحبرة. كانت ريشة صغيرة متآكلة مأخوذة من طائر أبو قردان من الضروري تغييرها، ورؤيتي إياها ذكَّرتني بأنني هنا ما أزال مختبئة بأمان ومنأى عن عين والدتي، ومنأى عن ريش الكتابة الخاص بها المأخوذ من طيور إحدى فصائل البجع يتميز ريشها بأنه لامع كما أن لها رؤوسًا سوداء، ومنأى عن الأغبياء الذين حققوا لها مآربها.

ثم حدجني هنيهة قبل أن يمد يده إلى الدرج بحثًا عن حافظة الأحجار الكريمة، ووضعها بعناية في صينية خشبية ودفعها نحوي، قائلًا بثقل ونفاد صبر: "هيا؟".

تساءلت: "هيا ماذا؟".

سألني: "ماذا لدينا هنا؟".

ترددت هنيهة، ثم تقدمت خطوة وجلست على الكرسي المقابل له، وراحت أصابعي تحوم فوق الأحجار قبل أن أفرز برفق أحجار الزمرد الأحمر الحقيقية بعيدًا عن المزيفة، وجمعتها في جانب من الصينية.

تساءل: "أيها المزيفة؟".

أشرت إلى المجموعة الأكبر، إجمالًا كانت توجد إحدى عشرة قطعة حقيقية، وأربع وعشرون قطعة مزيفة.

حكَّ مؤخرة فكه وهو يرنو إليها. ولم أستشف أي شيء من صفحة وجهه الجامدة وهو يرفع الريشة قبل أن يغمسها في المحبرة، ويفتح دفتره، ثم قال: "قراري باصطحابك خارج ديرن لا يعود عليَّ بأي نفع. هل ثمة شيء يجب أن أعرفه قبل أن أصل إلى مدينة سوان وأنت على متن سفينتي؟".

آهٍ لو يعرف مدى أهمية هذا السؤال. توجد أشياء كثيرة ينبغي له أن يعرفها. ليس زولا وحده مَن يبحث عني أو عما كنت أحمله في جيبي. ومع ذلك هذا القبطان يعرف أهم سر بشأني.

أشحت بعينيَّ عن الزمرد الأحمر مصوبة إياهما إلى وجهه مرة أخرى، ولاحت عيناه الزرقاوان تحت خط حاجبيه الكثيفين الداكنين كأنهما قطعتان مصقولتان من الزجاج البحري.

ثم قلت: "أنا مجرد جرَّافة".

قال: "أعتقد أننا أثبتنا أنك لستِ مجرد جرَّافة. وإذا كنت تريدين الحيلولة دون اكتشاف أي أحد آخر هذا الأمر فحري بك أن تكوني أشد حرصًا. لقد عرفت أنك خبيرة أحجار كريمة منذ رأيتك أول مرة".

ثم صمت، وأخذ يتفحصني مرة أخرى. كان الهدوء في وجهه مثيرًا للقلق، لكن الأشد إثارة للقلق هو حقيقة أنني صدَّقته. لقد شعرت بذلك ليلة الحانة، نظراته لي وشت بذلك.

تغيرت نظرة عينيه تغيرًا طفيفًا حتى ظننت أن هذا من نسج خيالي، لكن النظرة بثت دفئًا في الجو لم يكن موجودًا منذ لحظات.

الآن كنت أنا التي تتفحصه.

ثم تساءل: "ماذا؟"، كأنه يحاول الكشف عما يجول في خاطري.

أمعنت التفكير بشأن مدى ما يمكنني أن أكشفه من الحقائق. ثم سألته: كيف أعرف أنك لا تخطط لبيعي حين نصل إلى سيروس مثلما خطط زولا لذلك؟".

أجاب: "أنا لا أتاجر بالبشر".

عدت أسأله: "إذن، فما ذاك الذي رأيته على سطح السفينة من فوري؟".

قال: "إنه مساعد صانعة سفن لم يمسك لسانه. صدقيني إنها مشكلة لم أسعَ إليها".

إذن، كنت مصيبة في ظني، لم يكن ناش بحارًا، بل كان من الطامحين إلى أن يكونوا من زمرة النقابيين.

ارتكز القبطان على المكتب بيديه وهو يرمقني بنظرة مباشرة إلى عينيَّ مرة أخرى، فدبت موجة حارة فوق جلدي، وسرَت في الجو نشوة مفعمة بالحياة.

ثم قال: "إذا كنت تفكرين في الهروب في سوان، فهذا يشبه الموت المحتم، إنها صغيرة وسوف تلفتين الكثير من الأنظار، سوف يعثر عليكِ".

سألته: "وما شأنك بهذا؟".

بدا أن السؤال قد باغته، لكنه استجمع رباطة جأشه، وقال: "حصوله على ما يبتغيه يعني عدم حصولي على ما أبتغيه".

كان الأمر بتلك البساطة. تلك هي القواعد الجلية المعروفة التي تحكم هذا العالم، ولم تتغير لمجرد عبوري إلى منطقة المضايق. كل امرئ يتدبر مصلحته الخاصة فقط. ولم أكن استثناء، فمنذ مغادرة مدينة باستيان كنت أفكر في مصلحتي الخاصة فقط.

لم يكن زولا ذا نفوذ كوالدتي، بيد أنه رجل معتد بنفسه، ولن ينسى ما فعلته، ومنطقة المضايق صغيرة. سوف تتقاطع طرقنا مرة أخرى، ووقتئذ يجب أن تكون لي اليد الطولى.

سألته: "وإذا شرع في إخبار الناس بحقيقتي؟".

قال: "لن يجازف بذلك. لا سيما أنه على وشك الحصول على رخصته التجارية، فثمة احتمالية كبيرة لأن يُربط بينك وبين السفينة لونا، وإذا حدث ذلك، فستتضرر علاقاته بالمجلس".

بدا الأمر كأنه كان يقول إن وجودي على متن السفينة ريفين يعني أنني بأمان. لكن لم يعد ثمة مأمن.

ثم سألني: "كيف انتهى بك المطاف على تلك السفينة؟".

أجبته: "رجل اسمه سيمون. طلبت منه الخروج من المدينة، فوفر لي وسيلة، لم أكن أدري بشأن خبراء الأحجار الكريمة وتسليمهم". لقد نطقت الإجابة بسلاسة أكثر مما خططت، ولم أكن على يقين حتى مما إذا كانت هذه معلومات ينبغي كتمانها.

راح يرنو إلى زاوية مكتبه وقد سرح في أفكاره وهو يغربل المعطيات ويستنتج النتائج المحتملة، لكنه لم ينطق بأي شيء.

عاد يسألني فجأة: "ما اسمك؟ اسمك الحقيقي الذي سمَّاك به أهلك".

ولم يطرف طرفة عين وهو يراقب المعركة المحتدمة التي تدور رحاها على صفحة وجهي وأنا أفكر في الكذب مرة أخرى.

أردف: "لقد ائتمنتيني على حياتك حين ركبتِ هذه السفينة، ومع ذلك لا تأتمنيني على اسمك؟".

لم يكن الأمر كذلك. الحقيقة أن ما جعلني أرغب في إمساك لساني هو أنني أثق به حقًّا، لم يكن ثمة باعث على تلك الثقة، لكنني وثقت به، ولم يرقني هذا الشعور.

قلت: "إيزولد".

هذه المرة بدت الحقيقة في نبرة صوتي، وفي الطريقة المألوفة التي بدت بها الكلمة على شفتيَّ، حتى إنني استطعت سماع نبرة الحقيقة تلك.

ثم سألته: "وأنت ما اسمك الحقيقي؟".

رمقني مرة أخرى بتلك النظرة المباشرة التي تلوح فيها الصراحة، وقد أشعرتني بأن السفينة تميد بي، ثم قال: "لقد أخبرتك بالفعل".

إلياس.

الاسم الذي أخبرني به في الحانة. لكنني لم أسمع أي شخص يناديه به، ما يعني أنه في مرحلة ما من حياته التصق به اسم آخر؛ ذاك الاسم الذي سمعت زولا يناديه به - سينت. لقد بدا لي هذا الاسم خاويًا من المعنى، كأنه حجر كريم بلا أنغام تصدر عنه، ومع ذلك بدا مكللًا بلمسة من الأمان. أما إلياس فقد حمل صبغة من القداسة، وهذا أثار سلسلة من الأسئلة الصامتة على طرف لساني.

أردت أن أسأل، بيد أنني لبثت أرنو إلى عينيه في صمت شديد الوطأة حتى مالت عيناه أخيرًا إلى دفتره.

وكانت تلك الحركة مؤذنة برغبته في انصرافي.

التقطت حزام التجريف من فوق الكرسي، ووضعته على كتفي، وفتحت الباب، لكن قبل أن أغلقه رنوت مرة أخرى من خلال الشق، فوقعت عيناي على سينت مرة أخرى وهو منحنٍ على مكتبه، ويمرر يده عبر شعره وهو يكتب، وكان الدم يتقاطر من الضمادة التي تلف يده، لكن لم يبدُ أنه انتبه لذلك.

اندفعت إلى الخارج واستقبلت بترحاب لسعة الريح وهي تلطم وجهي. وتنفست بعمق وأنا أحاول تخليص رئتي من إحساس الشد الذي انتابني وأنا واقفة في غرفة سينت.

كانت النظرة التي ارتسمت على وجهه رائعة وباردة في آن واحد، ولم يرقني أنني كنت أجد صعوبة في انتزاع عينيَّ من براثن عينيه. ولم أعرف ما إذا كان الباعث على فورة الدماء في عروقي يتمثل في هذه السفينة، أم البحر، أم مشهد السماء العجيب. رجوت أن يكون شيئًا من تلك الأشياء.

رجوت أن يكون الباعث أي شيء؛ أي شيء سواه.

13 سينت

صدر عن الصناديق الخشبية صرير ينذر بانشقاقها تحت وطأة الثقل أثناء نقلها ببكرة الرفع من السفينة ريفين، ووقف وورد - مدير ميناء سوان - يوجِّه الحمولة إلى الرصيف. وبجواره وقف كلوف يراقبه وهو يسجل أرقام الحمولة، ستة صناديق من الصوف ليست ملكًا لنا، لكن ثمن بيعها سوف يؤمِّن لنا ما نحتاج إليه للإبحار حتى نعود إلى ديرن.

لاحت على وجه وورد نظرة غير ودية وهو يسجل الأرقام. كان التعامل معه أصعب من التعامل مع جيريك، وكان صبره ينفد. إن جيريك يطلق وابلًا من الألفاظ البذيئة والتهديدات الفارغة، أما وورد فيتعذر التنبؤ بما سيفعله، وهذه خصلة أقلقتني.

إن إسداء المعروف وتكوين الصداقات ليست أمورًا ذات نفع في منطقة المضايق، فدائمًا ما يكون ثمة كيس نقود ثقيل بما يكفي للتأثير على التحالفات، وقد امتلأت خزائن زولا في غضون الأشهر التي تلت إنشاء مجلس التجارة. آمل أن تكون هذه آخر زيارة لسوان دون ترخيص تجاري، وإلا فلست متأكدًا من أننا سنكون قادرين على المخاطرة بالعودة إلى هنا، ليس وقد حملنا على متن سفينتنا خبيرة أحجار كريمة.

كان ناش قد حبس نفسه في مخزن الشحن، كما نص اتفاقنا، وجلس العاملان اللذان أحضرناهما من ديرن على قاعدة الشراع الأمامي يراقبان الشارع الضيق المكتظ الذي يطل على الميناء. إننا لا نملك النقود الكافية لاستئجار أحد لحراسة السفينة ريفين، ومن ثم سيبقيان هنالك للحراسة.

حضرت إيزولد إلى سطح السفينة وقد زرَّرت سترتها تمامًا، وداهمتني خاطرة بأن الاسم يناسبها بطريقة غريبة. حين نطقته بدا جديدًا ومألوفًا في آن واحد.

جالت عيناها على السفن الراسية في الميناء، ورحت أرنو إليها وعيناها تتوقفان عند سفينة تفصل بيننا وبينها مسافة ليست بالبعيدة. ثم عضَّت على شفتها السفلية، ورفعت يدها لتدس شعرها الأحمر الداكن في سترتها.

سألتني: "كم سنمكث هنا؟"، وبدت متوترة، بل فزعة.

أجبتها: "ليلة واحدة"، وعلَّقت العلبة الأسطوانية على كتفي، وأردفتُ: "ستكفينا تلك الساعات لتسليم الأحجار الكريمة وإحضار المزيد من الجاودار".

عادت تسألني: "كيف تعرف أن التاجر لن يكتشف الأحجار المزيفة؟".

قلت: "ليس مضطرًّا لذلك. إنه يعرف ما يشتريه".

عندئذ بدا التحيُّر على وجهها وهي تسألني: "إذن، لماذا يشتريها؟".

ضيَّقت عينيَّ وأنا أحدِّجها بنظرة ارتياب. لم تكن مولودة في منطقة المضايق، لكنها كانت جرَّافة، ومَن يمتهنون هذه المهنة يعرفون جيدًا طبيعة العمل مع التجار الذين ينقلون البضائع، وكذلك التجار الذين يشترون تلك البضائع. إن التجارة غير القانونية جزء أصيل من هذا العالم، ما يجعل من المتعذر تصديق أنها لا تدري كيف تجري هذه الأمور.

وحالما أُنزِل الصندوق الأخير، ارتقيتُ السور، ووضعت قدميَّ على سلم الحبال المفضي إلى الرصيف في الأسفل.

هبطتُ، بينما ترددت إيزولد قبل أن تتبعني، ثم هبطتْ السلم هي الأخرى حتى وقفت بجواري على الرصيف. وراح وورد يحدجني من أعلى نظارته، لكنني كنت أتطلع إلى حزمة الأوراق المدسوسة خلف دفتره.

ثم سألته: "رسائل؟"، وهذه المرة كان يساورني خوف من الإجابة.

أجاب وورد بنصف انتباه فقط: "لا".

تكوَّرت يداي في جيبيَّ، في حين التقت عيناي بعيني كلوف. لقد انصرمت ثلاثة أشهر تقريبًا منذ قدمنا طلبًا للحصول على ترخيصنا التجاري، وكلما طال أمد وصوله، طالت مدة إبحارنا من دون حماية مجلس التجارة، وإننا في أمس الحاجة إلى تلك الحماية الآن.

أما قلق وورد فكان محوره هو إنزال صندوق الصوف التالي من السفينة ريفين، وارتفع حاجبه المعقوف بدرجة أكبر من المعتاد.

ثم سأل: "منذ متى تنقلان الصوف؟".

أجابه كلوف بنبرة محذرة من نفاد الصبر: "منذ الآن".

من الممكن أن يشي بنا وورد عند أشخاص كثر، وكنا نعوِّل عليه في الحيلولة دون وشاية وورد بنا على شيئين رشوته، وحقيقة أننا أطول منه قامة بفارق واضح، وفارق القوة الجسمانية الواضح هذا بث الخوف في نفس وورد.

انتقلت عينا وورد إلى إيزولد التي وقفت خلفي، ولم ترقني طريقة تضييقه عينيه وهو ينظر إليها. لا مناص من حقيقة أنها لافتة للأنظار، كانت حسناء، ومن الجلي للغاية أنها لا تنتمي إلى هذا المكان، وكلما أثارت الفضول، ازدادت احتمالية عثور زولا عليها.

تقدم كلوف خطوة نحوه ليصرف نظره عن إيزولد، وسأله: "هل ستتولى مهمة نقل الصناديق إلى السوق أم أبحث عمن ينقلها بنفسي؟".

حدجه وورد بنظرة باردة وشد قبضته على ريشة الكتابة قبل أن يسدد بصره صوب الرصيف، وندت عنه صافرة حادة في الجو، فهرع رجلان إليه.

ثم قال آمرًا: "إلى السوق"، ومضى متجاوزًا إياهما دون أن ينطق بكلمة أخرى.

بعد ذلك قال كلوف: "سوف أتدبر هذا الأمر. واذهب أنت إلى محل لاندر"، ثم حنى رأسه ناحية إيزولد مردفًا: "ولعله يجدر بك عدم اصطحابها إلى السوق".

أومأت برأسي وأنا أرنو إلى صناديق الصوف التي عمل الرجلان على رفعها ووضعها على عربة النقل البسيطة. لقد محونا ختم ميناء ديرن من الخشب بسكين، ومع ذلك سرعان ما سيكتشف أحدهم أن هذه الصناديق مسروقة. وكان أملي معقودًا على أن يجد كلوف تاجرًا يحتاج إلى إبرام صفقة من هذا النوع.

عندئذ قال كلوف مشددًا: "انطلق. سأتدبر هذا الأمر".

أمسكت بحزام العلبة الأسطوانية الممتد على صدري، واستدرت بحركة مترددة تاركًا إياه ورائي. إن كلوف خير من يخرج من الورطات، لكنه كذلك كان يجيد إقحام نفسه فيها.

وتبعتني إيزولد وأنا أشق الرصيف، وسارت بمحاذاتي خافضة رأسها.

ومن طرف عيني كان بوسعي رؤيتها وهي تمد يدها بحركة عفوية إلى جيبها، وتكور يدها على شيء ما هنالك. لكن ما لفت انتباهي حقًّا هي طريقة مشيتها، وليس اللافت أنها كانت تمشي بالقرب مني بشكل كبير، لم نكن بهذا القرب منذ سحبتها إلى الزقاق الجانبي في ديرن. إنما اللافت هو طريقة انزوائها والنظر لأسفل، كأنها لا تريد أن تُرى.

انطلقت عيناي صوب السفن الراسية عن يميننا. وكانت سوان أكبر كثيرًا من ديرن، وترسو فيها سفن آتية من جميع موانئ منطقة المضايق وكذلك سفن عديدة آتية من منطقة البحر المجهول. وتساءلت ما الماضي الذي خلفته إيزولد وراءها، وليست تلك المرة الأولى التي يراودني فيها هذا التساؤل.

كان الطريق المتعرج الذي يشق سوان تتراص على جوانبه أبواب كثيرة مفتوحة لإدخال النسيم البارد الآتي من المياه، وكان مكتظًّا بالمتوافدين على الميناء والمغادرين منه.

وانطلقت حتى ضاق الطريق المرصوف بالحجارة وانعطف مفضيًا إلى مجموعة من المحال المتهالكة. وكان محل لاندر هو المحل الوحيد المغلق بإحكام ونوافذة مظلمة.

وتوقفت أمام الباب رافعًا قبضتي للنقر على الزجاج بمفاصل أصابعي.

عندئذ تساءلت إيزولد: "أهذا هو؟".

تمتمت: "ألم يُبهرك؟".

لم أزر منطقة البحر المجهول قط، ولكن ما عرفته من التجار أن أهل تلك المنطقة يقدِّرون المظهر فوق كل شيء. وجرت العادة أن يستخدموا تلك المظاهر المبهرجة للوصول إلى ما يرومونه، واعتاد الناس في منطقة المضايق الانحناء أمامهم.

أردفت: "يمكنك الانتظار هنا إذا كنت قلقة بشأن اتساخ يديك".

لم أعرف لماذا قلت ذلك. لم يكن لاندر بحاجة إلى دفاعي عنه، ولم يكن جديرًا بذلك، لكن النظرة التي رأيتها على وجهها أجَّجت النيران داخلي، فما كنت لأدعها تنظر إليه بازدراء.

قالت هامسة: "ليس هذا ما قصدته".

التفتت لأنظر إليها وسألتها: "فماذا قصدتِ إذن؟".

رفعت رأسها لتتمكن من النظر إلى عيني، ولم يبدُ عليها جفول، إنما شدت كتفيها في تأهب وهي تلعق شفتيها قبل أن تتحدث، ولكن قبل أن تنطق بشيء انفتح الباب.

وقف لاندر على الجانب الآخر من الباب، ولاحت في عينيه نظرة جامدة، وكان يرتدي قميصًا نصف أزراره مفتوحة، ولم يكلِّف نفسه عناء تمشيط شعره.

ثم قال بفتور: "لقد تأخرت".

عندئذ توجهت إيزولد بعينيها نحوي، وهي تبتسم ابتسامة خبيثة، كأن مظهر الرجل الواقف أمامنا يمثل البرهان الذي يؤكد وجهة النظر التي تحاول توضيحها.

تغافلت عن تلك الطعنة النفسية. دلف لاندر إلى الداخل دون أن يدعونا للدخول، وراحت إيزولد تحدق إلى المدخل الفارغ قبل أن أتقدَّم وأعبر العتبة. وظلت قريبة مني حين دخلنا المحل وهي منتبهة إلى النافذة التي تطل على الشارع. ما زالت تلك النظرة تلوح في عينيها، وكأنها تنتظر رؤية أحد تعرفه.

رمقها لاندر بنظرة ارتياب غير ثابتة، وتساءل: "مَن هذه؟".

أجبته وأنا أرفع حزام العلبة الأسطوانية فوق رأسي لأخلعها: "جرَّافتي الجديدة"، ووضعت العلبة على الطاولة. وسحبت حافظة الأحجار الكريمة من داخل سترتي.

عندئذ سلطت إيزولد عينيها على وجهي مرة أخرى، لكن هذه المرة سرى توتر في الجو. وأدركت أنها لا يروقها أن ينسبها أحد بصفتها تابعة، أو ملكًا له.

أحضر لاندر الميزان إلى الطاولة، ووضعه بجوار الصينية والدفتر وهو يقول: "لن تعثر كل يوم على أفراد طاقم بهذه الفتنة الطاغية".

وحين رفع عينيه لينظر إلى وجهي، ضحك ضحكة متوترة، وقال: "هيا. لا بد من شيء من المرح كل حين".

وبجانبي، لم تكن إيزولد تضحك، لكنها لم تبدُ متفاجئة أيضًا.

ارتكز بيديه على الطاولة منتظرًا بعد أن سأل: "حسنًا، ماذا لدينا؟".

أستطيع اشتمام رائحة الجاودار في أنفاسه. وبدا جلده لامعًا مع انسدال شعره الرطب على صدغيه، ما وشى بأنه قضى ليلته يتجرع الجاودار في الحانة. لقد وجدت لاندر منغمسًا في هذه الحالة أكثر فأكثر في الفترة الأخيرة، وكاد محله يخلو من أية علامات تدل على وجود

نشاط تجاري. إذ كانت الأرفف مغبرة، والشموع لم يبدُ عليها أثر أنها أُشعلت من قريب. وظني أنه ينفق كل نقوده على الشراب، وإذا كان الأمر كذلك، فهذا يعني أنه غير جدير بالثقة. ولست أستطيع التعامل معه هكذا.

قلت: "زمرد أحمر"، وفتحت حافظتي، وأفرغت ما فيها على الصينية، تألقت أسطح الأحجار في الضوء الشاحب كأنها قطرات دم تلتمع.

مط لاندر شفتيه وبرز ذقنه، لقد سيطر عليه الانبهار، وحري به أن ينبهر، إذ كانت تلك أثمن أحجار كريمة نقلناها على الإطلاق. وما يصب في صالحي أنه ما من سبيل أمامه ليعرف حقيقة أننا فقدنا نصف الأحجار. كان الاتفاق أن يدفع السعر المتعارف عليه في السوق بحسب وزن الأحجار الكريمة بالقراريط، هكذا كان الأمر بهذه البساطة.

ثم يدفع لي المبلغ الذي أوصله إلى هنريك، وحين أسلمه إليه يعطيني هنريك أجري. أما لاندر، فيبيع الأحجار إلى بعض تجار سيروس الذين يظنون أنهم يحصلون على أفضل أحجار مدينة باستيان عن طريق تجارة مستترة يديرها بعض ذوي الدم المملح، وعلى هذا الأساس كانوا يشترونها بسعر أقل من سعر الأحجار الكريمة في السوق القانونية، لكن هذه الأحجار ليست أصلية، وفي نهاية المطاف يشتري التجار هذه الأحجار المزيفة بسعر يعادل أربعة أضعاف قيمتها.

ندَّت عن لاندر همهمة خافتة وهو يحصي ويحسب، وأخيرًا رنت إيزولد إليَّ، غير أنني لم أستطع استشفاف ماهية تلك النظرة المرتسمة على وجهها. إن لديها القدرة على أن تصغي إلى أنغام الأحجار الكريمة، وتستشعرها بطريقة ما. لكننا وقفنا في محل مليء بأغراض شتى من الفضة إلى أحجار العقيق، وإن كانت قدراتها تلك حقيقية، فلم يظهر لذلك أثر بادٍ عليها.

ثم تمتم لاندر ويده الممسكة بالريشة ترتعش ارتعاشة طفيفة: "هذه الأحجار تزن..."، وانسلت على صدغه قطرة عرق متلألئة تشق طريقها على طول فكه وعبر ذقنه حتى

سقطت بين أصابعه على الطاولة الخشبية، وأردف: "سبعة قراريط وربع".

كررت ما قاله: "سبعة قراريط وربع".

وارتعشت شفتا إيزولد.

أشار لاندر بإصبعه إلى دفتره، وقال: "مضبوط"، ومد يده ناحية الصندوق القابع تحت الرف، وانتظرته ليضع المفتاح في قفل الصندوق.

ثم قلت: "هذا طريف".

فتساءل: "ما هذا؟".

قلت: "حين وزنتها هذا الصباح، كان الوزن يقارب تسعة قراريط ونصفًا".

عندئذ عادت الابتسامة الكسولة ترتسم على شفتيه، وهو يخرج حافظتي نقود كبيرتين، ثم قال: "لا بد أن ميزانك كان غير دقيق، هذا يحدث مع حركة السفينة كما تعلم. عليك أن تتحرى وزنها الآن".

وحين لازمت الصمت أشار إلى الأحجار.

ثم أردف: "يمكنك أن ترى بنفسك. ها هو ذا الوزن ظاهر هنا".

كانت الكفة النحاسية التي تحوي الأحجار الكريمة لا تزال تتأرجح أرجحة طفيفة، والمؤشر الأبيض الذي يحتل منتصف الميزان يشير إلى رقم سبعة وربع.

لم تفارق نبرة التأني صوتي وأنا أقول: "هذا خطأ".

لقد تعلمت منذ زمن بعيد أن فقدان رباطة الجأش لا يجدي نفعًا، ففي النهاية لن أجني من وراء ذلك سوى الجلبة، أما عندما يكون الجو هادئًا، يتسنى لك اكتشاف أمارات الكاذب،

كالتقطع الخفيف في الأنفاس، وتقلُّب العينين.

أمعنت النظر في الميزان وأنا أقول: "لقد طال تعاوننا معًا يا لاندر. لست أدري لماذا تختار معابثتي الآن".

ضحك ضحكة خاطفة مرة أخرى، وانخفضت كتفه، وهو ينحني مقتربًا مني، ثم ارتكز بيديه على الطاولة الفاصلة بيننا قائلًا: "يا سينت.. أنا..."

لم أمهله لينطق بكلمة أخرى، إذ تلقفت يدي مقبض السكين قبل أن أرفعها في الجو، وارتخت أصابعي قبل أن يتهيأ لي إحكام قبضتي على المقبض، وعندئذ استقام لاندر في وقفته متأهبًا، وشرع يتقهقر.

بيد أنني أمسكت بمعصمه سريعًا، مثبتًا إياه في مكانه، وأنا أسدد السكين إلى أسفل. لم أشعر كذلك بطرف النصل وهو يخترق جلده، لكن النصل انسل بين عظامه مخترقًا عضلاته وأوردته حتى انغرز في خشب الطاولة تحت راحة يده، فتردد صوت اصطدام النصل بالخشب وتلته صرخة لاندر المكتومة.

أما إيزولد، فصرخت، ويدها ترتفع نحو فمها، وعيناها تتسعان.

تلوى وجه لاندر وهو ينادي: "سينت! سينت!"، ونطق اسمي ممسوخًا وهو يشهق الهواء وقد فغر فمه على اتساعه.

قالت إيزولد بصوت متهدج: "ما الذي تفعله؟"، وقد أخذت تلوِّح بيدها التي كانت ضاغطة على فمها منذ هنيهة، وشحب وجهها حتى بدا أنها سيغشى عليها.

قلت: "تفحصيه".

قالت متلعثمة: "ما .. ماذا؟".

قلت بهدوء: "الميزان، تفحصيه".

لبثت إيزولد متجمدة لحظات قبل أن تمضي بخطوات مرتجفة مضطربة كأنها تعاني صعوبة جمة لتحريك قدميها، ثم تحسست الميزان حتى أمسكت بالمؤشر.

عندئذ خففت قبضتي عن السكين، وحركت يدي الأخرى بعيدًا عن الطاولة قبل أن تلامس الدماء المتدفقة أصابعي. ونشقت إيزولد وهي تفك ظهر الميزان، وعضت على شفتها السفلى وهي ترفع عينيها نحوي قبل أن تدير الميزان نحوي لتتسنى لي رؤيته.

وجدتُ كرتين حديديتين صغيرتين مثبتتين في الداخل لتهيئة مقاومة أكبر ضد المؤشر. لقد سبق أن رأيت طريقة الغش تلك في قريتي كراجسماوث، حين كان أبي يزن صيده ليبيعه، بيد أنه لم يستل السكين على أحد عقابًا لهذا الغش، وقد كان حريًّا به أن يفعل ذلك.

شهق لاندر باختناق وهو يقول: "أنا آسف. أنا آسف! أنا فقط كنت بحاجة إلى بعض..."

قاطعته: "لا آبه لحاجتك"، ومددت يدي بجواره ناحية الصندوق، ثم أردفت: "أتوقع أن أجد إنصافًا في التعامل معي، وإن لم أجد ذلك..." - وأخرجت حافظة أخرى من داخل الصندوق - "فستتمنى لو كنت تحريت الإنصاف معي. المرة التالية لن يكون مصابك في يدك".

جعلت أخرج النقود من الحافظتين وأحصي المبلغ المحدد، ولم آخذ أكثر من السعر العادل للوزن الحقيقي. ما كنت لأستلب مالًا من أحد أبناء منطقة المضايق، حتى إن كان غشاشًا، ما لم أكن مضطرًّا إلى ذلك.

عبر الطاولة كانت إيزولد تحدق إلى وجهي، وصدرها لا يزال يعلو ويهبط مع تسارع أنفاسها. ودسست الحافظتين في سترتي واحدة تلو أخرى، ثم مددت يدي نحو مقبض السكين.

عندئذ ترامى صوت عذب ينادي: "سينت"، فنظرنا جميعًا صوب الباب المفتوح خلفنا، حيث وقفت إميليا متكئة بخصرها على إطار الباب، ويداها معقودتان فوق صدرها. وانسدل شعرها الطويل الأشقر المتماوج على كتفها، في حين مال رأسها جانبًا.

قالت: "كنت أتوقع وصولك هذا الصباح"، والتمعت عيناها البنيتان وهما تتركانني وتتحركان نحو السكين التي ألصقت يد لاندر بالطاولة، التي أحيطت ببركة دماء يتألق فيها الضوء.

قلت: "لقد تأخرنا".

انطلقت عيناها صوب إيزولد، ولبثت ترنو إليها هنيهة قبل أن تشبك إبهاميها في حزامها.

وقالت: "هيا. الطعام جاهز"، ورجعت خطوة خارج المحل، فأنار ضوء الشمس وجهها الصبوح قبل أن تشرع في المسير دوننا.

مددت يدي إلى السكين، وأمسكت بالمقبض، وانتزعت النصل المغروز في يده، فانفلتت صيحة حادة أخرى من شفتي لاندر. وضم يده إلى صدره وهو يرتمي على الطاولة، وكادت إيزولد تتعثر وهي تتقهقر قبل أن تمسك بظهر كرسي وتستعيد توازنها.

مررت النصل على قماش سروالي الصوفي السميك، وقلبته مرتين لأنظفه من الدماء. ثم أغمدت السكين في حزامي، ورفعت عينيَّ فوجدت إيزولد تراقبني، وقد ارتسم الذعر على محياها.

ثم قلت وأنا أرفع العلبة الأسطوانية من فوق الطاولة وأعلق حزامها على كتفي مرة أخرى: "حسنًا؟ أأنتِ قادمة؟".

14 إيزولد

لم يلتفت سينت إليَّ وأنا أتبعه إلى أعلى الطريق المنحدر في الجهة المعاكسة للميناء، وكان شعره الداكن رطبًا من أثر تكاثف الضباب، وقد ارتفعت ياقة معطفه ذي الزرقة الضاربة إلى الطيف الرمادي لإخفاء نصف وجهه السفلي، لكنه ثبت بصره تجاه الأرض أثناء سيره.

لقد غادرنا محل لاندر وأنينه يدوي من خلفنا، وقد حملت الرياح أصداء الصوت البائس، فترددت بين الجدران الحجرية. ما زلت أشعر بغصة في حلقي، وكابدت يداي برودة أشد من المألوف.

لم يرف له جفن قط، لم يتردد لحظة وهو يستل تلك السكين ويغرزها في يد الرجل، هكذا في وضح النهار، وباب المحل مفتوح، ولم يهرع أحد لنجدته.

لبثت المرأة التي ظهرت عند مدخل محل لاندر منتظرة أعلى الطريق، وشعرها الذهبي المتموج تعبث به الرياح الآتية من البحر وراء ظهورنا. وكان سروالها مربوطًا برباط يطوق خصرها، وقميصها الأبيض يتماوج حول قدها النحيف.

وبجوارها وقفت عربة خشبية كبيرة من عربات السوق عند نقطة بدأت فيها أعداد المباني تقل، وعمران سوان ينحسر مفسحًا المجال أمام مساحات من التلال المترامية، حتى بدت كأنها لوحة مبسوطة من خلفها، مرتفعات مكسوة باللون الأصفر والأخضر في أنماط دائرية تحت سماء صفحتها شبه زرقاء. ولبثت المرأة منتظرة بصبر في حين داعبت بيدها الخطم الرمادي لأحد البغلين اللذين يجران العربة.

وجلس في مقدمة العربة رجل نحيل أبيض الشعر يرتدي قميصًا أبيض رقيقًا، ممسكًا بيده اللجام. وقد بدا هزيلًا حتى خُيِّل لي أنه لا يستطيع السيطرة على البغلين، وبدا أن بصره ضعيف لا يستطيع تبيُّن الطريق.

أشرق وجه العجوز حين رأى القبطان وقد لاحت ابتسامة عريضة على شفتيه كشفت عن فجوة بين أسنانه الأمامية، وناداه في تحية: "سينت".

فحاول سينت الابتسام بدوره، بيد أن البسمة تألقت في عينيه أكثر مما ظهرت على شفتيه، ورد مناديًا اسم العجوز: "بيري"، دائمًا ما كان وجهه جامد التعابير، وعيناه في حركة مراقبة دائمة من تحت حاجبيه المتصلبين كأنه يتأهب لشيء ما.

قالت المرأة: "كنا ننقل الحبوب إلى السوق، ورأينا السفينة ريفين راسية في الميناء، فقلنا إن نصطحبكما معنا ونوفر عليكما مشقة السير"، ثم عادت عيناها تحومان على وجهي وهي تقول: "أنا إميليا".

أومأت لها إيماءة مهذبة.

لكنها لم تلبث أن حوَّلت عينيها صوب سينت في انتظار توضيح.

قال في اقتضاب: "جرَّافة".

هذه المرة لم يقل جرَّافتي. لم يرقني حين سمعته يستخدم ضمير الملكية في محل لاندر.

قالت إميليا وهي لا تبدو راضية عن هذه الإجابة: "أرجو أن يكون هذا حقيقيًا. فأنا لا أثق بأي شخص لم تخشوشن يداه من أثر الكد". ثم أردفت: "إن كنت تضم بحَّارة جددًا، فلا بد أن أحوالك تسير على ما يرام".

لم يفصح وجه سينت عن شيء مما يختلج في نفسه. إن ما قالته أبعد ما يكون عن الحقيقة. وارتقى العربة ليجلس في الخلف، ثم احتلت إميليا المكان الشاغر بجوار العجوز.

وقالت وهي ترنو إلى التلال على مرمى البصر: "هلمي. إنها وسيلة النقل الوحيدة التي سيتسنى لك استقلالها وقتًا وطيلًا ما دمتِ ستبحرين مع هذا الطاقم".

واتكأ سينت بظهره على سور العربة منتظرًا، كأنه يريد أن يرى ما سأفعله بعد ما حدث في المحل. وأحسست كأنه اختبار ما.

رنوت مرة أخرى إلى المباني ورائي، حيث انحنى الطريق حتى تعذَّرت رؤية محل لاندر، ثم قبضت يداي على جانب العربة بشدة قبل أن أرفع نفسي عن الأرض، وأرفع نفسي إلى داخلها.

عندئذ دوَّت صفعة اللجام على ظهري البغلين، وتلا ذلك تحرك العجلات قبل أن آخذ مجلسي، وانعطفت العربة عن الطريق المرصوف بالحجارة إلى درب ترابي منحنيًا كالثعبان بين التلال. ومن وراء قمة أحد التلال على مرمى البصر رأيت لسانين رقيقين من الدخان المتصاعد، وقد كنا متوجهين نحوهما.

شبكت ذراعيَّ بالجانب الخشبي لأسند نفسي مع ارتجاج العربة أثناء سيرها، واستشعرت قشعريرة باردة جراء تصويب سينت عينيه عليَّ قبل أن أرنو إليه أخيرًا.

ثبُتت عيناه الباردتان في عينيَّ، وهو شيء غير معتاد، ثم تساءل: "ماذا؟".

قلت له وأنا أزدرد ريقي: "لم يكن عليك أن تؤذيه هكذا".

لكن إميليا هي التي أجابت قائلة: "أوه يا عزيزتي. بل كان عليه ذلك".

عزيزتي.

هيَّجت الكلمة صوت والدتي في ذهني بذكريات كريهة، ما جعلني ألوي فمي جانبًا.

لم تكن القسوة غريبة عني، لقد رأيت العنف القاسي في مناسبات شتى، وعادة ما كان ذلك يجري بأمر من هولاند. لكن مثل هذه الأحداث في منطقة البحر المهجور كانت تجري خلف الأبواب المغلقة وفي الخفاء، ولم تكن والدتي تنخرط في مثل تلك الأحداث بنفسها مطلقًا.

لقد بدأت أفهم حقيقة طبعها وأنا صغيرة، كنت في العاشرة من عمري حين أجلسني أبي في الحجرة المُشمسة لأحتسي معه كوب شاي، وأخبرني بما أحتاج إلى معرفته عن والدتي - ألا وهو أنها سوف تختار مصلحة تجارتها دائمًا في المقام الأول. وتجارتها أهم عندها مني، ومنه، ومن كل شيء. وقد كانت تلك الثقة أمرًا خاصًّا بيني وبينه فقط. وخطر لي أنني لو كنت أصغيت إليه، لو كنت أصغيت حقًّا، فلربما حال ذلك دون هلاكه.

لم أحس وهو يخبرني بهذه الحقيقة بأي نوع من الحقد أو الاستياء، لم يلُح أي طيف من الأسى حتى في كلامه. لكنه أرادني أن أعرف، ولم أفهم ما كان يقصده إلا بعد بضع سنوات.

ارتقينا التل الأخير قبل أن تلمس الشمس خط الأفق، لكن الضوء الدافئ صبغ وجه الأرض بأطياف من اللونين الأرجواني والأزرق. واقتربت منا ألسنة الدخان المتصاعدة من المدخنة، وتتبعت بعينيَّ أحد ألسنة الدخان حتى وصلنا إلى منزل حجري صغير يقع على قمة عالية. وحالما انقشعت الغيوم وتعمَّق الضوء البرتقالي استطعت أن أرى ما وراء ذلك المرتفع - مساحات شاسعة مترامية من التلال الذهبية يتماوج زرعها على أثر الرياح الآتية من البحر.

كانت مزروعة بنبات الجاودار.

ورحت أتطلع بانتباه إلى ذلك المنظر، فرأيت عدة مزارعين يراقبوننا من مواقعهم، وارتفعت أيادي بعضهم بالتحية أثناء مرورنا.

كانت المساحة المزروعة بحال جيدة، ومن وراء المنزل شيدت أربع حظائر كبيرة متراصة في نصف دائرة، وكان باب إحدى الحظائر مفتوحًا فرأيت في الحظيرة عربة محملة بعيدان نبات الجاودار. ولاحت الأكواخ المتناثرة على جانب التل كأنها كوكبة من النجوم، إن مساحة شاسعة كهذا لا بد أنها تحتاج إلى ما لا يقل عن عشرين أو ثلاثين مزارعًا.

إن نبات الجاودار هو السبب وراء إبحار تجار منطقة البحر المجهول إلى المضيق أول مرة، إذ مع تنامي مدننا ازدادت حاجتنا إلى الحبوب، وعندما ضاقت الأرض الخصبة بمزارعينا جئنا إلى هنا تفتيشًا عن المزيد.

ويبدو أن التعاون بين سينت وهذه المزرعة يدور حول زجاجات مشروب الجاودار وليس حبوب نبات الجاودار. لا بد من الإقرار، كان هذا دهاء. إن المزارعين لم يكن مسموحًا لهم ببيع محصولهم لأي أحد دون ترخيص، وحَمَلة التراخيص دائمًا ما يكونون تجار منطقة البحر المجهول. لكن لم تكن ثمة قواعد واضحة بشأن بيع مشروب الجاودار ونقله، حيث ملأ الحانات في منطقة المضايق، فقد كانت اللوائح غير مطبقة بقوة في هذا الصدد بمنطقة المضايق.

أصدر بيري صوتًا بضغط لسانه في فمه وهو يسحب اللجام حتى توقفت العربة ببطء أمام درجات متعرجة منحوتة في الأرض، وأفضت تلك الدرجات إلى المنزل الحجري المغمور في ضوء الشمس الذهبي.

ووقف سينت منتظرًا أن أهبط من العربة قبل أن يشرع في المسير.

قالت إميليا وهي تبادر بتسلق الدرجات وترنو إلى الحظائر على يسارنا: "موسم حصاد رائع على الأبواب. ومن المفترض أن يُخزن نتاج ذلك الحصاد في البراميل بعد شهر أو شهرين، ربما".

وتساءل سينت: "وماذا عن النتاج المحصود الآن بالفعل؟".

أجابته بابتسامة: "سيكون جاهزًا بعد ثلاثة أشهر أو أربعة. إن عملية التخمير تسير على ما يرام. وسوف أصطحبك لتراه حالما تأكل ويجري الدم في وجهك مرة أخرى".

ومدت يدها لتلمس مرفقه في بادرة تنم عن ألفة، وعن علاقة وثيقة. وخُيِّل لي كأن سينت يقف في ساحة خلاء، ولكن في لحظة دلفت هذه المرأة إلى تلك الساحة.

رفع بيري مزلاج الباب فانفتح المصراع على اتساعه، حتى عبق الهواء البارد من حولنا بالرائحة الكثيفة للخبز والبطاطا المشوية، فسال لعابي، وازدردت ريقي بحركة عفوية، إذ لم أتناول طعامًا رائحته طيبة هكذا منذ أن غادرت البيت.

ها هي ذي الكلمة تُعاد مرة أخرى، البيت.

دلف سينت إلى الداخل خلف بيري، في حين لبثت إميليا منتظرة عند الباب، وقد تنحَّت جانبًا لتفسح لي مجالًا للدخول. بيد أن تلك النظرة الممحصة كانت لا تزال تلوح في عينيها، وكأنها كانت تحاول استبانة شيء ما.

قلت وأنا أدلف إلى الداخل: "شكرًا".

توسط المكان مائدة خشبية طويلة، وفي أحد الجوانب ظهر المطبخ، بينما في الجانب الآخر اصطفَّت ثلاثة أسرَّة. وتراصت الأواني والأدوات والأرفف في كل مكان على الجدران، واحتلت الكراسي والسلال، وأكوام الأخشاب الموضوعة أمام الموقد كل شبر من الأرضية.

واشتعلت الشموع في كل ركن من أركان الغرفة المستطيلة، وكانت الفوانيس متدلية من العوارض الخشبية، فأضاءت سقف المكان. ولا تزل آخر ذيول الشمس تتسلل عبر النوافذ، لكنها ستختفي في غضون دقائق.

وقفت شابة أمام إناء يغلي، ويتصاعد منه البخار موضوع على موقد يعمل بحرق الحطب، وراحت تقلب ما في الإناء، وهي تسند إحدى يديها على خصرها. وحين وقعت عيناها عليَّ لاح الاندهاش على محياها وهي تقول: "أهلًا".

خرج الرد عفويًّا: "مرحبًا"، وعضضت شفتي بشدة عقب نطقي إياها، إذ بدت الكلمة رسمية للغاية، وطرقت أذني غرابة لكنتي بوضوح.

نظرت الشابة إلى إميليا بمرح، ثم قالت: "أنا تانسي". ثم حوَّلت عينيها صوب سينت، وقالت: "سينت، يبدو أنك تعاني سوء تغذية كما هو العهد بك".

لكنه لم يحر جوابًا، وارتمى على أحد الكراسي عند نهاية المائدة. وتراصت الأوانى والأطباق المصنوعة من الطين الأحمر أمام الكئوس القصيرة، وتوسطت المنضدة زجاجتان مترعتان بمشروب الجاودار، شبيهتان بالزجاجات التي حملها سينت على متن سفينته.

لامس دفء النار يديَّ الباردتين، طويت أصابعي في راحتيَّ، كان المنزل مجهزًا بكل شيء، لكنه لا يشبه المنازل التي اعتدت رؤيتها. كان من المنازل التي رأيتها مرسومة في صفحات القصص الخيالية التي اعتاد أبي أن يقرأها لي، حيث تعيش الفئران في أكواخ صغيرة مضاءة بلهب النيران، أو الجنيَّات اللاتي يسكن أكواخًا تتشكل كنجمة على الساحل. هيَّجت الذكرى نفسي، فازدردت ريقي بصعوبة، وثارت وخزات الدموع وهي تحتشد وراء عينيَّ.

شقت تانسي طريقها حول المائدة، وغرفت الحساء في الأوعية، ثم جلست على الكرسي المقابل لسينت، في حين جلست إميليا بجواره وهي تفتح ياقة قميصها. وكانت إميليا حسناء وصعبة المراس، ولاح أثر الشمس على جلدها وشعرها.

بدت متسلية حين أمسكت بي وأنا أرنو إليها قبل أن تقول: "هاتي الخبز يا تانسي".

فرجعت الفتاة مسرعة إلى المطبخ الصغير قبل أن تعود برغيف مخبوز بالدقيق، وحالما وضعته امتدت الأيدي نحوه.

عندئذ تساءل بيري: "أين كلوف؟".

أجابه: "قصد إلى السوق أولًا، سوف يلحقنا".

قالت إميليا كأنما تحادث نفسها: "السوق"، ثم أردفت: "هل هذا يعني أنك حصلت على هذا الترخيص الذي لم تنفك تتحدث عنه العام المنصرم؟".

قال: "ليس هكذا بالضبط".

همهمت وهي تمد يدها نحو سكينها وتغمسها في طبق الزبدة، ثم قالت: "آه. إن التجارة في السوق دون ترخيص محفوفة بالمخاطر، ألا تظن ذلك؟".

ولاحظت النظرة التي تبادلاها. وعجبت أي صنف من الناس ذلك الذي يجد التجارة دون ترخيص خطأ، وفي الوقت ذاته لا يرف له جفن حين يرى سكينًا مغروزة في يد رجل.
كانت هذه المرأة من طينة سينت وكلوف. من المتعذر فهم الأحجيات حين تحكمها قواعد غير معلنة.

قال سينت: "الترخيص آتٍ".

قالت إميليا: "بالطبع"، ولم تبدُ مقتنعة، في الواقع بدا الأمر كأنها تتعمد استفزازه.

لكن سينت لم يبدُ منزعجًا من ذلك، وعقَّب: "ننتظر الحصول عليه في أي يوم خلال هذه الفترة".

قالت: "إنك تردد ذلك منذ شهور. لديَّ مستودع مليء بالجاودار يمكنني بيعه لأي من أولئك التجار الأوغاد في سوان، لكنني أدخر المخزون لك".

عندئذ قال بيري بنبرة تأنيب: "تحلَّ بالتهذيب يا إميليا".

حدجتني بحاجب مقوَّس وتمتمت: "إنه أحد الأعمام ويعتقد أنه أبي".

فاكتفى بيري بابتسامة عريضة.

وصعدت بصرها فيه قبل أن تعود عيناها إليَّ لتسأل: "وأين عثروا عليكِ؟".

جلست تانسي بجواري وهي ترفع تنورتها لتلف ساقًا حول الأخرى، وبدت مستمتعة بالاستجواب، وقد داعبت شفتيها ابتسامة خفيفة.

أجبتها وأنا أملأ ملعقتي بالحساء: "ديرن". وقاومت رغبتي في ارتشاف الحساء من حافة الملعقة، وعدلت عن ذلك إلى وضع الملعقة بأكملها في فمي كما رأيت الناس يفعلون في الحانة.

وعبست إميليا وهي تسأل: "ديرن، هاه؟ فكيف تتحدثين بلكنة ذوي الدم المملح هذه؟".

أجبت الإجابة التي كانت تقصدها من سؤالها حقًّا، وكان عليَّ نطقها أول مرة: "أنا من باستيان". لم تبدُ لي أنها امرأة تقبل أنصاف الحقائق.

عندئذ حوَّلت عينيها صوب سينت، وقالت: "تجارة في السوق، وضم ذوي الدم المملح..."، ثم أردفت: "لقد كنت مشغولًا في الآونة الأخيرة".

قال دون أن ينظر إليَّ: "أي طاقم محترم يكون فيه مَن يتولى مهمة التجريف".

حبست إميليا ضحكة وهي تقول: "أوه، صرتم طاقمًا محترمًا الآن".

أما تانسي فلم تحاول إخفاء ضحكتها ولو قليلًا، لكن صوتها ضاع وهو خارج من فمها المليء بالحساء. وتبعها بيري ضاحكًا هو الآخر.

لم يكن هذا ما كنت أتوقعه، حين قال سينت إنه يرسو هنا ليلتقي بصانعة الجاودار، إذ لم تكن تلك مجرد محادثة عمل، إنما حملت في طياتها تاريخًا، بل آثار صداقة.

ترامى إلى مسامعنا دبيب أقدام على عتبات الدرج في الخارج، وتحوَّلت أوجه الجميع إلى الباب قبل أن ينفتح ليكشف مِن ورائه عن هواء الليل الذي كان قد حل، وظهر كلوف في المدخل، وخلفه كانت السماء معتمة، في حين انسدل شعره الأشقر على أحد جانبي وجهه، وحمل على ذراعه صبية ذات شعر متماوج لا يربو عمرها على خمسة أعوام أو ستة.

قالت الصبية بابتهاج: "وجدتُه!".

ابتسم كلوف وهو يميل الفتاة إلى الأمام كي يتسنى لها النظر إلى إميليا من تحت ضفائرها، وقال: "أرى أنكم بدأتم من دوني".

لقد كان الشبه بينهما قويًا جدًا بين إميليا والصبية، شبه لا يكون إلا بقرابة الدم، ولكن فارق العمر بينهما كبير، بحيث ينفي فكرة أنهما أختان، فأدركت أن إميليا والدتها.

ثم قالت تانسي بنبرة عتاب: "ها هي ذي. لقد ناديت عليكِ منذ أكثر من ساعة"، ونهضت لتأخذ الصبية من كلوف، لكن الصبية لم تلبث أن أفلتت نفسها، وانطلقت إلى سينت.

لم يكد يُظهر حفاوة بالصبية، ورفع ذراعه عن المائدة كي يتسنى للصبية الجلوس في حجره. وتلاشى انقباض عضلات فكه الآن، وكذلك لم تبدر منه محاولة للحفاظ على مسافة أكبر بينهما، وبدا الأمر مألوفًا كأنها جلست في حجره مئات المرات.

ثم دس يده في سترته وأخرج صَدَفة برَّاقة صغيرة، فاتسعت عيناها وتلقفتها من بين أصابعه بحركة سريعة. ولاحظتُ في وهلة شبح الابتسامة على شفتيه قبل أن تتبدد.

سحبت إميليا كرسيًا لكلوف بجوارها، وانشغل هو بشق قطعة من الخبز قبل أن يجلس. وبدا الشعر في وجهه كأنه غبار ذهبي في ضوء الشموع، فبدا أصغر عمرًا.

عندئذ قالت إميليا: "كنت أتساءل عما إذا كان أولئك التجار في السوق قد التهموك".

لم يكن التعليق بريئًا، بل كانت تتحرى، راغبة في معرفة ما الذي كانوا يتاجرون به. حتى إن كان ثمة تاريخ بينهم، فقد كان من الجلي أنه لا تزال ثمة أسرار لا يكشفها بعضهم لبعض.

وجعلت الصبية تؤرجح قدميها الحافيتن تحت المائدة، وراحت أصابع قدميها تنقر ساقي مع تململ سينت في جلسته. وحين رفعت بصري وجدت عينيها تحومان فوقي، وفمها يمتلئ بالطعام، فيما يسيل الحساء على ذقنها.

ثم قالت وهي تمسح ذقنها بظهر يدها: "أنا هيزل".

ابتسمت وأنا أتتبع بعينيَّ أثر الاتساخ الممتد على خدها حتى ذاب في منبت شعرها. كانت صبية جامحة، شخصية جديرة بالوجود في إحدى الحكايات التي حكاها لي أبي قبل النوم.

عندئذ قال لها سينت اسمي بصوت هامس: "إيزولد".

بدا التردد في صوته، كأنه كان يجرب نطق الاسم بصوته للمرة الأولى. وقد نطقه بسلاسة وانسيابية كتلك التلال التي توارت الشمس خلفها. وداعبت نغمة الاسم نفسي حتى عضضت على شفتي السفلية.

انتقل الحديث من الأخبار في ديرن إلى الأخبار في سوان، وتناولوا شأن براميل الجاودار، فلم أعرف تفسيرًا لما يقال. ولكن على الجهة المقابلة لي ضيَّقت هيزل عينيها ببطء حتى صارت نظرتها حادة، ولاح التركيز في عينيها، وقطَّبت حاجبيها وهي تقلب قطعة الخبز في يدها.

ارتكزتُ بمرفقي على المائدة وأنا أراقبها.

وفجأة سألتني: "ما هذا؟".

تساءلت: "ماذا تقصدين؟".

زمَّت شفتيها قبل أن تضع الخبز على المائدة، وهبط بصرها إلى جيبي.

ثم همست: "الحجر".

تجمدتُ، وباغتني شعور كأن حجر قلب الليل الكامن في جيبي صار وزنه خمسين كيلوجرامًا. لكن الحافظة الصغيرة التي تحوي الحجر كانت مُحكمة الوثاق، ومدسوسة في

ملابسي، فلم يكن بوسعها رؤية الحجر.

كان بوسعها استشعاره.

أخذت عيناي تتسابقان في تفحص الوجوه المحيطة بالمائدة، وتسارعت قشعريرة تغزو جسدي، لكنني وجدتهم مشغولين في حديثهم، كلهم ما عدا سينت.

قال سينت بصوت خفيض: "دعي عنك هذا يا هيزل".

التقطت قطعة الخبز التي كانت قد وضعتها على المائدة، واحدودب كتفاها كأنها جرو أُهين، ولكن كل بضع لحظات كان رأسها يلتفت بعفوية صوب الحجر، كأنه مغناطيس يجذب بصرها.

لم أنطق بشيء، ولم أرغب في لفت أي انتباه أحد إلى الحجر في جيبي. إن كان سينت قد طعن رجلًا من أجل زمرد أحمر، فلست أريد أن أتصور ما سيفعله في سبيل غرض لا يقدَّر بثمن مثل حجر قلب الليل، لكن لم يبدُ أن فضوله ثار بشأن ما قالته هيزل، وحدثتني نفسي بأن الباعث على ذلك أنه لم يكن يريدني أن أنتبه إلى حقيقة أنها اكتشفت وجود الحجر دون تفسير معقول.

احتك كرسي إميليا بالأرضية وهي تدفعه لتنهض، وألقت منديلها على طبقها الفارغ. لم يرفع البقية أبصارهم بل ظلوا يركزون مع حديث كلوف بشأن شيء يتعلق بالحصاد التالي. لكن إميليا وسينت تبادلا نظرة ذات مغزى دون نطق كلمة، تلا ذلك أن نقل سينت هيزل من حجره كي ينهض هو الآخر.

تبعها صوب الباب، وأغلقه خلفه، وتحرك سوار قميصه تحت كم سترته فرأيت القماش مصطبغًا باللون الأحمر. فساورتني قشعريرة فزع وأنا أستحضر مشهد بركة الدماء على منضدة محل لاندر.

وأنا أنظر إليه الآن لا أستطيع تمييز الفرق بين سينت الذي طعن الرجل وبين سينت الذي جلس حيالي على المائدة وشبح ابتسامة تترقرق على شفتيه وبريق ضوء النار يلتمع في عينيه.

ربما لم يكن ثمة فرق أصلًا.

15 سينت

ثمة ذكريات مشوَّهة مقترنة بصوت الرياح وهي تداعب عيدان نبات الجاودار، وقد كانت تلك الذكريات تستثار من مكامنها في كل مرة نأتي فيها إلى هنا.

كانت كراجسماوث قرية صيد شحيحة الموارد تقع شمال ديرن، وكانت على شفير منحدرات تطل على البحر بزوايا حادة كأنها جدار أسود. لم يكن نبات الجاودار يُزرع هناك، بيد أن الأراضي العشبية الشاسعة انبسطت على مساحات مترامية فوق التلال. والصوت الذي أسمعه في هذه الحقول كنت أسمعه هناك فيها، صوت كأنه هدير مياه سريعة التدفق.

وقد كان الصيد عمل أبي، وكذلك عمل جدي من قبله، لكنني عرفت منذ صغري أنني أريد الإبحار بإحدى تلك السفن التجارية التي كانت تمر بنا ونحن نسحب شباك الصيد.

وكذلك أراد أبي المصير ذاته لي.

مدت إميليا يدها ولمست رءوس العيدان ونحن نشق طريقنا صوب الحظيرة، لقد ورثت مهنة زراعة نبات الجاودار عن سابقيها، وها هي ذي تزرع الحقول ذاتها التي زرعتها جدتها، ولكن عائلتها كانت تقتصر على بيع الأجولة المعبأة بحبوب النبة في سوق سوان لتجار منطقة البحر المجهول، أما إميليا فهي أول من شرعت في استقطار بعض الحبوب في براميل لتنتج مشروب الجاودار بنفسها.

كان الحصاد قد بدأ بالفعل، ولا يزال المزارعون منحنين وهم يعملون في الحقول، والشمس في مغيبها تسحب آخر ذيول الضوء. جزء من الحصاد سوف يعبَّأ في صناديق لكي يُباع لتجار منطقة البحر المجهول، أو لكي يُشحن في السفن إلى سيروس، والباقي سوف يشق

طريقه إلى البراميل. وفي النهاية إذا جرت الأمور على ما يرام، فسيعود ربح تلك البراميل عليَّ أنا وإميليا.

قالت وهي تقتلع عود جاودار أثناء سيرها وتسحقه في راحة يدها: "لا تبدو بخير يا إلياس".

قلت بنبرة لا تخلو من سخرية: "شكرًا".

قالت: "أنا قلقة عليك".

قلت: "لا تقلقي".

وتبعتها ونحن ننعطف عند أول مبنى مشيد بالألواح الخشبية قاصدين الباب المواجه للحقول، ثم أمسكتْ بالحلقة الحديدية وهي ترفع بصرها نحوي.

وتساءلت: "ماذا؟"

قلت بصوت خفيض: "ينبغي أن تتوخي الحذر. بشأن هيزل".

اضطربت عضلات فكها لحظة قبل أن تعود إلى طبيعتها. لقد حذرتها من الشائعات التي تجوب منطقة المضايق بشأن اختفاء خبراء الأحجار الكريمة. وعلى متن سفينتي واحدة منهم. كل ما يتطلبه الأمر مزارع واحد غير مخلص يُبلغ شخصًا ما في الحانة بشأن هيزل، وتكون الكارثة.

عبثت إميليا بالحبوب بين أصابعها، ولازمت الصمت. كنت أعرف أنها قلقة حتى إن تظاهرت بخلاف ذلك.

ثم قالت مغيِّرة الموضوع: "وعليك أنت أيضًا توخي الحذر بشأن تلك الجرَّافة".

لكنني لم ألتقط الطعم، وقلت: "أنا جاد".

قالت: "وكذلك أنا".

قلت: "إننا نأتي إلى سوان بأفراد جدد في طاقمنا في كل مرة تقريبًا".

قالت: "لكن لا تحضرهم إلى هنا مطلقًا".

قلت: "أخبرتك، إنها مجرد جرَّافة".

لم تُلح إميليا. إن العهد بها أنها لا تُظهر أي فضول حيال الشئون الخاصة بطاقمنا، بيد أنني لاحظت عينيها وهما تركزان على إيزولد أكثر من مرة منذ أن رأتها في محل لاندر.

سألتها: "كيف تجري عملية تقطير مشروب الجاودار؟".

أجابت: "تسير على ما يرام".

فتحث الباب. وفي الداخل تراصت عشرات البراميل على رفوف حديدية، وكلها لا تحمل شعار الصانعة التي صنعت المشروب. كان ذلك جزءًا من اتفاقنا منذ البداية، حماية لإميليا من جهة، ومن جهة أخرى لا أريد أن يعرف أي أحد مصدر المنتج الذي أبيعه، حتى يقصدني كل من يريد الحصول عليه.

وأخذث أحد الأكواب الصفيحية المعلقة على الجدار قبل أن تتجه إلى برميل في الخلف. وفتحت الصنبور فندَّ صوت قرقرة مع تدفق السائل ذي اللون الكهرماني الضارب إلى الحمرة، وقد فاحت رائحة المشروب في الجو قبل أن تعطيني الكوب.

ثم قالت وهي تومئ برأسها لي لأشرب: "لعلها أفضل شحنة أنتجناها حتى الآن. لديَّ أربعون صندوقًا تنتظرك لتحميلها".

رفعت الكوب، وتشممت ما فيه قبل أن أتجرع الجاودار، فاشتعل اللهيب فوق لساني، وانطلق إلى حلقي قبل أن ينتهي به المطاف إلى بطني. وامتلأ أنفي برائحة الخشب والدخان. وكانت محقة، هذا المنتج جيد.

لو كنت أخبرت أبي بأنني سأتاجر في مشورب الجاودار بعد حصولي على سفينتي الخاصة لسخر مني، لم يكن ليصدق ذلك مطلقًا. ففي صغري كان الجاودار هو المشروب المنزلي الذي تجرَّعه الصيادون لطرد البرد من أجسادهم بعد أن يقضوا أيامًا في الماء. وفي تلك الآونة كان مشروب المِزر يحتل الحانات، لكن مع تزايد عدد المتنقلين بين الموانئ، ازداد الطلب على مشروب الجاودار في الحانات. والآن صار ذوو الدم المملح أنفسهم صاروا يشربونه.

وسألتني وهي ترفع حاجبها: "متي يمكنني وضع اسمي على الزجاجات؟".

قلت: "قريبًا".

أعدت لها الكوب، فوقفت في مكانها منتظرة، ثم قالت: "العهد بك أنك تدفع لي قبل أن تتناول الطعام على طاولتي"، ثم هبطت عيناها إلى موضع الحافظات التي تحوي نقودًا تحت سترتي، وسألت: "هل ستخبرني ما الخطب أم أفترض الأسوأ؟".

أخذت نفسًا عميقًا وأنا أمرر يدي في شعري. هذه هي اللحظة التي خشيتها منذ فقدت الأحجار الكريمة؛ لأن وضعي المالي كان غير مستقر، وينذر بخطر داهم. إننا نحتاج إلى إميليا إذا أردنا حمل بضائع على متن السفينة أستر للمتاجرة بها، وتأمين مسارنا التجاري. لكن كلوف كان محقًّا، إميليا لن ترغب في الانخراط في هذا الوضع الشائك.

ثم قلت وأنا أحاول تلطيف الكلمات كي لا تخرج بالثقل الذي أحسسته في نفسي: "إننا نعاني عجزًا ماليًّا هذه المرة".

سألتني: "ماذا تقصد بعجز مالي؟".

سرحت ببصري من فوق رأسها تجاه البراميل، وقلت: "يحدث هذا أحيانًا".

لكن إميليا لم تنخدع بقناع الهدوء الذي أظهرته، وقالت: "أخبرني".

لقد استغرق الأمر ستة أشهر لإقناعها بالتعاون معنا، لكن كلوف وأنا لم نطلعها على كل شيء بشأن عملنا. لم تكن تدري شيئًا عن هنريك أو الأحجار المزيفة، ولو عرفت ذلك، ما كانت لتوافق مطلقًا على بيع الجاودار لنا. لقد أطلعناها على ما نرى أنها بحاجة إلى معرفته.

قلت مفصحًا لها عن جزء من الحقيقة: "مجرد تجارة عاثرة".

قالت: "هل تتوقع مني تصديق أن هذا لا علاقة له بتلك الفتاة؟".

نظرت إليها نظرة ممحصة، وتساءلتُ: "ماذا؟".

أردفتْ: "طيلة عامين تستعين بأغلظ البحَّارة في منطقة المضايق، ثم تأتيني اليوم رفقة فتاة تبدو كأنها نشأت في بيت زجاجي، وللمرة الأولى تتخلَّف عن السداد. أرى أن اقتران هذين الأمرين ليس مصادفة".

اتكأت على البرميل المجاور لنا. فلن أكذب عليها. إنها أذكى من أن ينطلي عليها الكذب. لكنني أيضًا لم أكن على يقين بمدى فداحة المتاعب التي ورطتني فيها الجرَّافة، ولن أتظاهر بأنني ملم بالأمر.

وتابعت تسألني: "ما الذي يجري حقًّا يا إلياس؟".

تنهدتُ، وثقل هذا الاسم جعل من الصعب النظر إليها، كانت إميليا من القلة القليلة التي عرفت هذا الاسم قبل أن يتوارى من حياتي. "نحتاج إلى صناديق لبيعها في سيروس وديرن، لكن لا يمكنني دفع ثمنها لك. ليس الآن".

قالت مستوضحة: "جاودار لا يمكنك دفع ثمنه. هذا كل ما تحتاج إليه، صحيح؟".

أومأت بالإيجاب.

بدر منها صوت ينم عن سخرية.

وقلت: "تعرفين أننا سندفع لك الثمن".

غيَّرت نبرتها، وتعمقت خضرة عينيها: "لست أعرف أي شيء. لقد أبرمت معك اتفاقًا يا سينت، في وقت لم يكن ليقبل أحد غيري التعاون معك. ولولاي ما كنت لتبقى مبحرًا الآن".

قلت: "أدري ذلك".

قالت: "وإذا كنت لا تستطيع الوفاء بجانبك من هذا الاتفاق، فلن أفي بجانبي منه".

انتصبتُ في وقفتي منتظرًا أن تنهي تهديدها. ولم يكن ذلك تهديدًا مبطنًا. كنت أنا من أوحى لها ببيع مشروب الجاودار، لكن الآن لديها السبل لبيعه من دوني. وكانت تعلم أنه في اللحظة التي يبدأ فيها التجار في الحصول على تراخيصهم التجارية في منطقة المضايق سوف يصطفون طلبًا لمنتجها. وللمرة الأولى كانت لها اليد العليا في تعاملاتنا، وأرادتني أن أعرف أنها سوف تستغل ذلك.

وأردفتْ: "حين نبدأ إسداء صنائع المعروف بعضنا لبعض تكون النهاية. أنت تعرف ذلك، صحيح؟".

كنت أعرف ذلك. وشعرت بنفاد صبرها وتسامحها، وقد كانت متسامحة معنا فترة طويلة. وهي محقة في كلامها.

قلت: "في المرة التالية التي أراك فيها سوف يكون معي الترخيص".

قالت: "كأنني لم أسمع ذلك مائة مرة".

فقلت وقد لاح اليأس في نبرتي الآن، وبدا صوتي كأنه لشخص أصغر عمرًا: "إنني أعني ذلك حقًّا هذه المرة".

وللمرة الأولى منذ أمد بعيد أشعر بأن صلابتي التي رسختها تجاربي تتصدع. إميليا أيضًا أكسبتها التجارب صلابة. لقد كنا في حاجة إليها، لكن كلا الطرفين الآن يحاول النجاة في خِضم الصعوبات المتزايدة في المنطقة، فمنطقة المضايق تتغير، وكلانا أراد نيل نصيبه في العالم الجديد.

لانت تعابير وجهها وتنهدت، ورفعت يدها لتشبِّك أصابعها في ذراعيَّ المطويتين، ثم قالت: "نحن صديقان يا سينت. والصداقة شيء نادر في عالم كهذا. هذا هو السبب الوحيد الذي سيدفعني إلى التظاهر بأنك قد دفعت ثمن الجاودار".

خالجني ألم في حلقي، وشعرت بالخجل حيال الارتياح الذي انبعث في نفسي جراء هذه الكلمات.

وقلت: "إنني مدين لك".

لقد اتصلت أسبابنا منذ قرابة السنوات الثلاث، وفي تلك الفترة أصبحنا صديقين. وقد ربط بيننا ما هو أكثر من الصداقة أيضًا. عقب وفاة فيكتور والد هيزل قضيت بعض الليالي في سرير إميليا، وقد أحسست بطيف من تلك الليالي في لمستها لي الآن. لكن ما دفعنا إلى تلك الحميمية كان الوحدة فقط، لا شيء آخر.

ثم سألتها وأنا ألقي نظرة على باب الحظيرة المفتوح: "وماذا عن بيري؟".

قالت: "لا يحتاج إلى معرفة ذلك. لا هو ولا غيره".

أومأتُ متفهمًا.

وتابعتْ قائلة: "ولكن هذه مرة لا ثاني لها يا سينت".

لم يفتني أنها عدلت عن مناداتي بإلياس. لقد كان اقترابها مني لدرجة مناداتي بإلياس هو ما أوصلها في الأساس إلى التورط في هذه الفوضى معي.

سلكنا طريق العودة إلى المنزل، وقد توارت الصخور عن البصر في طيات الظلام، في حين تناثرت النجوم على صفحة السماء الخالية من القمر التي تنبسط فوق الأكواخ الموزعة على التلة، وينبعث منها ضوء الفوانيس. وسحبت إميليا غليونًا من سترتها وملأته بنبتة البوصير، وأشعلته، فأطلق وهجًا كهرماني اللون، وعبق الهواء برائحة الدخان.

ثم قالت ونصف وجهها فقط يغمره ضوء الشموع المنبعث من النافذة: "هذا الحرص على المكسب ليس من أجلي فقط"، واتجه بصرها صوب المائدة ليستقر على هيزل التي جلست في الكرسي الذي كنت أجلس عليه، وانكبت على طبقها لتنهي ما فيه، ثم أردفت: "إنه من أجلها".

عرفتُ ما قصدَته. إن النقود توفر حماية. وقد تمكنت إميليا من الحفاظ على استمرار العمل في مزرعة والدها عقب وفاته، وواصلت ذلك حتى عقب وفاة فيكتور. إن المزرعة تنتج الحبوب بمعدل غير مسبوق، والحق أنها تتقن عملها. لكن إن أرادت التمتع بالقوة التي تخيف الناس من التعدي عليها، فإنها تحتاج إلى التوسع، وعدم حصر نشاطها في البيع لتجار منطقة البحر المجهول المتنافسين على محصولها.

ووقعت عيناي على إيزولد جالسة بجوار المائدة، فبدت العنصر الوحيد الغريب في هذا المنزل، والحق إنها تبدو كأنها لا تنتمي إلى أي مكان. كانت حريصة في طريقة تحدثها وحركتها حرصًا يشوبه حذر، كأنها تتعلم السير فوق زجاج. لكنها ليست خائفة. ولا أزال أحاول استكشاف ما يعنيه ذلك بالضبط.

ارتكزت بمرفقيها على المائدة وهي تقضم قضمات صغيرة، وتمسح زاوية فمها بمنديل كتاني تضعه في حجرها، مثل هذه اللفتات الصغيرة هي التي وشت بأنها من ذوي الدم المملح. وكان من الجلي أيضا أنها قادرة على إنجاز المهمات المنوطة بها. لقد نمَّ سلوكها عن

أنها فتاة كريمة الأصل، ولكن في اليومين اللذين قضتهما على السفينة ريفين أظهرت أنها قادرة على الإبحار، مثل أي شخص آخر. أخمن أنها كانت خبيرة أحجار كريمة من عائلة مرموقة، ثم صارت جرَّافة، ربما زال مجدها وسقطت من عليائها. لكن ما من شيء في هذا يبدو منطقيًّا.

وفجأة قالت إميليا: "عِدني بألا تَجُر ورطتك شرًّا إلى بابي".

التفت إليها بوجهي، وعثرت على عينيها تحت جنح الظلام، لا يلوح فيهما أي أثر لدعابة الآن، ولا مغزى ماكر. كان مجرد طلب، بصفتها صديقة.

فقلت: "أعِدُك".

16 إيزولد

عقدت إميليا اللجام حول دكة سائق العربة قبل أن تقفز هابطة على الأرض، فبدت أقصر قامة من سينت بشبر تقريبًا. وكان شعرها مربوطًا بمنديل غير محكم وطويل، فانفلتت الخصلات من تحته، ما جعلها تبدو أشبه بهيزل في الليلة الفائتة.

لم ألبث أن لاحظت ما اعترى سينت من تململ حين وطئت قدماه اليابسة، وقد اعتراني أنا أيضًا توتر. وللمرة الأولى أقضي ساعات الليل على اليابسة منذ مغادرتي باستيان، وها نحن أولاء نعود أدراجنا إلى البحر، حيث تهدأ نفوسنا أكثر فيه.

وتعيَّن على تانسي أن تحتجز هيزل للحيلولة دون لحاقها بالعربة ونحن نمضي مبتعدين عن الكوخ الحجري عند الفجر. إن الصبية خبيرة أحجار كريمة، أنا على يقين بذلك. ولقد لبثت مستيقظة ليلًا بينما استغرق سينت في النوم قريبًا مني، وأنا أشاهد ضوء النجوم يكسو الجو بلون أزرق ضارب إلى الفضي، وأتساءل عن مصير هذه الصبية. لقد اختفى جميع خبراء الأحجار الكريمة في باستيان، وكذلك اختفى مساعدو أولئك الخبراء، وقد تضاربت الأقوال في كل ميناء عن مكان اختفائهم. ومن ثم لا يوجد أحد يتمتع بالكفاءة لتولي مهمة تعليم تلك الصبية، ولذا كنت أشك في أنها ستتعلم استغلال موهبتها، ولعل ذلك يكون في صالحها.

لقد وُلدت هيزل في عالم مختلف عن عالمي وعالم والدي، ولعلها في هذه المزرعة تكون أكثر أمانًا من أي مكان آخر.

اصطكت زجاجات الجاودار في الصناديق أثناء عمل كلوف وبيري على إنزالها، وانهمك الرجال على الأرصفة البحرية في نقلها إلى السفينة ريفين. وراحت إميليا تراقبهم بعينين يلوح فيهما الحذر.

وجعل سينت يرنو إليها مليًا من فوق العربة. أيًا كان ما وقع بينهما الليلة الفائتة، فقد ألقى بظلاله على أجواء المنزل، وغيّر الأريحية التي كانت بادية في تعاملهما. لقد بدا عليه التغير حين عاد من الحظيرة، ربما أقول بدا أكثر هدوءًا، ولكن أكثر ارتياحًا بطريقة ما أيضًا.

سحبتُ وعاء الطعام الذي أعطتنا إياه تانسي من مؤخرة العربة، في حين أومأ سينت إلى إميليا بإشارة وداع. أما هي فراحت ترنو إليه وهو يمضي هابطًا الدرجات المفضية إلى الميناء، وحين شرعت في السير وراءه قبضتْ على ذراعي.

ومدت يدها، وأمسكت بيدي موجهة راحتي صوب السماء، وجرت بإبهامها على الخطوط التي انتثرت على الجلد الخشن. لقد اخشوشن الجلد على طول قاعدة أصابعي، وعلى بطن إبهامي جراء عملي طيلة سنوات في الشعاب المرجانية.

ثم بدا أنها اكتفت، فأفلتت يدي، وسحبت ذراعها، وقالت: "احرسي هذين الرجلين يا جرَّافة".

ابتسمتُ ابتسامة متكلفة، وأنا أتوقع منها أن تبادلني ابتسامة أيضًا، بيد أنها لم تفعل. فلم تكن تلك الفتاة التي بدت حادة الذكاء تمزح، بل كانت جادة في كلامها.

واقتربت خطوة، وقالت: "إنني أعني ذلك".

ولاح في نظرتها أنها تهتم بهما اهتمامًا نابعًا من حس أمومة أو أخوة، لم يكن ذلك حرص تاجرة أنانية قلقة بشأن التاجر الذي ينقل بضاعتها، ولم تكن طريقة مراوغة لحماية مصالحها. لقد اهتمت لأمرهما - سينت وكلوف.

وتابعت: "سوف ينكران ذلك، حتى إن كانت حياتهما على المحك، لكنهما بحاجة إلى حارس".

أردت أن أخبرها بأنني لست حارسة، وأنني أحاول استكشاف كيفية حماية نفسي. لكن على الأرجح أنني لن ألتقي بهذه المرأة مرة أخرى، ولم أرَ نفعًا يجره ذلك التوضيح على أي منا.

وقلت لها الحقيقة: "إنني على متن السفينة لأنتقل إلى سيروس فقط".

لاحت ابتسامة ماكرة على شفتيها وهي تقول: "إذن، لست جرَّافة".

قلت: "أنا جرَّافة".

أشارت بإصبعها إلى السفينة ريفين، وقالت: "حسنًا. هناك سفينة، أو على الأقل بقايا سفينة، وبدايات طاقم بحَّارة".

رنوت إلى الضباب الذي يسري فوق السفينة ريفين، وشاهدت شبح كلوف يمرق على ظهر السفينة، ثم قلت: "أعتقد أن أيام غوصي لملء حافظات التجار بالنقود قد انقضت".

أحدثت إميليا بلسانها صوت فرقعة، وقالت: "أخشى أن ذلك التاجر يكابد صنفًا مختلفًا من البلاء"، وراحت تحدق ببصرها صوب سينت الذي كان واقفًا خلفي على الرصيف يشرف على تحميل صناديق الجاودار ببكرات الرفع.

ثم عادت أدراجها إلى العربة، وقد لمحتها وهي تحل عقدة اللجام، وسرى في يديَّ خدر وهما ممسكتان وعاء الحساء، فيما كنت أحاول اتخاذ قرار بشأن الإفصاح عما يختلج في نفسي منذ الليلة المنصرمة، وأخيرًا قلت: "سوف...".

توقفت إميليا، ونظرت إليَّ من فوق كتفها.

وأردفتُ بصوت هامس: "سوف يصبح من الأسهل عليها إخفاء الأمر بعد عام أو عامين".

حنت إميليا رأسها جانبًا وهي تنظر إليَّ، وتسأل: "على مَن يعود الضمير؟".

قلت: "هيزل".

تجمدت إميليا فور نطقي اسم ابنتها.

وتابعتُ: "سوف يزداد تمكنها من إخفاء الأمر، أقصد تمكنها من عدم إبداء ردة فعل تجاه الأحجار الكريمة حين تستشعر ذبذباتها".

أفلتت اللجام، وهبطت بقدمها على الأرض مرة أخرى، وراحت عيناها تحدقان في عينيَّ وكأنها تحاول اكتشاف ما إذا كان ثمة تهديد يكمن وراء ما قلته.

وأردفتُ: "الوضع أسوأ بين جنباتها، الصوت أعلى وأصعب من أن تتجاهله. وتتفاقم صعوبة الأمر في السوق، لو كنت مكانك ما اصطحبتها إلى هنالك مطلقًا".

تلاشى حس المرح الذي لاح عليها قبيل لحظات، وتساءلتُ في وهلة عما إذا كانت تفكر في استلال سكينها. بيد أنها لبثت صامتة تنتظر مني أن أُكمل حديثي.

أكملتُ: "سيكون الأنفع لها أن يتولى أحد تعليمها".

سألتني بنبرة ذات مغزى: "هل تعرضين أن تتولي أنتِ ذلك؟".

هززت رأسي نفيًا، وقلت: "كما أخبرتك، أنا متجهة إلى سيروس".

لقد تذكرت كيف كان الأمر حين كنت في سن هذه الصبية؛ كنت محاطة بشيء في الجو لا يشعر به سواي. الطنين المستمر والهمهمة الدائمة، ذلك الضجيج الذي لم يخفت قط. لكنني حظيت بأبي. وهيزل تحظى بأم بدت قادرة جدًّا على حمايتها، لكن هذا لا يغني عن وجود مَن يتولى تعليمها. ثم مدت إميليا يدها نحوي فصافحتها.

وهمستُ: "شكرًا".

عاد بيري مرتقيًا الدرج، وأغلق الجزء الخلفي من العربة، وانسلت أصابعي من يد إميليا التي وثبت مرة أخرى للجلوس على دكة السائق.

ثم التفت بوجهه ناظرة إليّ، وقالت: "لا تغرقي يا جرَّافة".

ابتسمتُ وأنا أرفع غطاء الرأس الملحق بسترتي، وشرعت في هبوط الدرج قبل أن أنطلق على الرصيف حتى بلغت مرسى السفينة ريفين، ثم ارتقيت سلم الحبال حتى وصلت إلى سطح السفينة، فوجدت كلوف معتليًا الصاري الرئيسي يحل حبال الشراع، وعلى السطح العلوي وقف سينت، وقد تساقطت خصلات شعره الداكن على وجهه، وهو يعمل على تثبيت الرافعة الحديدية.

رفعت بصري صوب كلوف، وسألته: "أين العاملون؟".

أجاب: "يبدو أن جوليان وماتيو وجدا الحياة على ريفين حرارتها مرتفعة بعض الشيء".

وعدت أتساءل في تحيُّر: "رحلا؟".

قال وهو يقفز من الصاري ويهبط بجواري: "ليست أول مرة يختفي فيها أفراد طاقمنا في ميناء".

سألته: "فمن سيتولى مهمة الإبحار بالسفينة؟".

أجابني: "نحن".

حدجته، إذ إن استعماله ضمير الجمع كان يرمي به إلى أنني ضمن طاقم العمل الآن.

وقلت: "أنا لا أعمل مجانًا".

قال قبل أن يغمز لي: "حسنًا، من الخير أننا دفعنا لك أجرك مقدمًا بوجبة ساخنة وسرير دافئ في منزل إميليا".

إذن، هذه هي الطريقة التي سيلعبون بها، لعبة تبادل الخدمات.

عندئذ رفعت الوعاء بيننا، وحين أدرك ما أريده نفخ، وأخرج المفتاح من جيبه، وانطلقنا نحو فتحة الممر شديد الرطوبة المفضي إلى مخزن الشحن. ثم دس كلوف المفتاح في الباب وفتحه. لقد تخلى العاملان عن مكانهما في الطاقم، ولكنهما لم يكلفا نفسيهما عناء إخراج ناش قبل مغادرتهما.

وحدثتني نفسي بأنه يستحق ذلك بعد أن هدد بشق حلق ماتيو.

حين انفتح الباب رأيت ناش جالسًا فوق برميل مغلق وذراعاه معقودتان على صدره.

وقال: "تأخرت كثيرًا".

زمجر كلوف وهو ينظر إلى زجاجة الجاودار الفارغة على الأرضية، وقد عبق المخزن كله برائحتها: "ما هذا بحق الجحـ....".

غمغم ناش وهو ينزلق إلى الأرضية: "يجب أن يتناول الإنسان شيئًا".

وحين رأى الوعاء في يدي تهللت أساريره.

سلمته له، ففتح غطاء الوعاء، فأخذ يتشمم الطعام، ثم سأل: "لا خبز؟".

فحدجته.

فقال: "حسنًا، على الأقل يوجد كائن متحضر على متن هذه السفينة. وهذا أمر جلل"، وانتشل قطعة جزر من الحساء والتقمها.

عندئذ قال كلوف وهو يستدير ويولِّي مبتعدًا: "لقد حصلت من فورك على ترقية".

توقف ناش عن المضغ وهو يرمقني.

أجبته عن سؤاله غير المنطوق: "لقد رحل العاملان".

قبض على الوعاء بإحدى يديه، وتبع كلوف وهو يقول: "تمهل دقيقة".

لكن كلوف كان قد عاد بالفعل إلى سطح السفينة متجهًا إلى ذراع رافعة المرساة، وقال: "ليس هذا طلبًا".

نظر ناش إلى سينت الذي كان يهبط السطح العلوي إلى صحن السفينة، ثم سأل: "هكذا الأمر إذن؟ صرتم تُشغِّلون الناس بالسخرة الآن؟".

لكن سينت تغافل عن كلامه وقال: "أخرجنا من هذا الميناء فحسب"، وخلع سترته وانطلق نحو السور. وبحركة واحدة استل السكين، وألصق النصل في كفه بقوة. لقد جفلت حين رأيت بريق قطرة الدم على النصل، لكن سينت لم يبدُ منزعجًا، وحالما بدأ تدفق الدم وجَّهه صوب ماء البحر.

لم يبدُ أن أحدًا لاحظ ذلك غيري. وخلفي كان ناش قد صعد بالفعل تجاه مقدمة السفينة وهو يفك سرواله، وفي اللحظة التالية كان يقضي حاجة من فوق السور.

أغمضت عينيَّ، وتجهمت.

وضغط سينت بقبضته النازفة على صدره، ثم سحب قصاصة قماشية من جيبه الخلفي في حين تدفق الدم من بين أصابعه. وبمجرد أن لفها على كفه انطلق يرتقي الصاري الأمامي بنفسه من غير أن يأمر شخصًا آخر بفعل ذلك.

ومال شعره جانبًا مع هبوب الريح، فيما برزت قسمات ذراعيه من تحت جلده وهو يرفع نفسه إلى أعلى. وحاولت أن أشيح بعينيَّ بعيدًا عن شبحه، ولم أنزع عينيَّ عنه إلا بعد أن رصدت بقعة الدم على كمه مرة أخرى.

ترامى صوت ينادي: "ريفين!"، كان ذلك صوت وورد قادمًا من الرصيف يعرج، ويلوح بإحدي يديه.

غمغم كلوف: "ماذا أتى به؟"، وثبَّت المرساة مرة أخرى. ثم انطلق نحو السور، وارتكز عليه بيديه لينظر إلى وورد.

رفع وورد الورقة المختومة في الهواء، وهو يقول: "يبدو أن حظكما السعيد قد وافاكما أخيرًا!".

انطلقت عينا كلوف صوب سينت، وشاهدت كل عضلة في جسد هذا الأخير وقد انتابها شد مفاجئ، ولم يكن ثمة ما يدل على أنه لا يزال يتنفس سوى سحابة الضباب الأبيض التي تجمعت أمام شفتيه وهو يزفر. وببطء هبط ببصره إلى كلوف، وقد تألقت في عينيه نظرة بهجة بريئة، نظرة لم يلوثها شيء.

انعكس هذا التعبير على وجه كلوف وهو يفك السلم الذي انبسط مرة أخرى صافعًا هيكل السفينة، ثم انطلق يهبط السلم، فاختفى شعره من وراء جانب السفينة. وحين أمسك بالوثيقة في يده جعل يتحسس بإبهامه ختم الشمع الأحمر فوق شريط أخضر رقيق. وبدا كأنه استدعاء من مجلس التجارة.

اشتدت الرياح، وتورد وجه سينت، وراح يهبط من الصاري الأمامي. وحين وطئت قدماه سطح السفينة ثبت في مكانه، وكأنه يخشى اختفاء الملَّاح والوثيقة في أية لحظة.

لاحت ابتسامة خبيثة على شفتي كلوف وهو يسلم الوثيقة إلى سينت، ولم أتبين ما إذا كان اهتزاز الرسالة في يد سينت بفعل الرياح أم بسبب ارتجافة طفيفة سرت في أوصاله.

وجرت عيناه بسرعة محمومة على أسطر الوثيقة وهو يزيح خصلات شعره عن وجهه.

عندئذ تساءل كلوف وهو يذرع المساحة أمام الدفة في انتظار رد من سينت: "وماذا بعد؟".

بيد أن سينت لم ينبس بكلمة، ورفع بصره صوب كلوف، وراح كل منهما يرنو إلى الآخر في صمت. ثم خطا كلوف خطوتين قاطعًا بهما المسافة التي تفصله عن سينت، وقد باغتني وهو يطوق سينت بذراعيه ويعانقه.

وتشبثت يدا سينت بقميص كلوف وتنهد تنهدة عميقة قبل أن يفترقا. وتغيرت قسمات وجهه حتى بدا كأنه وجه جديد لم أره من قبل، وقد ازدادت زرقة عينيه كثافة بدرجة تضاهي زرقة مياه البحر التي تحيط بالسفينة.

ثم قال سينت: "وجِّه السفينة شطر سيروس، وانطلق".

هرع كلوف يمسك بالأوتاد المثبتة في الصاري الرئيسي، وعلى الفور ارتقاه، وبعد هنيهة كانت الأشرعة قد انبسطت فوق رءوسنا. وقال بنبرة مفعمة بالطرب: "ما هي إلا مسألة وقت".

17 سينت

لا يغمض لي جفن في الليالي التي أستشعر فيها قدوم عاصفة.

سمعت صريرًا صادرًا من الحبال التي بجواري، فيما كنت أشد وثاقها عند زاوية الشراع، راميًا بثقلي إلى الخلف فوق حبال قمة الصاري الأمامي، وقد ثبتُّ عقبي حذائي في مفصل عارضة الصاري، فصار جسدي معلقًا في الجو، وسطح السفينة من تحتي.

كانت ليلة حالكة السواد، وصار الهواء من حولي معتمًا كالحبر، لكن في الأفق لاح وميض خافت من الضوء الأبيض أثار حفيظتي تأهبًا لخطر محدق. لم يكن بوسعي رؤية جدار الغيوم الزاحف صوب السفن، بيد أنني استشعرته، كأنه عملاق صامت يزحف فوق الماء.

هاج البحر واصطخب، لم تعد أمواجه هادئة وادعة كما كانت في الصباح، بل صارت قممها حادة مضطرمة بالحركة، وأحسست بقلبي يغوص في صدري. لا، لن ينام البحر الليلة، ولا أنا.

وبرقت صاعقة في السماء مرة أخرى، ناشرة ألسنة الضوء المتشابكة تلامس الأفق. فحزرت أن أمامنا ساعة قبل أن تدهمنا، ربما أقل.

ند صوت عن الحلقات المعدنية الموجودة في الصاري الأمامي من خلفي جعلني أحوِّل بصري من العاصفة البعيدة وأنظر إلى الوراء، فرأيت كلوف صاعدًا الصاري للعمل. وحالما أصبح متوازنًا سحب قفازه الجلدي وشرع يعمل حاشرًا قضيبًا معدنيًا في عقدة من عقد الحبال ليفكها قبل أن يعيد ربطها.

لم نكن لنأتمن عاملي السفينة على هذه المهمة، حتى لو لم يغادرا. إذ لم يعرف أحد النقاط الضعيفة في هذه السفينة كما أحطت بها أنا وكلوف. لقد كانت حياتنا على المحك مرات عديدة على متن هذه السفينة، ومن ثم نما لدينا حدس بشأن مثل تلك الأشياء.

كانت هذه هي الساعة التي يتخلَّى فيها معظم القباطنة عن إكمال مسارهم، ويحوِّلون وجهتهم إلى أقرب ميناء، بيد أنني لم أكن مثل معظم القباطنة. لم يكن ثمة وقت لنهدره في ظل شق زولا طريقه إلى سيروس واقتراب موعد اجتماعي التالي مع هنريك.

قلت: "كنت سأتركك تحظى بقسط أكبر من النوم. ستكون ليلة طويلة".

فك كلوف الحبل وتركه يرتخي في الجو، ثم قال: "تعرف أنني لا أحب تفويت أوقات المرح".

بالفعل لم يكن يروقه أن أكون بعيدًا عن ناظريه في أوقات العواصف المحدقة بنا. فكلانا يعرف كيف يتبدل المصير في لحظة خلال تلك الأوقات، وكيف أن البحر يمكن أن يمد يديه ويستلب ما يريده في طرفة عين.

قلت: "تحققتَ من وضع السطح حين صعدت إلى السفينة حين كنا في الميناء"، لم أطرح هذه العبارة كسؤال لكنها بدت كذلك.

قال: "فعلتُ".

كنت أعلم أنه فعل ذلك، لكنني كنت بحاجة إلى سماعه وهو ينطقها. لقد تحققتُ بنفسي أيضًا، لطالما فعلت.

لطمتنا هبة ريح، وانطلق بصري مرة أخرى صوب العاصفة. واشتدت برودة الهواء في تناقض حاد مع النسيم الدافئ المعتدل الذي كان يدفعنا إلى سيروس صباحًا. بيد أنني لم أكن متأكدًا لماذا وتَّرني ذلك.

تسارعت حركة يديَّ فوق الحبال وأنا أحرك إبهامي على طول وصلات الخياطة في الشراع للتحقق منها بحثًا عن فجوات أو خيوط غير مشدودة. وهذا لا يعني أن ذلك سيفيدنا بأي شيء على أية حال، إذ لم تكن الريح بحاجة إلى ثغرة لتهيئ لنفسها موطئ قدم على متن السفينة كي تفتك بها، بل إن أرادت الريح أن تهيمن على السفينة، فستفعل على أية حال.

قال كلوف وهو لا يزال يعمل على العُقَد: "كما تعلم ما زلت أحاول اكتشاف ما يدور في خاطرك بالضبط".

تساءلت: "بشأن ماذا؟".

أجاب: "كيف سندفع لإميليا".

سكنت يداي على الشراع مع انتهائي من فحص وصلة الخياطة الأخيرة، ورفعت نفسي، ثم قلت: "سوف نبيع الجاودار ونرى ما إذا كان بوسعنا شراء شيء آخر للمتاجرة به في سيروس. فقد نستكشف خيارات عديدة، لكن حالما نجري عملية تجارية أخرى لصالح هنريك...".

لكنه قاطعني: "آخر ما أعرفه أنك طعنت من يشتري منا أحجار هنريك، فمن سيدفع ثمن تلك الأحجار الكريمة؟".

رحت أهبط عن الصاري، ويداي تتشبثان بالأوتاد في الظلام، إلى أن هبطت على السطح، ثم قلت: "سوف نعثر على مشترٍ جديد".

بقي كلوف صامتًا وهو يرمقني.

انطلقت صوب مقدمة السفينة مارًّا من تحته، وحين وصلت إلى شراع صاري في أثناء سيري رحت أتحقق من الحبال، ثم قلت: "أنا في حالة من الإرهاق الشديد تجعلني في غنى عن الانخراط في مراوغات حوارية يا كلوف. قل ما تريد قوله فحسب".

قال: "بوسعنا التصرف في النقود التي دفعناها مقابل طلب الترخيص".

وعندما لم أُحِر جوابًا، قفز كلوف هابطًا، وجاء ليقف بجواري.

وأردف: "يمكننا استعادة تلك النقود".

قلت بنبرة ثقيلة وحاسمة: "لن نتخلى عن الترخيص"، لا أصدق أنه يقترح ذلك.

قال: "لن نتخلى عنه. يمكننا إعادة تقديم الطلب بعد أن نجمع احتياطيًّا نقديًّا ونصفي حساباتنا المالية مع الآخرين".

هززت رأسي وأنا أقول: "لا. لن نتخلَّى عنه. ليس الآن".

همس كلوف: "سينت...".

قاطعته ضاربًا الشراع براحة يدي، وقد أحرقت الكلمة حلقي وهي منطلقة: "لا!".

أفلت كلوف قبضته عن الحبال، واستدار ليواجهني.

بلعت ريقي، وأنا أقول: "لا بد من ذلك، لا بد".

حدجني بنظرة لا أكاد أطيقها؛ نظرة لا توحي بأنه تحوَّل إلى روح دعابته المعتادة. ولبث محدقًا بعينيه في عينيَّ مليًّا قبل أن يقول: "لقد قضيا نحبهما يا سينت وانتهى الأمر".

قلت: "الأمر ليس منوطًا بهما فقط. أنت تعلم ذلك".

ثمة دَيْن في عنقي يجب عليَّ الوفاء به. ولم يكن سرًّا بيننا أنني كنت الملوم في ذاك اليوم حين شاهدنا أبوينا يغرقان في البحر. وقد كان ذلك هو السبب الذي جعل أهالي قرية كراجسماوث يولُّون ظهورهم لي، كان ذلك سبب رحيلنا.

لكن هذا. ليس بوسعي إصلاح غلطة الماضي، ولكن بوسعي الحصول على هذا الترخيص، وهو شيء أراداه، شيء أردناه. ثم إنني قطعت عهدًا على نفسي بأن أبحر رفقة كلوف تحت شعارنا، أو سأموت وأنا أحاول في هذا المسعى.

زفر زفرة، وقال بنبرة تكاد تكون نبرة شفقة: "لا بأس".

ارتخت عضلاتي المشدودة. وكنت أعرف أن كلامي لا يقوم على منطق قوي، وأن سيري في هذا المسعى ضرب من التهور، لكن فقدان الترخيص كان يمثل مجازفة لن أخوضها، ليس بعد كل ما مررنا به.

ثم قال كلوف خارقًا الصمت غير المريح الذي جثم بيننا: "هل أمعنت التفكير فيما قلته بشأن الجرَّافة؟".

تساءلت: "بشأن إبقائها ضمن طاقمنا؟".

أومأ برأسه بالإيجاب.

قلت: "بلى".

تساءل: "وإلام خلصت؟".

أجبته: "إذا كانت تريد الانضمام إلينا فلا بأس".

تبسَّم كلوف، لكنه لم ينبس بكلمة. ولم يكن عليه أن ينطق بشيء. لقد أحسست بمشاعر تجاه الجرَّافة ولست متأكدًا كيف سأعالج ذلك، ولست متيقنًا مما إذا كنت راغبًا في معالجة ذلك.

كانت احتمالية قبولها الانضمام إلى طاقمنا ضئيلة، إذ بوسعها أن تعثر على قبطان في سيروس يضمها إلى طاقمه دون معرفة أي شيء عن حقيقتها، ناهيك عما جرى في ديرن.

لكنها مسألة وقت حتى يلاحقها زولا، ولا أدري ما إذا كانت تستوعب ذلك حقًّا.

ثم قال كلوف كأنه يقرأ أفكاري: "هذه ليست مشكلتك".

رنوت إلى عينيه هنيهة، وأفلتُّ حبال الشراع قبل أن أتوجه ببصري صوب المدخل المفضي إلى حجرة نوم البحَّارة التي ترقد فيها إيزولد.

إنه محق. دائمًا ما كانت هذه طريقتنا في مباشرة الأمور، وقد أبقتنا تلك الطريقة أحياء، لكن ثمة شيئًا بشأن هذه الطريقة يحتاج إلى النظر في مدى صحته.

18 إيزولد

"إيزولد".

ترامى إلى مسامعي صوت ينادي اسمي في طيات الظلام، صوت خافت وقريب، لكنه تشوش بفعل أصوات أخرى، أصوات تلاطم المياه واندفاع الريح في الممر. دفنت وجهي في نسيج الأرجوحة الرطب، وملأت صدري بنفس عميق.

تكرر النداء: "إيزولد".

فتحت عينيَّ، وشاهدت شبح سينت فوقي في حجرة نوم البحَّارة المعتمة. ولوهلة تردد صوته، وتشابكت خيوط الأفكار في ذهني.

قال: "عاصفة. نحتاج إليك على سطح السفينة".

طرفت بعينيَّ، وراحت قدماي تبحثان عن الأرضية وأنا أرفع جذعي، وأحاول نفض آثار النوم عن عقلي. كنت لا أزال بين عالمين، وأتساءل عما إذا كنت قد سمعت ما قاله حقًّا أم أن هذا من خيالي، وأتساءل عما إذا كان موجودًا بالفعل بالقرب مني، حتى إنه إذا مد يده، فسيلمسني.

سألته: "إذن هل نحن متجهون إلى ميناء؟".

أجابني وهو ينتظر أن أنهض واقفة: "لا".

نهضت وأنا أرفع ذراعيَّ بجوار جسدي للحفاظ على توازني مع اضطراب حركة الأرضية تحت قدميَّ، فأدركت أن السفينة كانت تميل جانبًا بفعل موجة قوية. وعبر الحجرة ارتطم الباب بالجدار قبل أن يرتد مرة أخرى.

لكن إذا لم نكن متجهين إلى ميناء، فهذا يعني أننا سنواجه العاصفة حتى ننجو.

وطرفت بعيني مرة أخرى في انتظار توضيح ما، بيد أن سينت لم يقدِّم أي تفسير. وركل الصندوق عند الزاوية ليتحقق مما إذا كان مغلقًا بإحكام قبل أن يمسك الباب ويفتحه لي، ثم قال: "هلمي".

حين خطوت إلى الممر شممت رائحة المطر، وامتلأ أنفي بتلك الرائحة الترابية الطيبة قبل أن تهبط إلى رئتيَّ، وقد صاحب ذلك وميض البرق الآتي من سطح السفينة، وتحركها، فتضافرت كل تلك العوامل على إيقاظ انتباهي التام.

تبعت شبح سينت في الظلام، واهتزت السفينة مرة أخرى مع لطمة من الريح على الجانب الأيسر من الهيكل، فضغطتُ كلتا يديَّ على جدران الممر لأوازن نفسي قبل أن أصل إلى العتبات المفضية إلى السطح، ومن خلفنا كان مخزن الشحن وغرفة الإمدادات مغلقين، وقبل أن أخرج من الممر سمعت ناش يكيل اللعنات.

أدرت وجهي بعيدًا عن الريح والمطر وأنا أدفع نفسي إلى حيث يقف سينت الذي ابتلت ملابسه، وشحبت بشرته في العتمة.

هتف ناش من عند مقدمة السفينة وهو يسحب لفة من الحبال في يديه بقوة: "لا تزال أمامنا فسحة من الوقت، يمكننا الوصول إلى شاطئ!".

رد سينت عليه بإجابته الوحيدة: "لا، لا يمكننا".

وتقاطر دم من معصمه لم يكد يبقى له أثر بفعل رذاذ ماء البحر الذي يملأ الجو، وهذا يعني أن جرح يده انفتح في وقت ما منذ أن أويت إلى مخدعي. بالنظر إلى اضطراب البحر الآن لم أعلم يقينًا كيف بقيت نائمة في الطابق السفلي. لكن أشد نقاط العاصفة حلكة لم تكن وراءنا، ولا فوق رءوسنا كذلك، أي أن هذه لم تكن سوى بداية العاصفة، وقد كانت عاصفة عاتية.

ثبتت عيناي على الأشرعة الواهنة في أعلى الصاريين، ومع وميض البرق تراءت لي شبكة وصلات الخياطة المهترئة، فغاص قلبي في جوفي وأنا أرى المشهد. لكن كلوف الواقف بجوار سينت لم تلح عليه أية أمارة للقلق، كانت نظرته هادئة كنظرة القبطان.

قلت: "ناش محق، يجب أن نتوجَّه إلى شاطئ".

ضرب البرق مرة أخرى، فأضاء أحد جانبي وجه سينت الخالي من التعابير. لقد نطق بإجابته بالفعل، ولن يعيدها.

أخذت أنقل بصري بينه وبين كلوف مفتشة عن أية أمارة للخوف في عيونهما، لكن هذا ما اشتهر به قبطان السفينة ريفين وملَّاحه، ما من أحد يدري كم عدد العواصف التي خاضوا أهوالها كي يحوزوا تلك السمعة. ولم تكن لديهما نية للتوجه إلى اليابسة.

نظرت في عيني سينت وقلت: "حسنًا. ماذا تريدني أن أفعل؟".

خُيِّل لي في وهلة أنني رأيت اختلاجة طفيفة على شفتيه تشي بابتسامة، وربما أيضًا نظرة استحسان تألقت في عينيه.

قال: "إلى قلب الريح يا كلوف".

أومأ كلوف وحرَّر عجلة الدفة، وراح يلفها إلى أن اكتسحت الريح السفينة من مقدمتها إلى مؤخرتها، وأحاطت بقوة حتى أحسست كأنها تلهبني بالسياط، وأخذت قطرات المطر ترتطم بزجاج نافذة حجرة القبطان كأنها حصى.

ثم وجَّه سينت حديثه لي قائلًا: "أشرعة العواصف".

انطلقت من فوري صوب الصاري الرئيسي، وتسلقته حتى وصلت إلى الأشرعة الصغيرة المطوية تحت الأشرعة المبسوطة، ومن شأن تلك الأشرعة أن تزودنا بقدر أكبر من التحكم في الحركة في خضم الريح المباغتة، وأن تحول دون انحرافنا عن مسارنا، لكن بمجرد

فتحها سيكون من شبه المستحيل طيها مرة أخرى. وصعد سينت إلى الجانب الآخر من الصاري وراح يطوي الأشرعة جزئيًّا بينما انكببت أنا على فك أشرعة العواصف وكانت إحدى يديَّ معلقة في الحبال، فأخذت أتأرجح في الجو. ودبت هزة عابرة في هيكل السفينة حين انبسط الشراع مثلث الشكل، وأحسست بارتياح حين رأيت أن وضعه أفضل من وضع الأشرعة التي كنا نبحر بها حتى الآن.

أحاط بنا الظلام من كل جهة، وبدا كأنه يتحرَّك، وحاولت ألا أفكر في مدى ضآلة حجم السفينة ريفين بين الأمواج السوداء الهائلة. إن السفن التي كنت على متنها في خِضم العواصف كانت سفنًا جبارة بالقياس إلى هذه السفينة، وكانت مزودة بأفضل أنواع العتاد والحبال التي يمكن شراؤها. لكن السفينة ريفين بدت كأنها علبة ثقاب تطفو على سطح الماء، وقد بثت هذه الفكرة اضطرابًا في أحشائي.

ثم هبط سينت إلى سطح السفينة بجواري، وتبعته إلى الصاري الأمامي. انتظرني حتى أمسكتُ بالأوتاد، ورفعت إحدى قدميَّ من السطح.

قال وهو يشد العقدة فوق رأسه: "يمكنني اعتياد هذا".

أعدت قدميَّ إلى السطح مرة أخرى، وكان سينت يرمقني بنظرة بدت كأنها تسبر أغواري، وكأنه يقيِّم ردة فعلي.

اعتياد هذا. لم أكن أعرف ماذا يعني ذلك. اعتياد وجود جرَّافة؟ اعتياد توافر يدين مساعدتين إضافيتين؟ اعتيادي أنا؟

وفتحت فمي لأسأله، لكن قبل أن أنبس بكلمة تجمدت يدا سينت على العُقَد، وارتفعت عيناه ببطء محدقًا ببصره فوق رأسي، وتكهربت الأجواء بالتوتر، وفجأة هدأت الريح.

تسلل شعور كالنار من تحت سترتي زاحفًا على جلدي، وأفلتت يداي الأوتاد، وسرى إحساس بالخدر في بناني.

وند صوت صرير من هيكل السفينة ريفين، واندفع ثقل جسدي إلى الأمام، فملتُ تجاه مقدمة السفينة. وتبلبلت الخواطر مع عدم القدرة على رؤية الأفق. بدا الأمر كأن السفينة تُسحب في عكس الاتجاه الذي كانت تسير فيه قبل لحظات فقط.

وابتعد سينت عن الصاري الأمامي وقد تطاير شعره فوق جبهته وهو يوجِّه أذنه صوب الماء، كأنه يصيخ السمع.

ثم قال: "تأهبوا"، وترددت الكلمة الجوفاء عبر الصمت الذي ساد السفينة.

قطبت جبيني وأنا أتساءل: "ماذا؟".

ثبت كلوف عجلة القيادة مرة أخرى وهرع من فوره إلى العتبات المفضية إلى السطح العلوي، أما أنا فما زلت أبحث بعينيَّ في الضباب أحاول رؤية ما فعل سينت.

اصطبغت الأجواء باللون الفضي، وألقى الضوء الرمادي بظلال مخيفة على السفينة. وحين رصدتُ الحركة المقبلة على مرمى البصر خطوت خطوة صوب السور، وعيناي مركزتان على المشهد، حيث الغيوم تزحف نحونا مثل طوفان من الدخان.

لكن الصوت الذي دمدم في الجو لم يكن صوت ريح. ارتجت السفينة إثر ذبذباته، وقد ارتفع ضجيجه مع كل لحظة.

لم يكن ذلك صوت الغيوم، بل كان صوت الماء.

"تأهبي!".

انسلت الكلمة من حلق سينت مرة أخرى وهو يطوقني بذراعيه، ويدفعني إلى الخلف نحو الصاري الرئيسي، حتى ثبت ظهري إلى الصاري وضغط عليَّ بثقل جسده، وتحوَّل صوت البحر الذي تتعملق أمواجه من فوقنا إلى دمدمة باعثة على الرعب. كنا على وشك الهلاك المحدق.

وكان وجهه قريبًا مني لدرجة أن خده لامس وجهي وهو يلف قبضتيه بالحبال من خلفي، فانحشرت بإحكام بين جسده والصاري.

ورمقني بنظرة في عينيَّ قائلًا بنبرة لطيفة: "تنفسي".

تكوَّر فوقي، وملأتُ رئتيَّ بالهواء في اهتياج قبل أن يلطمنا مركز العاصفة. ثم غشانا سواد حالك، وانهمر الماء الكاسح فوقنا يكاد يجرفنا عن سطح السفينة، فتشبثت بسينت غير أن تيار الماء أضعف قبضتيَّ وراح يسحب قدميَّ حيث كانتا. وماج العالم من حولي مع انهمار شلال من المياه فوق السفينة، فدفنت وجهي في صدره، وأطبقت أجفاني وأنا أغمض عينيَّ.

ثم سمعت شهيقه وهو يلهث، فأدركت أننا لم نعد مغمورين بالماء، وتجاوزنا قلب المعمعة، ومن ثم لاحت الغيوم مرة أخرى.

أجبرت نفسي على تحرير قميص سينت من بين أصابعي، فيما ظل هو ممسكًا بي.

ثم سألني متلعثمًا لاهث الأنفاس: "أأنتِ بخير؟".

أومأت بالإيجاب، وقد عجزت عن الكلام، لأنه ليس من المفترض أن نبقى واقفين حتى الآن، ولا أن تبقى السفينة طافية حتى هذه اللحظة.

وعند مقدمة السفينة لاح أمام عينيَّ ناش وقد بدت في عينيه الواسعتين نظرة ذعر وهو يحملق إلى مشهد السماء متشبثًا بقاعدة الصاري الأمامي حيث كان يقف. ولم ينجرف إلى البحر بأعجوبة.

سحب سينت ذراعيه بعيدًا عني قبل أن ينطلق صوب عجلة الدفة وهو ينادي: "كلوف!".

نهض كلوف من عند العتبات المفضية إلى السطح العلوي مجيبًا: "هنا!"، وقد غطى شعره الأشقر وجهه، والتصق قميصه بجسده كأنه ورقة مبللة.

ألقى سينت نظرة أخرى على البحر، وكان الماء يتماوج من حولنا من كل جهة مرة أخرى، لم تكن هذه عاصفة عادية. وإذا وضعنا في الاعتبار اتجاه الريح، ينبغي ألا تأتي العاصفة من الاتجاه الآخر، وهذا لا يوافق النمط المألوف. لم ينتهِ الأمر، ليس بعد.

عندئذ قلت دون تفكير: "إنهما اثنتان، عاصفتان".

كان ذلك هو التفسير الوحيد. ولو أننا نحظى بضوء النهار لرأيناهما، لكننا في الظلام الدامس كنا عميانًا.

وكأن الخاطرة ذاتها قد انتابته، فاستل السكين من حزامه، وهرع إلى حبل شراع العواصف الذي كنت قد ربطته من فوري. حتى إنه لم يحاول فكه، إذ لا جدوي منه، وبدلًا من ذلك أمسك بالحبل في إحدى يديه وشرع في قطعه.

وبمجرد أن رأى كلوف ما كان يفعله سينت، جثم ليتحقق من إحكام تثبيت ماكينة التوجيه أسفل عجلة الدفة التي كانت لا تزال صامدة.

عندئذ قال ناش وهو يتحرك مستندًا إلى السور وهو يتحرك، وقد تولاه الفزع: "مهلًا ... ما الذي ...؟".

أجابه سينت: "سوف نخوض العاصفة دون أشرعة أو دفة".

فغر ناش فاه قائلًا: "ماذا؟".

إن طريقة خوض العواصف دون أشرعة أو دفة تمثل الملاذ الأخير في عاصفة كهذه. وهي آخر أمل. لو كنا على متن سفينة أخرى، فلربما كان بوسعنا خوض العاصفة بأشرعة العواصف، لكن ما من سبيل لمعرفة الاتجاه الذي ستأتي منه العاصفة التالية، والسفينة ريفين تكاد تكون متماسكة على الرغم من حالة التهالك هذه، فلن تكون قادرة على الصمود أمام حركة دفع وسحب الماء.

صاح سينت وهو لا يزال يحز الخيوط الأخيرة في الحبل: "أسقطوا المرساة!".

لم يتحرك ناش، وقد التفت أصابعه التي ابيضت مفاصلها حول السور، ومياه الأمطار تتقاطر من ذقنه في دفق مستمر.

أحسست في حلقي وعينيَّ بحرقة من أثر الماء المالح، واستدرت وأنا أحاول استبيان اتجاهاتي. ما زلت أشعر بأن السماء تحت قدميَّ. وارتجت السفينة مرة أخرى، ومالت الصواري قبل أن ترتد معتدلة ثانية، وقد جثوت حين بدأت أنزلق تاركة الجاذبية تقودني إلى ذراع المرساة.

ثم ارتطمت بالذراع ارتطامًا قويًا حتى انقطعت أنفاسي لحظات، ثم تنفست بصعوبة وأنا أمد يدي إلى الذراع. حاولت أن أحركها لكن يديَّ الباردتين الرطبتين لم تسعفاني، فجعلت أحاول زحزحتها بجسمي، لكن لم أحس بأنها تتحرك.

ثم طللت من فوق السور، وزفرت وأنا أقول: "سحقًا"، فقد علقت المرساة في مخزنها، ومن ثم لا يمكن إنزالها.

رنوت إلى أعلى، فرأيت كلوف وسينت يعملان على طي الأشرعة وتثبيتها، لكن إن لم تنزل المرساة فلن يكون هناك ما يثبتنا في وجه الموجة التالية.

ارتقيت السور، وشبَّكت ذراعيَّ فيه كي أتدلى على جانب السفينة الخارجي.

وترامى صوت سينت متسائلًا من بعيد: "ماذا تفعلين؟".

ومن تحتي تبدى سطح الماء المصطبغ بالسواد كأنه سطح غير مصقول لحجر العقيق أو حجر السج؛ تلك الأحجار التي كانت ترصِّع الخواتم في أصابع والدتي، وخُيل لي أنني إذا لمست سطح ذلك الماء، فسوف يجرحني بحوافه الحادة.

لم أفكر، وحين صار مخزن المرساة في مواجهتي، أرجحت ساقي وركلت المزلاج بعقب حذائي.

ضرب البرق مرة أخرى، وسادت لحظات من الهدوء المروع قبل أن ينفجر الصوت في أذني؛ ذلك الصوت المدوي الذي تلته عاصفة مزمجرة، ولم أعد أرى سوى المرساة وأنا أحاول الوصول إليها بطرف حذائي.

وجعلت أركل مرارًا وتكرارًا، وقوة ذراعيَّ تُستنزف مع كل ركلة. واستغرق الأمر مني ست محاولات حتى انفكت المرساة، وتدلَّت في الجو، حتى كادت تصدمني. ثم تشبثت باستماتة في السور وأنا أحاول رفع نفسي مرة أخرى، لكن كل عضلاتي قد خارت قواها، ولم أعد أشعر بيديَّ.

تأوهت بصوت مكتوم وكشَّرت عن أسناني، وأنا أقاوم ثقل جسدي، وفجأة سُحِبت لأعلى. وتراءى لي وجه سينت على جانب السفينة يرنو إليّ بعينيه الزرقاوين من الأعلى، لكنهما الآن كانتا خاليتين من الهدوء الذي يلوح فيهما على الدوام.

تشبثت بساعده فقبض عليه بشدة، ثم وصل كلوف، وجذبني من حزامي. وتعاونا على سحبي حتى وطئت قدماي سطح السفينة، وحالما استقرت قدماي على السطح، اجتاحني شعورٌ بالإعياء الشديد.

لكنني لم أبده، وأفلتت نفسي من قبضة سينت قبل أن أنطلق إلى ذراع المرساة، وهذه المرة تحركت الذراع وأنا أدفعها بوزني وارتفع صرير، ثم تراقص حبل المرساة وهي تسقط قبل أن ترتطم بالماء، وبعد بضع لحظات استقرت ريفين بعض الشيء.

نظر كلوف إلى الوراء وعيناه تتفحصان الغيوم، ثم قال: "لا يمكننا البقاء هنا".

جثا سينت ليثبِّت ذراع المرساة وهو يقول: "اذهبا".

سحبني كلوف صوب الممر.

دلفنا إلى غرفة القبطان التي انغمرت أرضيتها بالماء، ووجدنا ناش قد انزوى بالفعل في ركن وذراعاه معقودتان على صدره، وقد كان جسده كله يرتجف.

تقاطرت مياه البحر من ملابسي ويديَّ وشعري، وتكورت قبضتاي بشدة وأنا أحاول إعادة الدفء إليهما، كأن الدفء هو الشيء الوحيد الذي سيقنعني بأنني ما زلت حية.

دخل سينت مغلقًا الباب من ورائه، واتجه مباشرة صوب المكتب، وراح يفتش بين الورق حتى سحب إحدى الخرائط. شاهدته وهو يطويها بأصابع ثابتة، حريصًا على عدم ابتلالها، وحين أتم طيَّها، انتزع علبة أسطوانية جلدية من الخطاف المثبت في الجدار، ودس الخريطة داخلها، ثم أحكم إغلاق الغطاء.

ساد صمت مثير للقلق في الغرفة وهو يضع حزام العلبة على كتفه. لست أدري ما هذه الخريطة، لكنه لن يتركها تغرق مع السفينة.

وبتناغم تام خلع سينت وكلوف أحذيتهما في آن واحد.

جاشت نفسي بإعياء يعتصر أحشائي حين أدركت أن هذه حركة استعداد للسباحة إذا غرقت السفينة.

ثم قال سينت وهو ينظر إلى حذائي: "اخلعيه".

فأذعنتُ وخلعته، وكذلك خلع ناش حذاءه على مضض ووجهه يزداد شحوبًا. إن طبيعة عمله في صناعة السفن تجعله غير معتاد ركوب البحر بنفسه، ناهيك عن الوجود في قلب عاصفة.

إذا غرقت ريفين فلا نجاة لنا. وبمجرد أن خطرت لي تلك الخاطرة أحسست بأن ثمة ثقلًا نُفض عن كاهلي. وساورني ارتياح لفكرة أنني لا أدري شيئًا عما يوشك أن يحدث. لقد

عشت حياتي وفق خطة محددة للغاية. فمنذ اللحظة التي عرفت فيها والدتي بموهبتي صار لكل يوم من أيام حياتي هدف يجب تحقيقه - ألا وهو العثور على الأحجار الكريمة، وإدرار الأرباح عليها. ولكن حالما جئت إلى منطقة المضايق تلاشت الخطة التي وضعتها والدتي لحياتي. وعلى أصداء ارتطام الأمواج بالسفينة، شعرت بغياهب المجهول تترامى أمامي، واستشعرتها الآن أكثر من أي وقت مضى.

قد ألفظ أنفاسي الأخيرة في أية لحظة. وأحسست بذلك الفراغ اللانهائي داخلي، حيث يمكن أن يحدث أي شيء.

تلاقت عيناي بعيني سينت اللتين كانتا مصوبتين نحوي، وهما تتفحصان وجهي كأنه يحاول قراءة أفكاري. أو لعله مثلي كان يجول في خاطره الآن ما قاله قبيل انكسار الموجة الباطشة الأولى على متن السفينة.

يمكنني اعتياد هذا.

من الجيد أنه لم تُتح لي الفرصة لسؤاله عن معنى جملته. إذ لو كانت لتلك الجملة صلة بالشعور الذي غمر عروقي حين طوَّقني بذراعيه، وتلامس وجهانا، فيما أحكم يديه عليَّ، فمن المؤكد أنني لا أريد اكتشاف معناها.

19 إيزولد

لم أبتهج لمشهد شروق الشمس قط كابتهاجي به اليوم.

لقد مكثنا معظم الليل في حجرة سينت في حين اجتاحت العواصف البحر في الخارج، لكن خفقان قلبي المتسارع لم يهدأ حين هدأ عواء الريح، فما زالت تلك العواصف تضطرب بين جنباتي.

كان النوم يثقل أجفاني في نوبات عشوائية، وقد تنازعني الاضطراب جراء ما يطرق أذني من الأصوات التي تصدر عن السفينة ريفين، أصوات تنذر بأن الهيكل سوف يتصدع ويغرقنا جميعًا. لم تخطر تلك الخاطرة لي وحدي، ففي كل مرة تئن فيها السفينة، كان ناش يتململ في أرجوحته الشبكية، وعيناه تلتقيان بعينيَّ في الظلام. إن نجاتنا أقل ما يقال عنها إنها معجزة، لكن ها نحن أولاء على متن السفينة وهي لا تزال طافية، ولم يكن لديَّ أي تفسير لذلك.

وقفتُ عند مقدمة السفينة أرنو إلى مياه منطقة المضايق المصطبغة بخضرة فاتحة، وهي تتسابق تحت ريفين. إن اختلاف لون المياه هنا عن لون المياه في منطقة البحر المجهول لا يمكن أن تخطئه العين، ففي منطقة البحر المجهول كانت المياه زرقاء داكنة. وبمجرد عبوري إلى منطقة المضايق على متن السفينة لونا لاحظت تحوُّل تلك الزرقة الغامقة إلى طيف من اللون الفيروزي. وكذلك كان الهواء مختلفًا، ففي منطقة البحر المجهول يكون مشبعًا للغاية بالملح، أما هنا فتلك النسبة تقل كثيرًا.

كما يندر في منطقة البحر المجهول رؤية مثل تلك العواصف التي شهدناها الليلة المنصرمة، وكان القباطنة الذين يعملون تحت إمرة والدتي لا يتوانون في إنهاء مهمة

الغوص إذا أحسوا بقدوم عاصفة، وذلك تحاشيًا لإثارة غضب والدتي، إذا علمت بالمخاطرة بحياتي في خِضم عاصفة. لقد كانت قيمتي عندها أثمن كثيرًا من قيمة شحنة أحجار كريمة، بيد أن الباعث على ذلك لم يكن حبها إياي، الأمر وما فيه أن هولاند لا يمكنها إيجاد بديل لي، وذلك بسبب موهبتي التي تدر عليها أرباحًا طائلة.

دسست يدي في جيبي مفتشةً عن الغرض الوحيد الذي أخذته معي حين غادرت منطقة البحر المجهول، وحين أخرجت الحافظة أحسست بثقلها في كفي، وضغطت بطرف إصبعي على الرأس الحاد لحجر قلب الليل من فوق جلد الحافظة الرقيق.

آخر مرة شهدت فيها مركز عاصفة حقيقية كان قبل بضع سنوات، حين كنت في جزيرة فيبل، وهي جزيرة صخرية ضئيلة قبالة ساحل مدينة باستيان، ولم يكن فيها سوى أكبر منارة في البحر المجهول. وبمرور الزمن أصبحت هي الملاذ الوحيد الذي ألوذ به بمنأى عن والدتي. ففي الأيام التي كانت تنشغل فيها بأعمالها التجارية في المدينة كنت أتسلل وأدفع للصيادين كي ينقلوني إليها، ثم أقضي هنالك ساعات وأنا مستلقية على الصخور المُشمسة، وأغوص في الكهوف البحرية أسفل الجزيرة الصغيرة. كانت تخلو من الناس، وكنت أتحرر هنالك، من دون خرائط غوص، أو مسارات، أو خطط، أو دفاتر يجب ملء أرقامها، لم يكن هنالك سواي بصحبة طيور البحر.

لقد غصت في أرجاء الجزيرة الصخرية وحدي سنوات وأنا لا أملك أدنى فكرة عما إذا كان يوجد بها شيء ذو قيمة، إذ لم يكن يُرى في قاع البحر هناك سوى صخور ورمال وأسراب من الأسماك الفضية. لكن طوال تلك المدة كان حجر قلب الليل كامنًا هنالك، ينتظر فحسب.

التفت بوجهي ونظرت لأعلى ناحية سطح السفينة وراء ظهري، حيث وقف كلوف عند عجلة الدفة تاركًا إياها تميل قليلًا، وعيناه مصوبتان نحو السحب البيضاء المتناثرة على صفحة السماء.

ثم فتحت الحافظة الصغيرة، وأسقطت الحجر في كفي. كانت أسطحه السوداء اللامعة مصقولة بشكل مثالي، وحين رفعته تجاه الضوء أمكنني رؤية وهج اللون الأرجواني داخله. ما زلت أتذكر لحظة العثور عليه بوضوح تام، كان قابعًا في القاع على عمق أكثر من خمسة عشر مترًا تحت سطح الماء حين سمعته، ذلك الرنين الخافت الرقيق الذي لم أسمع مثله من قبل، إنها أنغام صادرة عن حجر كريم لم أعرفه من قبل.

وحزرت من فوري أنه ذو أهمية، بيد أنني لم أكن أعرف مدى الأثر الذي سيحدثه في حياتي. وعندما أخبرتني والدتي بأن لي الحق في تسميته، اخترت له اسم قلب الليل، كان ذلك هو الاسم الوحيد الذي خطر لي لوصف أنغامه الباعثة على الشجن.

وتناهى إلى أذني ضجيج ارتطام شيء ثقيل على سطح السفينة من ورائي، فجفلت، وكورت قبضتي على الحجر. ومن خلفي وجدت ناش قد ألقى عند قدميه حقيبة الأدوات التي يستخدمها مَن يتولى رئاسة سطح السفينة، ولم يكن مرتديًا قميصه، وقد التمع جلده بالعرق على الرغم من برودة الصباح، وتلوى شعره المبلل فوق رأسه.

وغمغم وهو يجثو أمام الحقيبة ليخرج منها مسمارًا طويلًا: "إصلاح هذه السفينة كأنه محاولة لترقيع خرق لن يفتأ أن يزداد اتساعًا".

ثم جعل يقَلّبه في يده، وهز رأسه وهو يتفحصه، وبدا المسمار كأنه قد انتُزع من سفينة صنعت منذ خمسين عامًا، وقضت شطر تلك المدة تحت الماء.

وأدخلت حجر قلب الليل في الحافظة قبل أن أعيدها إلى جيبي، ومضيت للوقوف بجواره، ثم سألته: "في رأيك كم المدة المتبقية على انهيار هذه السفينة تمامًا؟".

قال: "ربما أسابيع؟ أيام؟ ساعات؟"، ورفع القادوم وراح يركّب المسمار في نهاية القضيب الحديدي المثبت في ذراع المرساة، وتردد صوت حاد وهو يدق عليه، ثم أردف: "لكن هذا الشيء لن يبحر طويلًا".

سألته: "ماذا تقصد؟".

ابتسم ابتسامة ماكرة، وأجاب: "مُحال أن أقول شيئًا. إن السبب في أنني عالق في فخ الموت هذا هو أنني أطلقت لساني بالكلام".

ألقيت نظرة خاطفة على باب حجرة القبطان المفتوح، لقد أخبرني سينت من قبل بأن ناش كان يعمل مساعدًا في مجال صناعة السفن، ولم يمسك لسانه، لكن لم يمسك لسانه عن ماذا؟

لا يمكن أن يخططا للإبحار على متن ريفين حين يحصلان على ترخيصهما الجديد. لن يخاطر أحد ذو عقل سليم بنقل بضائع باهظة الثمن على سفينة كهذه، لكن ربما سينت ليس ذا عقل سليم. إنهما لا يملكان ثمن شراء سفينة جديدة، ولو أنهما يملكان هذا المبلغ ما كانت لتبدو عليهما أمارات اليأس الممض بعد سرقة أحجارهما الكريمة.

إلا إذا كانا قد أنفقا ما امتلكاه من مال وفير بالفعل قبل السرقة، ويكون هذا سبب ما بدا عليهما من تعثر مالي.

وحزرت قائلة بصوت منخفض: "لديهما سفينة، أليس كذلك؟".

كادت يد ناش تُفلت القادوم قبل أن يتنحنح ويعاود الدق بوتيرة ثابتة، ثم قال: "كما قلت، لقد تعلَّمت الدرس".

وتناهى إلى أذنيَّ صوت نقرة تثبيت عجلة الدفة، فالتفتُّ في الحال لأرى كلوف يهبط العتبات المفضية إلى الممر، وشعره الأشقر يختفي من وراء المدخل.

لقد كانا غريبي الأطوار، لا يشبهان أي قبطان وملَّاح أبحرت معهما من قبل. لقد تحدث هذان الشخصان بلغة لا يعرفها سواهما، إذ كان كل منهما يقرأ ما يدور في خلد الآخر بلمحة واحدة. كانا أشبه بالشقيقين، لكن لم يلُح عليهما أثر يدل على رابط أخوة دم.

عدت أسأل ناش: "ما ذاك الذي فعله سينت بالسكين حين كنا نبحر من سوان؟ لماذا جرح يده؟".

مسح ناش قطرة عرق من ذقنه، ورمقني وهو يتساءل: "ألم تسمعي بهذه القصص من قبل؟".

هززت رأسي نفيًا.

قال: "إذن، من المؤكد أنك لستِ من منطقة المضايق"، ثم أسقط القادوم ونهض على قدميه ومد يده نحو قِربة الماء المتدلية من الصاري خلفه، ثم أردف: "إنه ميثاق مع شياطين البحر. شيء اعتاد البحّارة القدامى فعله".

تساءلت: "ماذا تقصد بكلمة ميثاق؟".

هز كتفيه وقال: "مثل اتفاق. لهذا لم تغرق سفينة الوغد حتى الآن. ثمة باعث على خشية الناس منه، إنهم يخشون إثارة غضب شياطين البحر وجذب انتباهها".

سألته: "هل يؤمن الناس بذلك حقًّا؟".

شرب شربة أخرى قبل أن يغلق القِربة، ثم قال: "معظمهم يؤمن بذلك. وثمة آخرون لا يرونه سوى مجنون".

ضحكت نصف ضحكة وسألته: "ومع أي الفريقين أنت؟".

انطلقت عيناه صوب الأشرعة المنبسطة من فوقنا، وتوقعت أن يضحك هو الآخر، بيد أنه لم يضحك، ثم قال: "لو كنتِ طرحتِ عليَّ هذا السؤال أمس لقلت إن كل تلك الأقاويل هراء".

ترددت قبل أن أسأله: "والآن؟".

أجاب: "هل يخطر ببالك أي سبب آخر غير ذلك يفسر نجاتنا من أهوال الليلة المنصرمة؟".

خمَّنت أن الشائعات عن سينت والسفينة ريفين قد نُسجت خيوطها من مائة قصة أخرى على منوال هذه القصة. فقبطان مجنون وسفينة ملعونة يخوضان مجازفات مُهلكة، ويلجآن إلى أساطير شياطين البحر. وبعد ما رأيته الليلة الفائتة لم أستطع البت بشأن صحة الأمر من عدمه.

ناولني ناش قربة الماء إليَّ، ثم جثا مرة أخرى وعاد إلى العمل، لقد سمعت الناس في منطقة البحر المجهول يسخرون من تخلف منطقة المضايق، ومع ذلك لم تخلُ منطقة البحر المجهول من أساطيرها وخرافاتها أيضًا، لكن لم يعوِّل أحد عليها، لقد ولَّى ذاك الزمان.

انطلقتُ عبر سطح السفينة، وفي الممر، وأنا أنظر خلسة إلى غرفة القبطان، حيث ظننت أنني سوف أرى سينت جالسًا هناك وراء مكتبه، كانت الغرفة خالية.

وضعت إحدى يديَّ على إطار الباب قبل أن أدلف إلى الداخل، فقد عبقت الغرفة بآثار رائحته؛ رائحة البحر، ليست الرائحة التي تُشم في المياه الضحلة الدافئة، أو التي تفوح من الأمواج المتكسرة على الرمال، إنما كانت رائحة المياه العميقة، وهي رائحة يتعذر عليَّ وصفها بالكلمات، غير أنني سأظل أميزها في أي مكان.

اصطكت أحجار الأفعى المثقوبة في عنقودها المتدلي بالنافذة المفتوحة، وهذا العنقود يمثل الزينة الوحيدة في هذه الغرفة الرثة. ولم تكن السفينة ريفين مميزة بشيء يثير الإعجاب، ولكن غرفة القبطان كذلك لم يميزها سينت بأي شيء. وكانت تلك نقطة الاختلاف الأولى التي رصدتها بينه وبين زولا.

أمسكت بحجر من تلك الأحجار في كف يدي، وفركت سطحه بإبهامي. كانت والدتي تسخر من الخرافات الساذجة، وكانت تسخر من بحَّارة سفنها الذين آمنوا بتلك الخرافات، بيد أن هذا لم يثنهم عن ممارسة تلك الطقوس في البحر.

خطوت خطوة صوب المكتب، حيث وجدت طرفًا مهترئًا من الكتان الأبيض يتدلى من أصغر دُرج، ففتحته، ونظرت داخله، ووجدته يحوي ما لا يقل عن عشر ضمادات قماشية مطوية بعضها فوق بعض، كانت هذه هي الضمادات التي يلفها سينت حول يده دائمًا.

وكذلك كان دفتر الحسابات الموضوع فوق الوثيقة مفتوحًا، ولم تكن الكتابة في الصفحة تتسم بالدقة أو الإتقان، إذ بدا عليها أثر الاستعجال من الكاتب، بل التهاون كذلك؛ لكن الأرقام المدونة في العمود الأيمن كانت واضحة. ورحت أقرأ وأنا أتتبع المحتوى بإصبعي.

إصلاحات السفينة، لحم مملح، صناديق جاودار.

لم يُذكر شيء عن الصوف الذي رأيت حمولته تُفرغ في سوان، أو الأحجار الكريمة التي سرقتها من زولا. إن المخزون التجاري في دفاتر هذه السفينة قليل جدًّا لا يعوَّل عليه، لا بد أنهما كسبا النقود من تهريب الأحجار المزيفة، كما أن الأرقام يعوزها الاتساق، إذ تنخفض إلى الصفر تقريبًا كل بضعة أسابيع قبل أن ترتفع مرة أخرى.

وهذا يفسِّر اليأس الذي رصدته في عيني سينت حين أمسك بي في الزقاق في ديرن، ذلك أن تجارته هذه قاب قوسين أو أدنى من الانهيار في أية لحظة.

أكبر مبلغ في الدفتر كان الأخير، وهو المبلغ الذي دُفع إلى روزاموند في ديرن، ولكن لم يُذكر المقابل الذي دُفع من أجله هذا المال. إن هذا الطاقم المتألف من شخصين لا يبدو ندًّا ذا بال للوهلة الأولى، لكنهما يخفيان أسرارًا كثيرة. ولعل هذا هو الباعث على تركيز زولا اهتمامه عليهما.

وبجوار المكتب رأيت العلبة الأسطوانية التي كان سينت قد لبس حزامها على كتفه في الليلة الفائتة قد أعيدت إلى مكانها على الخطاف المثبت في الجدار، فمددت يدي وأخذتها من مكانها، وفي قلبها وجدت مخطوطة ورقها أبيض ملفوفة بإحكام.

رنوت إلى الباب لأرى ما إذا كانت ثمة حركة قبل أن أفتح العلبة وأبسط المخطوطة فوق المكتب.

كانت خريطة؛ خريطة حسنة المنظر.

أمسكتها، ووجهتها صوب الضوء الساقط من النافذة، الذي أضاءها فظهرت زاهية، ولاحظت أن العنوان الذي يتوسط قمة الخريطة كان مكتوبًا بيد متقنة، وبخط بارع.

منطقة المضايق

ظهر في الخريطة كل شبر من الخط الساحلي في رسم دقيق مفصَّل. لم تكتمل بعد، لكنني لم أرَ خريطة لمنطقة المضايق من قبل، ليس على هذا المنوال، حتى تلك الخريطة التي أعطاني إياها زولا كانت مجرد رسم بدائي بتقديرات تقريبية وتعوزها المسافات الدقيقة.

ولاحظت طيفًا غامقًا من اللون الأزرق المستخدم في رسم البحر، فافترضت أنه يشير إلى مدى العمق، وثمة شعاب مرجانية تتوسط الخريطة عُنونت باسم بحر شَرك العواصف.
تذكرت تلك المنطقة من الرسم الذي أراني إياه زولا، إنها مقبرة السفن التي ابتلعها البحر.

ورأيت المحابر الموجودة على يسار المكتب، وبجوارها فُرش وريش كتابة، وكذلك كيس الرمل الناعم المستخدم في تجفيف الحبر، كانت تلك أدوات رسامي الخرائط.

كان سينت يرسم خريطة لمنطقة المضايق، هذه هي مهمته التي يعمل عليها.

عندئذ علا صوته قاطعًا الصمت: "حسبت أن ذوي الدم المملح مهذبون ويتحلون بالسلوكيات اللائقة"، بفزع حدَّقت عيناي صوب الباب.

وأفلتُّ طرف الخريطة، فانطوت على نفسها، وأنا أنظر إلى سينت الواقف في الممر يراقبني، وكأن تلك العتبة على المدخل هي الحد الفاصل بيننا.

أردف: "من الوقاحة أن تطلعي على أشياء شخص آخر بلا إذن".

إن كان هذا كل ما سينالني من التوبيخ، فإنني محظوظة، ثمة رقة خالطت نفسه منذ غادرنا سوان، كأن حدَّته لانت.

أومأت جهة المحابر، وقلت: "إنه عمل جيد، جيد جدًّا".

ودلف إلى الداخل بفتور، ومر من أسفل العارضة الخشبية قبل أن يلتف حول مكتبه، ثم أمسك بالخريطة وطواها بعناية.

سألته: "أين تعلمت رسم الخرائط؟".

أجاب: "أبي".

وخالط صوته حنانٌ ورقة، ما ألجأني إلى السكون تأثرًا، ومع أن شفتيه لم تظهر عليهما أدنى اختلاجة، فإنه لم ينظر إليّ وهو ينطق بالكلمة.

ثم سألته: "كان رسام خرائط؟".

أجاب: "صيادًا".

لم يُفصح عن أي شيء آخر، ولم أحاول الضغط عليه لمعرفة المزيد. بيد أنني لم أسمع قط عن صياد بسيط يمتلك مهارة كهذه.

أعاد الخريطة إلى علبتها، ومد يده فوقي ليعلقها في الخطاف مرة أخرى، ووجدت نفسي أتنفس بشكل أعمق مع ازدياد اقترابه مني. واستطعت أن أشعر بالدفء المنبعث من جلده، وحضرت في ذهني ذكرى التصاقنا في خِضم عاصفة الليلة الفائتة وهو ممسك بي بشكل وثيق.

هبطتُ ببصري على صدره، ثم إلى يديه، فلاحظت اختفاء الضمادة القماشية النحيلة التي كان يربط بها يده عادة، وأثر الدم الذي سال على أصابعه لا يزال جافًّا على المفاصل.

وعدت أسأله: "لماذا تفعل ذلك؟ أقصد خوض العواصف".

لم يُجب عن سؤالي هذه المرة، ونظر إلى المكتب، وأغلق الدفتر.

قلت: "ظننت أننا سنموت ليلة أمس".

قال: "لكننا لم نمت".

قلت: "كان من الممكن أن نموت".

قال: "يمكن أن يموت أي أحد في أي وقت".

لم أكن متأكدة مما إذا كان يقول ذلك باعتباره الباعث على خوضه تلك المخاطر. وبدا من المرجح أنه لا يملك شيئًا يعيش من أجله. وألقيت نظرة خاطفة مرة أخرى على علبة الخريطة المعلقة على الخطاف بالجدار، ثم نظرت إلى ورقة الاستدعاء المرسلة إليه من مجلس التجارة، والتي لا تزال رابضة على المكتب، ونظرت إلى دفتر الحسابات. وخطر لي أن لديه خططًا كثيرة بالقياس إلى شخص راغب في الموت.

وساد الصمت مجددًا. وبدأت أفهم أن الصمت هو الأسلوب الذي يفضلِّه في التواصل، كان يوصل المعاني التي يريدها في لحظات الصمت، في الفواصل بين الكلام. بيد أن ثمة شيئًا بشأن القبطان يذكِّرني بالأحجار الكريمة، ذلك أنني أسمع شيئًا، أو أشعر به وسط صدري حتى حين لا ينطق بأية كلمة.

ثم قلت وعيناي تهبطان على دفتر الحسابات مرة أخرى: "إنه دهاء. كسب النقود من العمليات التجارية الصغيرة وسداد التزاماتكما المالية دفعة صغيرة تلو أخرى في كل مرة، ما يجعل الجميع يظن أنك تتدبر أمرك بشق الأنفس".

فاجأني أنه كاد يضحك، ثم قال: "إننا بالفعل نتدبر أمرنا بشق الأنفس".

رمقته وأنا أفكِّر فيما إذا كنت أريده أن يعرف كم الخيوط التي ربطتها معًا، ثم قلت: "لكن هذه ليست السفينة التي ستحمل شعارك التجاري الجديد بعد الحصول على الترخيص، أليس كذلك؟".

عندئذ تجمَّدت تعابيره، والتقت عيناه بعينيَّ وهلة، لكن مرة أخرى لم يقُل شيئًا.

تابعت كلامي: "إذن، لديك الترخيص، أو سيكون لديك بمجرد وصولنا إلى سيروس، ولديك السفينة. ولا تحتاج الآن إلا إلى المخزون الذي تتاجر به".

قال: "أحسنتِ يا جرَّافة. لكن اكتشفت السر الذي يدفع كل تاجر وطئت قدماه الأرض: النقود".

هززت رأسي، وقلت: "القبطان الذي يسعى إلى النقود لا يقضي سنوات في رسم خريطة كهذه. ثمة شيء آخر".

بدا سينت يساوره الارتباك الآن.

وأردفت: "أنت ترى مستقبلًا لمنطقة المضايق، أليس كذلك؟".

رفع ذقنه، علامة على التحدي أو الذود عن النفس، لم أكن متيقنة، لكنني بالتأكيد لمست وترًا حساسًا.

ثم قال: "تعتقدين أن الفكرة مجرد سخف".

قلت هامسة وقد حدجني بنظرة جعلتني أتململ في وقفتي: "لست أعتقد ذلك".

لم تكن الفكرة سخفًا، بل كانت باعثة على الرعب بما تستلزمه من أخطار وتحديات.

إن سينت مثل هذه الغرفة، وهذه السفينة، صادق، لا يتظاهر. ولم أكن أعرف كيف أتصرف حيال ذلك، لأنني أدركت أنني قد صدقت كل كلمة نطقها، والأسوأ أنني ارتأيت أن بوسعي الثقة به، والإيمان برؤيته ومسعاه.

وخالجتني مشاعر تتسم بالعمق والعذوبة اللانهائيين، واستشعرت إمكانية وقوعي في غرام هذا التاجر وأحلامه. بيد أنني أنفقت سنوات عديدة وأنا أهمل نفسي من أجل طموحات الآخرين البراقة، ولا يسعني فعل ذلك بعد الآن.

قلت بصوت أجش في محاولة لإضحاكه مرة أخرى: "لا تقلق، أعتقد أنك أقنعت الناس بأنك لا تأبه بشيء".

قال: "ربما. أعتقد أن الناس يصدقون ما يريدون تصديقه".

رددت كلمته: "ربما".

وتساءل: "ما الذي يجب أن أصدقه عنك؟".

كان يطرح سؤالًا خفيًا، أراد أن يعرف عني، لكنني لم أستطع أن أنطق بحقيقة أمري.

وأردف: "حين التقيت بك في ديرن لم تخبريني باسمك الحقيقي".

قلت: "لم أكن أعرفك".

قال وقد لاحت في نبرته جدية أكبر: "وما زلتِ لا تعرفينني. وما زلتُ لا أعرف مَن أنتِ حقًا، أو ما تفعلينه في منطقة المضايق".

شاب الحذر الأجواء مرة أخرى.

ثم أردف: "أنا لا أكترث بسبب مجيئك إلى هنا. فكل امرئ له أسراره".

ضغطت لساني بسقف فمي. إن ما قاله حق، لكن لا تتساوى كل الأسرار في وطأتها، ولا في خطورتها.

وتابع: "إذا كنتُ سأجمع طاقمًا، فإنني أحتاج إلى جرَّافة. ومما رأيته ليلة أمس أجد أنك مؤهلة لحجز مكانك على متن السفن".

طرفت بعينيَّ، ثم سألته: "هل هذا عرض عمل رسمي؟".

قال: "ليس بوسعنا دفع أجرك إلا بعد فترة".

الضمير المعبر عن أكثر من واحد. إن مهمة تحديد من له اليد العليا هو أم كلوف تزداد التباسًا وإبهامًا.

وواصل قائلًا: "لكن يمكننا إطعامك. فاحرصي فقط على ألا تعرِّضي نفسك للذبح. أعتقد أن هذه شروط جيدة".

إنه محق، تلك شروط جيدة. وبوسعي البحث عن مكان لي على متن سفينة أخرى، بيد أن الشيطان الذي أعرفه خير من الشياطين التي لا أعرفها. ولو أنهما يخططان لبيعي بصفتي خبيرة أحجار كريمة لاحتجزاني بالفعل في مخزن الشحن مثل ناش.

سألته: "لماذا أنا؟ فبوسعك العثور على جرَّافة في أي ميناء".

قال: "أنتِ خبيرة أحجار كريمة. وهذه ميزة لن يحوزها أي قبطان آخر في منطقة المضايق".

انقبض حلقي، وتعسَّر عليَّ بلع ريقي. هذا هو مناط الأمر إذن، أراد استغلالي، ولم يحاول مواراة ذلك.

وأضاف: "وكذلك ليس لك ماضٍ هنا. إن الماضي يجر تحالفات وعداوات، وليس لك تحالفات أو عداوات في هذه المياه".

قلت: "باستثناء زولا".

قال: "إنه عدو مشترك. لن يتمكن زولا من لمسك بمجرد حصولنا على ترخيص، إذ سنكون في حماية مجلس التجارة. إن توقيع عقد الانضمام إلى طاقم من البحَّارة هو الخيار الأمثل لحمايتك إن كنت ستمكثين في منطقة المضايق".

خطر لي لحظتها أنني قد وَقَّعتُ بالفعل عقدًا باسم إريس. وهذه النسخة مني ستكون ملزمة بالعمل على متن السفينة لونا للعام التالي؛ لكن إريس هذه لا وجود لها، ليس على أرض الواقع. كما أن مجلس التجارة لا يعتمد العقد إلا إذا كان التاجر يحمل ترخيصًا.

لم أكن أنوي قط أن أبقى على هذه السفينة أو أية سفينة أخرى، وحين قلت إنني أريد الاختفاء، عنيت الاختفاء حقًّا، لكن كان ثمة مهمة عليَّ إنجازها أولًا.

ومرة أخرى رنت عيناي تجاه يد سينت الخالية من الضمادات، ورحت أتتبع خيوط الدم الداكنة الجافة على جلده.

كلما ازداد استشعاري العواطف التي تنتابني في حضوره ترسَّخ اقتناعي بأن الخيار الأفضل هو عدم المكوث على متن السفينة ريفين. فلماذا لا أستطيع أن أبوح برفض العرض؟ لماذا أعجز عن قول إنني لا أريد ذلك؟

فتحت الدرج الصغير في المكتب، وأخذت ضمادة كتانية منه، وحين مددت يدي نحوه لم يتحرك، وكانت عيناه مثبتتين على معصمي في تردد، واحتاج حسم القرار منه إلى خمس ثوانٍ كاملة، فوضع يده في راحتي ببطء.

وملأ جلده الدافئ راحة يدي حين فتحتُ أصابعه، وعندما رأيت الجرح عضضت على شفتي.

لقد اختفت شبكة الخطوط الرقيقة التي تغطي وسط الكف، لتحتل مكانها مجموعة من الندوب التي بدت كأنها إبر نحيلة وطويلة.

لففت الضمادة الجديدة على الجرح الحديث، وأحكمت ربطها برفق. لم يجفل قط، وتساءلت عما إذا كان لا يزال يشعر بألم تلك الجراح.

بالكاد تحركت رموشه وهو يشاهد أصابعي تربط العقدة، وحين انتهيت انقلبت يده ببطء في يدي، وقبل أن أدرك ما يفعله كانت أطراف أصابعه الخشنة تتحرك فوق مفاصل أصابعي، وكأنه يستشعر العظام تحت جلدي.

كان يلمسني، عن قصد، لمسة فضولية، وكأنه لم يكن متأكدًا مما سيحدث جراء خطوته هذه.

واضطرب خفقان قلبي الذي تواثب في صدري حتى حُبست أنفاسي، وأحسست بإحساس الغرق بين أضلعي مما دفعني إلى الاستنشاق. ثم سحبت يدي من يده قبل أن أنجرف إلى فعل شيء لا تراجع عنه.

قلت بصوت أجش: "لا بد لي من التفكير في الأمر".

دس سينت يده في جيبه كأنه يحبسها هنالك، وبعد هنيهة أومأ برأسه.

أضفت: "ثمة شيء يجب أن أفعله في سيروس، وبعدها سأرد عليك".

وكانت خطوة تعوزها الشجاعة. عرفت ذلك. لكنني ارتأيت أن اختفائي هكذا في سيروس أفضل من النظر في هاتين العينين والجهر بالرفض.

وثبَّتُّ عينيَّ في عينيه أطول فترة أستطيع تحملها، لكن وطأة تلك النظرة كانت ثقيلة حتى نسيت معها أن أتنفس مرة أخرى.

قال أخيرًا: "لديّ عمل لأفعله".

خطوت حول المكتب لأغادر، ولم أنظر إلى الوراء حتى مرقت من الباب، ثم نظرت إليه نظرة أخيرة خلسة قبل انغلاق الباب، بيد أنني وجدته لم يتحرك ولبث بصره مثبتًا على المكتب.

عرفت أنه يعلم أنني أكذب، وأدركت ذلك لحظة خروج الكذبة من بين شفتي. ولن يكون ثمة رد آتٍ، إذ بعد مغادرتي السفينة ريفين غدًا لن أعود مطلقًا.

20 سينت

لم يجدر بي أن ألمسها، كانت تلك غلطة.

مضى يوم منذ أن ربطت إيزولد الضمادة على راحة يدي، والسفينة ريفين الآن ترسو في ميناء سيروس، لكن الساعات الفائتة مرت كأنها أسابيع. فحين غادرت إيزولد الغرفة خلَّفت من ورائها صمتًا أسوأ من هدير العاصفة التي كادت تفتك بنا.

لكن ما من شيء يُجدي في خفض ضجيج الفكرة الوحيدة التي احتلت ذهني.

لم يجدر بي أن ألمسها.

لست متأكدًا كذلك كيف حدث ذلك، في لحظة كانت أصابعها النحيفة الخشنة تمس جلدي فتلهبه بحرارة لافحة، وفي اللحظة التالية طوقتُ يدها بيدي. ولقد أمضيتُ بقية الليل، وهذا الصباح مراقبًا خط الضوء المتسلل من عقب باب غرفتي، على أمل أن تعود، وفي الوقت ذاته كنت أرجو ألا تعود.

حاولت نفض كل ذلك عن ذهني، السؤال الذي طرحتُه، والإجابة التي أجابتها. وفي النهاية، فأن استيقظ وأجدها قد ذهبت خير من تخيُّل أنها ستبقى معنا على السفينة، لكن ليس هناك ما هو أسوأ من الاعتراف بأنني أردت أن تبقى.

لاحت المدينة بتلالها المترامية وجسورها المنتشرة، حيث انبسط العمران على طول الساحل في متاهة مكتظة. وكان الميناء يعد مثالًا لفوضى المدينة. اكتظت كل الأرصفة بالسفن من شتى الأنواع، ومعظمها من سفن منطقة البحر المجهول، إذ تأتي تلك السفن إلى هنا بقصد تبادل التجارة مع تجار المدينة وتسيير الأعمال مع مجلس التجارة الجديد قبل أن تعاود أدراجها إلى باستيان أو نيمسمير أو ساجاساي هولم.

أول مرة تقع عيناي فيها على هذه المدينة كنت جاثمًا على قمة الصاري على قارب صيد أبي. وزيارتي هذه المرة تعد آخر مرة أقف فيها على هذه الأرصفة دون امتلاك نفوذ قوي، والحق أن أبي كان هو من غرس في نفسي بذرة التصميم على السعي لامتلاك هذه القوة، قبل فترة كبيرة من وفاته.

وتذكرت التماعة الضوء في عينيه والقارب يطفو بين تلك السفن التي كانت شعاراتها تلوح بجلال فوق مقدماتها. وحين سألته عما إذا كان سيمتلك سفينة كهذه السفن يومًا ما قال، لن يتحقق هذا الحلم لي يا بني، بل سيتحقق لك أنت.

ولم يكن مجرد حلم أو فكرة ضاربة في الخيال، بل كان طموحًا واقعيًا، فيومًا ما سوف يبحر أبناء منطقة المضايق بسفن مرخصة تحمل شعاراتهم الخاصة، إن المستقبل لن يتكشف عن أفق جديد فقط، بل سينجلي عن عالم جديد.

قفز كلوف من سلم السفينة ريفين ليقف إلى جواري على الرصيف، آخر مرة وقفنا فيها هنا كانت قبل ثلاثة أسابيع، وكان كل شيء مختلفًا وقتئذ.

ووضع قبعته على رأسه، وسألني: "هل ستهتم أنت بتسديد رسوم الرسو؟".

أجبته: "نعم، قال مدير الميناء إن الرسوم ترتفع لحاملي التراخيص".

أصدر حلقه صوتًا ينم عن الازدراء للفكرة. ما كنت أتوقع أقل من ذلك من مدير الميناء، بالطبع سيجد طريقة لاستغلال أعمال مجلس التجارة في زيادة أرباحه، ولن يكون الوحيد الذي يفعل ذلك.

قال كلوف: "لا بد أن الأخبار تنتشر في الأرجاء".

أومأت بالإيجاب.

لقد سَرت الأخبار عن إصدار مجلس التجارة تراخيص تجارية منذ لحظة إنشائه، لكن تلك التراخيص مُنحت أولًا لتجار منطقة البحر المجهول. وزعموا أن ذلك جزء من خطتهم لإضفاء الشرعية على شئون منطقة المضايق وتنظيمها بموجب القانون، إلى جانب حماية أعمال التجار في سيروس، لكنهم عمليًّا منعوا بحَّارة منطقة المضايق من ممارسة التجارة القانونية، وكل امرئ ذي عينين يمكنه رؤية أن الهدف الأوحد للنقابات تمثل في صون أرباحها.

والآن، بعد عام تقريبًا من تدشين مجلس التجارة، بدأوا أخيرًا مباشرة المهمة الحقيقية المنوطة بهم.

راح ناش يهبط السلم، وكاد يخنق نفسه في الحبال قبل أن ينزلق من درجة السلم الأخيرة. وحين هبط بقدميه على الرصيف جعل يترنح حتى أمسك بعمود من أعمدة الرصيف ليوازن نفسه.

وضحك كلوف رفقة عاملين آخرين يشاهدان ناش وهو يعاني صعوبة جمة للوقوف باستقامة.

وكان ذلك دليلًا لا لبس فيه على أنه لم يعتد الإبحار، إذ إن فقدان الاتزان على اليابسة رد فعل شائع يصيب من لا يعتادون البقاء على متن السفن فترات طويلة، وهذا الوغد لم يبحر أسبوعًا.

ثم قلت مذكرًا إياه: "إن فعلت شيئًا مريبًا، أو اقترفت خطأ فستخسر فرصتك في العودة إلى ديرن".

تنحنح وأجاب: "أفهم".

في ظل رحيل البحارين اللذين كانا معنا لن نتركه وراءنا على متن السفينة، إذ لو كان عنده شيء من عقل، فسيقتنص الفرصة ويعود بالسفينة إلى ديرن في رحلة مجانية. وكلانا

يعرف أنه ليس لديه أي شيء ليدفعه إلى قبطان آخر أجرًا لنقله.

وقال كلوف محذرًا إياه: "لن يكون هذا كل ما ستخسره".

حدجه ناش وهو يحاول تمشيط شعره المشعث بيده، وقال: "قلت إنني أفهم". لم أره قط من قبل مشعث الشعر هكذا، حتى حين كنت أراه بعد يوم كامل من العمل في رصيف روزاموند كان دائمًا يبدو كأنه على وشك الذهاب لاحتساء الشاي رفقة أحد أعضاء النقابة. إن منطقة المضايق ممتلئة بأمثاله، أولئك الذين يحاولون وضع أنفسهم في نمط حياة راقٍ يظنونه سيرتقي بهم إلى طبقة اجتماعية عالية. لكن ما غفلوا عنه أنه لا توجد طبقة اجتماعية راقية في منطقة المضايق، ولن تُوجد أبدًا.

ارتعش شعاع ضوء الشمس من فوقي، فرفعت عينيَّ لأرى إيزولد تطل من فوق سور السفينة ريفين. ولم تظهر لي ملامحها بوضوح بسبب زاوية الشمس، لكنني شاهدت يديها على السور قبل أن ترفع نفسها صوب السلم، ولم أرَ حزام أدوات التجريف المعلق على كتفها إلا وهي تهبط.

وحين هبطت على الرصيف حدجتها بنظرة مباشرة في عينيها. لن تحتاج إلى هذا الحزام في المدينة، وما من سبب يدفعها إلى أخذه من السفينة إلا إذا كانت تعتزم المغادرة بلا عودة. وكانت تلك هي الإجابة التي كان عليها أن تخبرني بها من قبل.

وارتسمت على وجهها تعابير تكاد تشي بإحساسها بالذنب. تكاد. لكن ما من شيء تأسف عليه. وكنت أعرف ما يعنيه شق المرء طريقه الخاص، ولن أقف في طريق أي شخص آخر يفعل الشيء ذاته.

سألتني وهي ترنو إلى ريفين: "هل ستترك السفينة وحدها هكذا؟". فأحسست في صوتها بشيء يكاد ينم عن الحرص على مصلحتي، وهذا أمر استفزني.

قلت: "ما من أحد يطمع فيها".

جالت عيناها في وجهي بنظرة متفحصة، وصار من الواضح أنها أدركت مغزى جملتي. ما كنت أقوله حقًّا إنها هي نفسها لا تريد السفينة. وبصراحة، لا أستطيع أن ألومها.

ثم انطلقتُ في تيار الحشد المتجه إلى المدينة، ومن ورائي كلوف يشق طريقه يمنة ويسرة وسط الأجساد، ويلقي بنظرات خاطفة على إيزولد وناش. ومرة أخرى، رفعت إيزولد غطاء الرأس الملحق بسترتها، وقد حرصت على ألا يُرى وجهها من جهة السفن، فمضت مُكبَّة بعينيها على الأرض.

لم يكن ذلك من نسج خيالي، بل كانت تحاول ألا تُرى. وكان السؤال هو ما الباعث على خشيتها من أن يتعرف عليها أحد وهي بمنأى عن موطنها.

ولم تسعفني المعلومات القليلة التي عرفتها عن إيزولد في استنتاج السبب. ولماذا تصرفت بأريحية بالغة على متن السفينة، إذا كانت قد نشأت في ترف كما قالت إميليا؟ بدا أنها معتادة أعمال التجريف ومتقنة إياها، لم تكن تتظاهر بشيء. لكن كيف تولَّت مثل هذا العمل الشاق إذا كانت من عائلة مرموقة؟ حتى إن كانت الحال قد تدهورت بها من بعد الترف، يمكنها أن تختفي في مدن أخرى بمنطقة البحر المجهول، مدن أكبر من سيروس، فلماذا أتت إلى منطقة المضايق أصلًا؟

وذكَّرت نفسي بأن تلك أسئلة قد لا أعرف إجاباتها أبدًا. وفي الحقيقة إن الأمر على هذا النحو أفضل. وكان لإميليا كل الحق في أن تقلق، حتى إن كنت قد تجاهلت قلقها ذلك. لقد نجحت خلال العامين المنصرمين في إنجاز شيء لم يظن أحد أن بوسعي النجاح في إنجازه. لقد شيدت شيئًا ذا قيمة من العدم، وأبقيت نفسي بمنأى عن الروابط والالتزامات، باستثناء روابطي بكلوف والتزاماتي تجاهه. لكن وجود هذه الجرَّافة أشعرني بالاضطراب، وأيًّا كان ما تفر منه، لا يمكنني المخاطرة بأن يمسني ضرر منه.

وصلنا إلى الدرج المفضي إلى خارج الميناء، وانخرطنا في تيار البشر المتجه إلى اليمين، وتابعنا المسير صعودًا حتى لاحت الجسور على مرأى منا. وامتد الدرب المرصوف

بالحجارة، وعلى جانبيه المباني البسيطة غير المصقولة أسفل الجسور المعلقة فوق أسطحها. ومن موقفنا هنا كان من المستحيل رؤية امتداد المدينة كما كان ممكنًا ونحن في البحر، وكلما غصت في المدينة ابتلعتك أكثر، إلى أن تجد نفسك في متاهة مربكة. وهكذا كانت المدينة نفسها تحف بالخطر، إذ لو اقترفت خطأ واحدًا فستكون نهايتك.

لم يظن أحد أن سيروس سوف تصبح ذات أهمية حين شُيدت الأرصفة البحرية هنا في أول الأمر. فلم تعدُ أن تكون منطقة يسهل الرسو فيها مع وجود مياه عميقة بما يكفي لاستيعاب السفن، ولكن مع توافد تجار منطقة البحر المجهول على الأرصفة تنامت المدينة لتصبح مركزًا تجاريًا، ولكن لم تمتد في العمران أفقيًا مع اكتظاظها بالناس، بل كلما ازداد الازدحام في الشوارع شُيِّد المزيد من الجسور، وها هي الآن تنتشر فوق المدينة كلها كأنها شبكة عنكبوتية.

وصلتُ إلى قمة الدرج، ونظرت إلى الوراء، فعثرت على وجه إيزولد بين الأعداد الغفيرة، ووجدتها قد توقفت وعيناها تجوبان المشهد من ورائي، ولاح على محياها طيف من التردد وشيء من الإحجام.

حين لمحتني وأنا أراقبها أكملت صعودها، وارتقت بقية العتبات. وقد كان كلوف خلفها مباشرة مقطبًا حاجبيه إذ لم تتبعه.

عندئذ قالت وهي لا تنظر إليّ: "لديَّ أمر يجب أن أذهب لإنجازه. سوف أوافيكما في الحانة".

لم تكلف نفسها عناء السؤال عن اسم الحانة لتحبك تمثيلها، فهناك حانات كثيرة في هذه المدينة.

قال كلوف: "حانة جريف، بالقرب من الجانب الجنوبي".

أومأت وقالت: "شكرًا".

لكنها لم تحرك ساكنًا.

أيًّا كانت وجهتها، فلن تعود، ولا بد أن لديها أسبابها لتحتفظ بذلك لنفسها.

لبثت منتظرًا وأنا أشاهدها تكابد معركة ذهنية محتدمة حول شيء تريد أن تنطق به. ولم أكن أريد منها كلمة شكر أو وداع، وما كنت أنا الآخر لأقول لها كلمة شكر أو وداع. لكنني أيضًا لن أقف هكذا منتظرًا أن تقول شيئًا خادعًا يقلل قدرنا ويستخف بذكائنا، لذا سأجنبها العناء.

رنوت إليها مرة أخرى، وعيناي تحدقان في ملامحها وفكها ومنحنى حلقها. نَحَتُّ شكلها في ذهني لأحتفظ به في ذاكرتي، وما من باعث دفعني إلى ذلك غير أنني شعرت بأنني مضطر إلى ذلك. ثم استدرت على عقبيَّ ومضيت في طريقي.

تبعني كلوف محاذيًا إياي من كثب، وقد أرسل بصره إلى الشارع الممتد أمامنا، ثم سألني: "هل تظن أننا سنراها مرة أخرى؟".

أجبته: "كلا".

21 إيزولد

لا أعرف لماذا كذبت.

شاهدت سينت يذوب وسط الحشد، وتلاشى أثره في الزحام. هكذا دخل حياتي ورحل منها في لمح البصر، وبدت فترة حضوره في حياتي مثل نقطة صغيرة على خط زمني ممتد.

في اللحظة التي أطللت عليه هو وكلوف من فوق سور السفينة تخيلت نفسي رفيقة لهما، ربما لأنهما كانا وحيدين في العالم مثلي، أو ربما لأنني لم أرغب في أن أكون وحدي. لكن في النهاية سيحل وقت يتعيَّن عليهما فيه الاختيار بيني وبين النقود، وهما في جوهرهما مجرد تاجرين، وكنت أعرف الخيار الذي سيفضلانه، لقد لمَّح سينت إلى هذا تلميحًا قويًّا.

لبثت واقفة في مكاني هنيهة أخرى أشاهد تيار الناس يتدفق في الشارع قبل أن أجبر نفسي على السير في الاتجاه المعاكس. واستشعرت مع كل خطوة لُجة العواطف المحتدمة داخلي، لكن الشيء الوحيد الذي يمكنني فعله الآن هو مواصلة السير.

اتسع الشارع بمجرد أن ابتعدت عن مدخل الميناء المقوس بضع خطوات، وتراقصت الظلال على الأرض بأشكال الدكاكين المتراصة في الشارع. رفعت بصري لأعلى، وانتابني دوار خفيف وأنا أرنو إلى الجسور التي انتشرت بالأعلى، والتي جعلت تتأرجح وتهتز مع توالي دبيب أقدام السائرين على ألواحها كأنها قرع على طبول صغيرة فوق المدينة. وفي الأسفل اصطف الناس في طوابير لارتقاء السلالم الحبلية المفضية إلى تلك الجسور المنتشرة في كل اتجاه كشبكة صيد منشورة فوق أسطح البيوت.

ثم مددت يدي لأمسك ذراع امرأة برفق، وأنا أقول: "لو سمحتِ".

قالت المرأة التي تحمل سلة تحوي أصدافًا اصطك بعضها ببعض حين توقفت: "نعم يا عزيزتي؟"، لكن عينيها ضاقتا حالما وقعتا عليَّ.

قلت: "أبحث عن مقر مجلس التجارة".

التوى فمها وهي تتساءل: "ماذا؟".

قلت: "المقر، المكان الذي يلتقي فيه مستشارا مجلس التجارة؟".

قالت المرأة هامسة: "آه، أولئك الحمقى. ألا ترين أنه يجدر بكم تركهم يعملون لصالح شعبهم؟ أنتم يا ذوي الدم المملح ترون أن من حقكم الاستيلاء على كل شيء".

ثم بسطت كفها أمامي في حزم.

فرحت أحدق إلى كفها.

قالت: "حسنًا؟".

عندئذ أدركت أنها كانت في انتظار عملة نحاسية، فدسست يدي في حزامي، وسحبت عملة ووضعتها في يدها دون جدال. لم تكن مخطئة بشأن تجار منطقة البحر المجهول، أو مجلس التجارة، ولم يكن سرًّا أن أولئك القوم يضمرون لنا الكره. لقد جئنا إلى هذه المياه بأموال طائلة، ثم جعلنا سكان المنطقة بحاجة إلى تلك النقود عن طريق زيادة الطلب لحبوبهم دون رفع السعر في المقابل. كانت هذه السواحل تمد منطقة البحر المجهول كلها بالطعام، والآن وهم يحاولون النهوض، يسعى تجارنا لإسقاطهم مرة أخرى، ومن الساعين إلى ذلك والدتي. ولكن إذا أنجزت المهمة التي أتيت من أجلها، فقد يفضي ذلك إلى انحسار نفوذها في منطقة المضايق.

تفحصت المرأة العملة قبل أن تسند سلتها إلى وركها، وتشير بمرفقها نحو السلم الموجود عند نهاية الشارع، وقالت: "انطلقي على هذا الجسر باتجاه المبنى ذي الأبراج الأربعة".

ثم اصطدمت بذراعي وهي تواصل السير مغمغمة باللعنات.

شققت طريقي صوب السلم، وانتظرت دوري في الطابور قبل أن أرتقيه لأصعد من الهواء الدافئ الساكن إلى نسيم البحر العليل. وانطلقت أسير فتأرجحت الألواح الخشبية تحت قدميَّ بعض الشيء، وأبقيت إحدى يديَّ على السور الحبلي للجسر، ورحت أتفحص أسقف البيوت في الأفق. وكان من السهل تحديد المبنى ذي الأبراج الأربعة جهة الشرق، ومع ارتفاع الجسر لأعلى اتضح لي المسار الذي سأسلكه لأبلغ غايتي.

لم تكن سيروس شيئًا يُذكر بالقياس إلى باستيان. ولم يكن ثمة اختلاف كبير بينها وبين سوان، باستثناء حجمها الهائل، فالمدينة تخلو من أية مبانٍ رخامية برَّاقة أو نوافذ زجاجية ملونة، ولا توجد فيها شوارع مرصوفة بالحجارة الحمراء، أو لافتات حديدية مصنفرة. وكانت باستيان جوهرة متلألئة؛ مكانًا جميلًا. لكن قلبها تعفَّن منذ أمد بعيد.

وهبطتُ على أقرب سلم عندما صرت على بُعد بضعة شوارع من المقر، وحين هبطت لفحتني مرة أخرى الحرارة التي تحتل أجواء الشوارع في الأسفل، ففتحت ياقة سترتي وتركت شعري ينسدل على ظهري.

ثم انعطفت بضع انعطافات وأنا أتتبع بعينيَّ البرج الشمالي الغربي المنبثق من المقر، وأخيرًا وصلت، فوجدت نفسي واقفة في السوق المفتوحة التي تنتشر عبر مسارات الأزقة. وبدا المقر كأنه رصيف بحري جيد التجهيز، إلا أنه يختلف عن الأرصفة العادية بالأبراج المنبثقة من كل ركن من أركانه. وشيد المقر بطوب رملي اللون يُشكل الجدران التي تخترقها بعض النوافذ الكبيرة المطلة على الشارع كأنها عيون واسعة مفتوحة.

ووقفت هنالك أحدِّق إليه مليًا قبل أن أشرع في السير مرة أخرى.

كنت قد حسمت قراري في تلك الليلة بمنزل والدتي، حين وقفت هناك وأنا مرتدية ثوبي باهظ الثمن، ويدي قابضة على كأس تحوي المشروب الذي أحتسيه. كنا نقف خلف الستارة

المخملية الثقيلة المطلة على البهو، وضوء الشموع يقع على علبة الأحجار الكريمة التي تحوي حجر قلب الليل فيعكس بريقه في عيني والدتي.

سوف يغير هذا كل شيء، هذا ما قالته.

لحظتئذ حسمت القرار وأنا أعرف عواقبه الوخيمة بالنسبة إليَّ.

لقد أعطيتها الشيء الوحيد الذي كانت بحاجة إليه لتُحكم قبضتها على العالم، والآن سوف أستلب هذا الشيء منها وأضعه في يد عدوها.

ارتقيت عتبات الدرج الحجرية المفضية إلى الباب الخشبي العريض، وسحبت مقبضه النحاسي حتى انفتح. ساد الهدوء في الداخل، في تناقض تام مع ضجيج الشارع، دلفت نحو الضوء الخافت في الردهة الطويلة الممتدة أمامي، وعلى كلا جانبيها غُطيت الجدران بورق حوائط أزرق لامع، وعُلقت عليها صور كبيرة ذات أُطر مذهبة، وتحت كل صورة نُقش اسم على قطعة نحاسية تشير إلى النقابة التي ينتمي إليها كل شخص. وشعرت بضآلتي أسفل الوجوه الضخمة المرسومة في تلك الصور، وهو الشعور ذاته الذي ساورني في منزل والدتي، ولم يرقني ذلك الشعور.

كان مشهدًا مألوفًا للغاية. هذه صور رجال ونساء من ذوي النفوذ في النقابات، حتى إن لم يكونوا متألقين تألق أبناء المجتمع الراقي في مدينة باستيان. ومررت بصور رجال يرتدون بدلات فاخرة، ونساء يرتدين فساتين مزركشة، واشتدت قبضتي على حزام التجريف. ولم يكونوا من ذوي الدم المملح، لكنهم بالتأكيد بدوا مثلهم.

وأسفل الأطر المذهبة أُخليت مساحة على الرخام سوف تُعَلَّق فيها شعارات التجار، وواصلت السير قبل أن يتخيَّل ذهني شعار سينت بينها. لكنني توقفت حين رصدت عيناي قطعة نحاسية تحمل اسمًا تعرفت عليه - أوليفر ديورانت. الاسم الذي رأيته في عقد اتفاقية النقل المبرمة بين زولا وسيمون.

وارتفع ذقني لأعلى وأنا أتفحَّص الألوان الغنية التي تزيِّن الصورة، حيث رُسم وجه الرجل العريض بأنف كبير تحت جبين مقطَّب، وكانت لحيته الداكنة ذات الشعر المتلوي متسقة مع شعر رأسه الظاهر من تحت قبعته الجميلة، وقد وضع إحدى يديه على قبضة عصا مذهبة.

هذا إذن هو الرجل الذي خطط لشرائي؛ تاجر أحجار كريمة كما توقع سينت، وهو عضو بارز في النقابة. ربما لم يكن هؤلاء الأوغاد مختلفين كثيرًا عن أولئك الأوغاد الذين نشأت بين ظهرانيهم.

خطوت خطوة صغيرة للأمام وأنا أنظر في عينيه. ولم أرغب في تخمين الخطط التي كان يجهزها لي. ولعله خطط لحبسي في جزء خلفي من متجر في مكان ما في هذه المدينة المكتظة؟ أو خطط لربط حجر في قدمي وإغراقي ليتخلص من خبيرة أخرى بمقدورها اكتشاف المنتجات المزيفة التي كان يتاجر فيها؟ وسُررت أنني لن أضطر أبدًا إلى اكتشاف تلك الاحتمالات. والفضل لسينت في نجاتي من هذا المصير.

أغمضت عينيَّ في محاولة لإزالة اسم القبطان من ذهني. ولم أكن أريد أن أفكر في السفينة ريفين، أو كيف بدت تعابير وجهه عند عتبات ذاك السلم، ولم أكن أريد أن أتذكر رائحته التي تشبه رائحة أعماق البحر.

توالت خطواتي حتى أفضت بي الردهة إلى رواق دائري به أربعة أبواب مطلية بالبرونز، وحين وجدت الباب الذي أبحث عنه رفعت قبضتي وطرقتُ.

مكتب إدجار مورانتون
زعيم نقابة الأحجار الكريمة

كان الأمر بسيطًا. لقد كرهت والدتي منطقة المضايق، ودائمًا ما كرهتها، لكن تلك الكراهية تفاقمت حتى صارت شيئًا آخر تمامًا حين انتشر الحديث عن مجلس تجارة في سيروس.

لقد ألغى مجلس التجارة رخصتها التجارية التي تسمح لها بالمتاجرة في موانيه، ولم يكن استقلال منطقة المضايق بسلطتها بشرى خير لطموحاتها.

وإذا كان ثمة شخص يحرص على عدم منحها السلطة مطلقًا في هذه المياه، فسيكون زعيم نقابة الأحجار الكريمة، إذ إنه لا يريدها أن تنافسه بأحجارها الكريمة بشكل يؤثر في أرباحه.

فُتح الباب، وظهر من ورائه وجه شاب. كان قريبًا مني في السن، ربما كان متدربًا أو موظفًا من نوع ما، قد يكون ابن زعيم النقابة.

لاحت الصرامة على صفحة وجهه الحادة ذات العينين الصغيرتين الداكنتين: "هل أستطيع مساعدتك؟".

أجبته وعيناي مصوبتان نحو شعاع ضوء الشمس الساطع الذي يخترق الغرفة من خلفه: "أسأل عن زعيم نقابة الأحجار الكريمة".

سألني: "بخصوص ماذا؟".

أجبته: "صفقة بيع".

تساءل: "بيع؟".

قلت: "بيع أحجار كريمة".

عقَّب: "لست متأكدًا من أنك...".

عندئذ ترامى صوت هادئ من الداخل يقول: "لا بأس يا بني. دعها تدخل".

تردد الشاب قبل أن يفتح الباب لأدخل، كانت مساحة المكتب كبيرة، وضوء الشمس يتدفق إليها من النوافذ ذات الشكل الدائري تحيطها إطارات مثبَّتة في السقف، فافترضت أننا الآن داخل حيز برج من الأبراج التي رأيتها وأنا أسير على الجسور.

كان الرجل واقفًا خلف مكتبه بالفعل، وسألني وهو يترك ريشة الكتابة: "كيف أساعدكِ؟".

كان شعره الممشط مضمومًا خلف إحدى أذنيه، حليق الذقن، وياقة بدلته عالية. وقامته أطول من قامتي بمقدار شبر كامل، وكتفاه العريضتان تقاربان عرض خزانة الكتب خلفه. كان أعضاء مجلس التجارة في منطقة البحر المجهول أكبر سنًّا من هذا الرجل، أولئك الأشخاص الذين ترقوا حتى صاروا زعماء النقابات، لكن هذا الرجل أصغر من أبي لو ظل حيًّا.

وجعلتني هذه الخاطرة أبلغ ريقي بصعوبة.

ثم قال وهو يرنو إليَّ: "حسنًا، أنت بعيدة عن موطنك، أليس كذلك؟".

ما زلت لا أعلم يقينًا ما الذي كشفني بهذه السرعة. قماش ملابسي؟ أربطة حذائي؟ كان عليَّ أن أتبين كيفية طمس تلك الأشياء التي تشي بي.

أجبته بتفسير على الأرجح كان قد استنبطه بالفعل: "رسا طاقمنا هنا لقضاء الليلة في سيروس".

أومأ ناحية حزام الأدوات الذي أحمله قائلًا: "أرى أنك جرَّافة".

أومأت بالإيجاب.

وتابع مستفسرًا وهو يخفي نفاد صبره بأدب الآن: "وقلت إن مجيئك إلى هنا يتعلَّق بصفقة بيع؟".

قلت: "أملك شيئًا أود عرضه عليك. حجر نفيس نادر".

تجهم قائلًا: "أنا متأكد أن ثمة تجارًا كُثرًا في السوق قد يهتمون بعرضك".

لقد ولَّى الزمن الذي كان يتاجر الرجل فيه في السوق منذ أمد بعيد. إن إبرام صفقة بيع حجر واحد تعد مضيعة لوقته، إذ يُرجح أن لديه مخزونًا هائلًا من الأحجار الكريمة يُنقل في البحر الآن. لا، إن هذا الرجل ينخرط في أنواع التجارة التي تقلب موازين القوى، وهذا هو سبب وجودي هنا.

قلت، وقد أحسست بقلبي يغوص في أحشائي: "هذا ليس حجرًا عاديًّا".

استرعت هذه الجملة انتباهه.

قال: "حسنًا، لماذا لا تجلسين؟"، وسحب من الرف مصباحًا من المصابيح المخصصة لفحص الأحجار الكريمة، ووضعه بجوار الصينية الصغيرة على المكتب، ثم سألني: "أي طاقم قلتِ إنك تعملين معه؟".

أجبته: "طاقم سفينة ريفرنس"، كان هذا اسم أول سفينة يخطر ببالي، لقد كانت سفينة صغيرة تبحر في مياه مدينة نيمسمير، ولم أكن كذلك متأكدة مما إذا كانت تملك ترخيصًا للتجارة في سيروس، لكن قبل أن يتسنى له تحري الأمر سأكون قد رحلت.

دسست يدي في جيبي، وقبضت على حافظتي الصغيرة، وأخرجتها، وترددت أنغام حجر قلب الليل من داخل الحافظة، وشعرت به ينبض بين أصابعي. لقد اعتدت تلك الأنغام فترة طويلة لدرجة أنه سيكون من الغريب ألا أجدها بجواري.

قال وهو يسحب السلسلة الذهبية المتلألئة التي تطوق رقبته بها حتى أخرج العدسة المعلقة في طرفها من جيب سترته، واضعًا إياها على إحدى عينيه: "حسنًا، لنراه إذن".

فتحت الحافظة، وسقط الضوء المنبعث من النافذة على سطح الحجر الأملس في الداخل ما جعله يتألق، وأحسست بالأصوات الصادرة عن الحجر تعلو في أذنيَّ، وتبث ذبذباتها في دمي.

كانت والدتي محقة، سوف يغيِّر هذا الحجر كل شيء. لكن لن يكون التغيير على المنوال الذي ظنته.

عاد الرجل يقول: "أخشى أنني في عجلة من أمري يا عزيزتي".

تدحرج الحجر من الحافظة إلى راحة يدي، وضاقت عينا الرجل، وجعله الفضول يزم شفتيه. إن رجلًا محنكًا لديه خبرة كافية لتجعله زعيم نقابة الأحجار الكريمة لن يستغرقه الأمر منه سوى ثلاث ثوانٍ ليدرك أن هذا ليس من أحجار العقيق، أو أحجار السج السوداء. فسواد هذا الحجر غريب، كأنه سائل أسود رقيق.

تركت حجر قلب الليل يتحرك تحت الضوء حتى لاحت ومضات أرجوانية تحت سطحه. ولكن حين رفعت بصري لأنظر إلى عين الرجل، لمحت بعينيَّ الرف المثبت على الجدار خلفه.

لست أدري ما الذي اجتذب انتباهي، لعله تمايل الظل، أو بريق الكئوس الكريستالية. ولكن حين ثبتت عيناي على شيء مألوف تفجر في أعماقي شعور أرعبني وأصابني بالوهن.

رأيت هنالك صندوقًا خشبيًا مفتوحًا وفي داخله ريشة كتابة في علبة زجاجية؛ ريشة ذهبية لامعة طرفها أسود، كانت ريشة مأخوذة من فصيلة نادرة من طيور البجع.

دب على جلدي وخز حاد مع ترامي صوت زعيم النقابة مرة أخرى، بيد أنني لم أعد أستوضح كلامه. وفجأة أحسست بشبح والدتي يملأ الغرفة، ويحوم في الجو من حولنا. بوسعي اشتمام الرائحة التي كانت تدهن بها معصميها، وسماع اصطكاك الجواهر حول رقبتها.

ظننت أنني قد نأيت عنها إلى أبعد مسافة ممكنة، حسبت أنني قطعت البحر إلى مكان لا وجود لها فيه. بيد أن هذا الرجل الجالس في مقر مجلس تجارة منطقة المضايق لا يعدو أن يكون يدًا أخرى من أيادي هولاند.

لقد عرفت منذ أمد بعيد أن مَن تمنحهم والدتي هذه الريشة يكونون ذوي مكانة مميزة عندها، ليسوا مجرد شركاء أو تجمعهم علاقة عمل عادية، بل كانوا موالين مخلصين لها. والشائعات بشأن ما فعلوه باسمها تمثل أبشع خطاياها.

إن تابعيها كثر في منطقة البحر المجهول، فما المانع في أن يكون لها تابعون في منطقة المضايق أيضًا؟ كان ذلك منطقيًا. بل إن جميع الناس جزء من خطتها. وكل ما هنالك أنني كنت على درجة من الحماقة تحول دون رؤيتي الأمر على حقيقته.

عندئذ نهضت ويدي تقبض بقوة على الحجر حتى تأجج الألم من معصمي واصلًا إلى مرفقي، وقلت: "أنا ... أنا آسفة. يجب أن أذهب".

نهض زعيم النقابة، وأمسك بالعدسة، واضعًا إياها في راحة يده وهو يردد قولي: "أنا آسفة؟".

تقهقرت خطوة نحو الباب، ثم خطوة أخرى، وأنا أقول : "أنا...".

لكن الكلمات تلاشت قبل أن تتكون على لساني، ثم انطلقت إلى الردهة، وأعدت حجر قلب الليل إلى حافظتي، ثم رفعت غطاء الرأس الملحق بسترتي، وأنزلت حزام الأدوات من فوق كتفي حتى أطويه بإحكام وأدسه في سترتي. وحين سمعت دبيب أقدام من خلفي أسرعت من خطواتي.

فترامى إليّ صوت ينادي: "انتظري!".

ومررت بصور تجار الأحجار الكريمة المعلقة على جانبي الردهة وأعينهم ترمقني من علٍ، وحثثت الخطى صوب الضوء في آخر الردهة.

ترامى إليَّ الصوت مرة أخرى: "قلت انتظري!".

عندئذ ألقيت نظرة خاطفة إلى الخلف نحو باب مكتب زعيم الأحجار الكريمة، فوجدت الرجل محاطًا بتاجرين يرتديان سترتين خضراوين، تلتمع الأزرار الذهبية فيهما، وقد انطلق التاجران تجاهي.

دفعت الباب بكلتا يديَّ إلى الخارج، وحالما وطئت قدماي الطريق أطلقت ساقيَّ للريح، وانفتح الباب خلفي مرة أخرى، ومرق منه التاجران يركضان ورائي، وزعيم نقابة الأحجار الكريمة في أعقابهما.

اكتظت السوق أمامنا بالحشود، وبحثت عن فجوة للانخراط في تيار الناس، وذُبت وسط الحشد، وحين طرق مسمعي صرير عجلة تبعت الصوت حتى تراءت أمامي عربة توقفت على جانب الشارع، فشققت طريقي نحوها وأنا لا أجرؤ على النظر إلى الوراء. وحين وصلت إلى جانب العربة دفعت نفسي لأرتمي في باطنها، ثم دفعت نفسي إلى الخلف حتى انحشرت بين برميلين تفوح منهما رائحة كرائحة السمك المملح، وانزويت على نفسي بينهما لأشغل أصغر مساحة ممكنة.

وتناهى إلى أذنيَّ صوت أجش آتٍ من الجانب الآخر من البرميل يتساءل: "أين ذهبتْ؟"، فملأتُ رئتيَّ بالهواء، وحبست أنفاسي.

واجتاز أحدهما العربة، فالتمع طرف سترة خضراء، ثم التمعت السترة الخضراء الأخرى أثناء مرور التاجر الثاني إثر صاحبه.

كان من السهل تمييز نبرة زعيم النقابة، وهو يتحدث على مسافة قصيرة جدًّا مني، حتى إنني إذا مددت يدي، فسألمسه: "انزلا إلى الميناء. اعثرا عليها. الآن".

تحركت العربة مندفعة إلى الأمام مرة أخرى، فأطلقت ما كنت أحبسه من أنفاس، وسالت دمعة ساخنة على خدي، وانزويت بقوة على نفسي ويدي تتلمس موضع الحجر في جيبي. وتفاقم الألم في حلقي حتى تعذر عليّ بلع ريقي، وأطبقت أسناني بشدة حتى استشعرت ألم فكيَّ.

وتخايل لي وجه أبي وهو جالس بطمأنينة، وعيناه الطيبتان تنقلان نظراتهما من اليسار إلى اليمين فوق المخطوطات المبسوطة على مكتبه المضاء بالشموع، وأصابعه تنقر على ركن المكتب، وشعره ذو الخصلات الرمادية ينسدل كأنه خيوط فضية.

ولكن المشهد انقشع وحل محله شبح هولاند. لم يكن الأمر مقصورًا على انبساط نفوذ والدتي في كل مكان حتى منطقة المضايق، أو أنها طاردتني بدفق ذكريات غير منقطع. إن دمها يجري في عروقي. ومهما يكن طول المسافات التي أقطعها لأنأى عنها، أدركت أنني لن أتخلص منها أبدًا.

22 سينت

تعتلي حانة جريف قمة أشد التلال انحدارًا في المدينة، وتطل نوافذها على الميناء. وراحت عيناي تحدقان إلى الشعارات المرسومة على أشرعة السفن الراسية هناك، ولم أستطع التفكير إلا في اليوم الذي سيخلو فيه هذا الميناء من سفن منطقة البحر المجهول.

لقد اعتقد الكثيرون أن فكرة استقلال منطقة المضايق بنفسها ضربٌ من الخيال، لكن كان ذلك قبل أن تنبسط شوارع سيروس على امتداد الساحل الصخري، ويتضاعف عدد الأرصفة المائية، وقبل أن يكون لدينا مجلس تجارة مستقل، وقبل أن يكون لدينا تجار ينافسون تجار مدينة باستيان. وبوسعي استشعار تغيُّر الأوضاع، كتغير شكل الرمال مع تكسر كل موجة على الشاطئ.

ربما لن أشهد ذلك في حياتي أبدًا، لكن ربما يحدث أن أراه. وأيًّا كان الأمر، فإن اليوم هو النقطة التي سيبدأ منها هذا الحلم حقًّا.

"مستعد؟".

تناهى إلى مسمعي صوت كلوف، فطرفت عيناي لأعود من عالم الخيال إلى أرض الواقع، والتفتُّ فرأيته واقفًا عند المدخل. لقد حلق ذقنه، فبدا أصغر من سنه، وتذكرت أننا ما زلنا صغيرين، لكنني لم أحس بذلك منذ أمد بعيد.

أومأت برأسي، وأخذت سترتي من الكرسي المجاور للسرير، ثم خطوت من فوق ناش الذي كان نائمًا على الأرضية، وهو يغط غطيطًا متكررًا.

لم تظهر إيزولد، ولم أتوقع منها ذلك. حين صعدنا إلى غرفتنا في وقت متأخر من الليلة الفائتة زارني طيف عابر من ذكرى ذلك اليوم الذي رأيت فيه إيزولد على السفينة ريفين

للمرة الأولى، حين كانت منزوية في عتمة غرفتي، لكن سرعان ما تتبعت عيناي ضوء الشموع عبر الغرفة، فلم أعثر عليها.

وقلت لنفسي إن عقلي سيكف عن الانجراف إليها، وأنني سأنسى الأحاسيس التي خالجتني عندما نظرت في عينيها في زقاق ديرن، أو عندما لمستها لمسة ذات مغزى دون تفكير على متن السفينة ريفين. أخبرت نفسي بأن تلك الأشياء سوف تتلاشى، وسوف أجتاز ذلك الانجراف إلى الماضي. وبصرف النظر عن مدى كذب ما أخبرت به نفسي، كان من السهل تصديقه في ظل امتداد ذلك المستقبل كله أمامي.

كانت الحانة خاوية حين هبطنا الدرج الذي تُصدر عتباته صريرًا حين نطؤها، لكن جريف كان يعمل بالفعل خلف منضدة الشرب، إذ انشغل بتنظيف الأكواب التي سيملؤها بعد قليل بالمشروبات. وتجمع ضوء الصباح على الأرضية الخشبية، فأضاء المكان الخاوي، لكن جمر المدفأة كان لا يزال يتوهج. وقد كانت الرائحة النفاذة لدخان الخشب قوية بما يكفي للتغطية على رائحة الجاودار المنسكب.

عندئذ سأل جريف بصوت غليظ، والرغوة البيضاء تغطي يديه: "شاي؟"، وكان خصره مطوقًا برباط مئزره، ورأسه الأصلع مكشوف دون القبعة التي كان يرتديها عادة.

ما زال جريف ينظر إليَّ أنا وكلوف بصفتنا الصبيين اللذين كانا يرافقان أبويهما في الماضي، وكان هذا هو السبب الذي يجعله يعطينا غرفة نبيت فيها حتى حين نعجز عن دفع ثمنها؛ لكنني كنت أدخر له أفضل مشروب جاودار في كل مرة نحضر فيها شحنة من إميليا، هذا ما كان سيفعله أبي.

قلت مجيبًا عن نفسي، ونيابةً عن كلوف، وأنا أزرر جميع عُرى سترتي: "لا، شكرًا".

أحسست باضطراب في معدتي بالفعل، وإذا احتسيت الشاي الأسود، فربما أتقيأ قبل أن أصل إلى مقر مجلس التجارة، ولم أقدر كذلك على تناول الخبز الذي أرسلته دايا - زوجة

جريف - وقت الفجر.

قال وهو يعود إلى عمله: "كما تشاء"، لكن ابتسامة ارتسمت على شفتيه وهو يضع الكوب المغسول على الرف، بدت أقرب إلى ابتسامة فخر. ثم أردف: "يُستحسن الانطلاق إذن".

لقد انقضت ساعة على الأقل منذ دق الجرس المُؤذن بفتح الميناء، وسيكون مجلس التجارة منعقدًا الآن. آخر مرة ذهبت فيها إلى مقر مجلس التجارة كنت أفرغ جيوبي من كل ما أملك من النقود لتسديد رسوم طلب الترخيص، وهي نقود لم نكن لنتمكن من ادخارها دون مساعدة جريف.

ساعدنا جريف على العثور على السفينة ريفين، وقد تساءلت أحيانًا ما إذا كانت تلك خدمة أم معروفًا أسداه لنا بأي وجه من الوجوه. لقد حازها بعض قليلي الحظ خلال لعبهم الورق في الحانة، ولم يكن لديهم أدنى فكرة عن أنها لا ترقى إلى أن تكون سفينة حقيقية. ومن ثم كانوا مسرورين جدًّا لبيعها لنا بثمن زهيد للغاية، وعلى الأرجح إنهم شعروا بالذنب لإحساسهم بأنهم أرسلونا إلى ملاقاة حتفنا بهذه السفينة. ولكن ها نحن أولاء على وشك حيازة ترخيصنا التجاري.

لم أشكر جريف قط على ما فعله من أجلنا. ليس على نحو مباشر، لكن تلك النظرة التي تألقت في عينيه ونحن ننطلق خارجين إلى الشارع جعلتني أعتقد أنني لست مضطرًّا إلى التعبير عن امتناني له بكلمات شكر منطوقة، وأنه يعرف مدى امتناني له من غير إفصاح.

وحاذاني كلوف بخطواته، فشعرت بثقة أكبر وهو بجواري. لقد استيقظت المدينة، وفُتحت واجهات المحال، وانطلقت العربات متوجهة إلى السوق. وفاحت في الجو رائحة البهارات والخبز والأعشاب المجففة، تحملها رياح البحر في الشوارع تحت متاهة الجسور المعلقة فوق الرؤوس.

وتألق شعاع الشمس ونحن نمر من تحت الجسور، فألقى ظلالًا على التراب تحت أقدامنا. لست أدري ما الذي سيفكر فيه أبوانا إذا تمكّنا من رؤيتنا الآن ونحن نمشي في شوارع سيروس وحدنا متجهين إلى مجلس التجارة لتسلم الترخيص الذي يُخوِّل لنا حرية الإبحار بين الموانئ وبناء تجارتنا الخاصة.

كان أبي يراوده هذا الحلم لي، وكذلك والد كلوف حلم بهذا له؛ لكنني تساءلت عما إذا كانا قد آمنا بذلك حقًا. إذ إنني لم أكن أؤمن بهذا الحلم خلال فترة طويلة.

ونظر كلوف في عينيَّ، وكأن الخاطرة ذاتها تحوم في رأسه، واختلجت شفتاه بابتسامة متوترة. لقد انتظرنا هذه اللحظة على مدار السنوات الثلاث المنصرمة، والآن نحن هنا.

إن مقر مجلس التجارة الجديد أحد أقدم المباني في سيروس، ويتميز بأربعة أبراج مجهزة بالمناظير المُقرِبة لمراقبة كل شبر من الأفق لرصد السفن والعواصف. لقد ابيضت جدرانه الحجرية من أثر الشمس، ومع أنه بدا هائل الضخامة حين وقفت أمامه في صباي، فقد بدا في عينيَّ أكثر ضآلة من ذلك كثيرًا الآن.

وقد أُدخلت عليه تجديدات، حيث أُدرجت فيه نوافذ جديدة، ورُكبت مفاصل ومقابض مصقولة في الأبواب المطلية ذات القمم المقوسة. وفي وسط خشب الأبواب المصقول نُقش الشعار المرسوم على ختم ميناء سيروس، كان ذلك جديدًا أيضًا.

وقفنا هناك، كتفًا لكتف، وترامى من ورائنا صخب إحدى أسواق المدينة. سوف ندخل إلى المقر ونحن في عداد العوام، وسوف نخرج منه ونحن في عداد التجار. حاولت أن أستوعب تلك الفكرة الهائلة.

عندئذ قال كلوف وابتسامته تزداد اتساعًا: "لقد أنجحت الأمر".

ولم تلح أية نبرة احتجاج في صوته الآن كما حدث الليلة الماضية، عندما حاول إقناعي بالتخلي عن الترخيص في سبيل استعادة النقود التي دفعناها للحصول على الترخيص،

وقد أحسست بالامتنان لذلك.

قلت: "أخبرتك بأنني سأنجح الأمر".

لقد وعدته، ووفَّيت بوعدي. ولن يعفيني ذلك من الأخطاء التي اقترفتها، بيد أنه يظل نجاحًا على الرغم من كل شيء.

فُتح الباب، وتدفق على جلدي الهواء العليل الذي برَّده الرخام داخل المبنى. ترددت قبل أن أجتاز العتبة، وجعلت أتحسس الجدار المغطى بورق الحائط بيدي ذات الجلد الخشن. وقد سقط الضوء المنسرب من الباب على الخطوط الذهبية المرسومة على ورق الحائط، فتألقت تلك الخطوط قبل أن ينغلق الباب ببطء مرة أخرى.

وثُبِّتت على طول الجدران شمعدانات فضية تفصل بين كل منها بضع خطوات، وكانت شموعها مشتعلة، ما أضفى على الردهة توهجًا غريبًا. أحسست كأننا غادرنا فجأة منطقة المضايق، ولم يرقني هذا الشعور.

انطلقت في الممر حتى وصلت إلى المنصة الطويلة الفاصلة بيننا وبين الغرفة من خلفها، وقد زُينت المنصة بفسيفساء تصوِّر شكل أمواج متعاقبة. ونظرت إلينا المرأة الواقفة على الجانب الآخر من المنصة من فوق نظارتها بلا مبالاة، وكانت ترتدي سترة مخملية حمراء ذات حواف لونها أرجواني لامع، وأصابعها ممتلئة بخواتم ذهبية.

وحدجتنا بنظرة ممحصة، وتنحنحت، ثم قالت: "كيف أساعد يا سادة؟".

سادة. جرى في خاطري أن كلوف قد يضحك، لكنه حافظ على رباطة جأشه.

سحبت الوثيقة من سترتي، وأعطيتها إياها، فتركت المرأة ريشة الكتابة، لكن نظرتها الممحصة لم تتحوَّل عنَّا حتى فَتحت الوثيقة أمامها.

ثم رفعت بصرها عن الورقة وقالت: "يبدو أنه يجدر بي تهنئتكما مقدمًا"، وابتسمت لنا ابتسامة صادقة، وخلعت نظارتها وطوتها بعناية، ثم قالت: "انتظرا هنا".

وبينما تهبط من المنصة، أخذ وقْع حذائها على الأرضية يتردد وهي تشق طريقها إلى البهو الضيق. وتحت النوافذ المرتفعة في الجدار المقابل جلس رجلان وامرأتان وراء طاولة خشبية تمتد بطول المساحة زينت بنقوش زخرفية.

وتناهى إلينا صدى الأصوات، ونظر إليَّ كلوف مرة أخرى قبل أن ترتفع عيناه صوب النجفة الكريستالية المعلقة من فوقنا، ثم تمتم: "أرى أنهم قرروا القيام بواجباتهم".

قلت: "يبدو الأمر كذلك".

انطوت الكلمات على دعابة، ولكنني لم أجدها دعابة مسلية. لم يضمر أبناء منطقة المضايق بُغضًا لأبناء منطقة البحر المجهول بسبب ما فعلوه في مياهنا فحسب، بل بسبب نمط حياتهم أيضًا. لقد استغرق الأمر سنوات لجعل النقابات كيانات يمكن أن تكون يومًا ما بذورًا لتشكيل مجلس التجارة، واليوم بعد أن بلغنا هذه النقطة، وصار لدينا مجلس تجارة، كانوا يحاولون جعل مدينة سيروس شبيهة بمدينة باستيان.

ظهرت المرأة مرة أخرى وهي تلوِّح لنا لننطلق إلى الأمام، وتقول: "من هنا"، وتبعناها عبر المدخل المفضي إلى الغرفة الطويلة المستطيلة، ولاح موقد كبير مزخرف بشعارات النقابات، تتأجج نيرانه عند أحد طرفي الغرفة.

جلس زعماء النقابات الأربع خلف الطاولة، متألقين في معاطفهم وأثوابهم الجميلة. وامتدت ظهور كراسيهم أعلى من رءوسهم بشكل واضح، حتى بدت كأنها عروش مصغرة، ولقد كانت عروشًا بطريقة ما.

تراصت أمامهم المحابر المطلية باللون الذهبي، ورزم أوراق بارتفاعات متفاوتة. وطوَّقت إحدى المرأتين عنقها بسلسلة يتلألأ بها حجر كبير الحجم، لدرجة أنه بدا مثل لهب فانوس

منير.

لقد نشأوا جميعًا في تلك الشوارع المحيطة، أو شوارع على شاكلتها، ومع ذلك، ها هم يتظاهرون بأنهم من ذوي الدم المملح. وعضضت خديَّ من الداخل كي أمنع ابتسامة مريرة تجاهد للظهور على شفتيَّ.

أمسك الرجل الجالس عند طرف الطاولة طلب استدعائي مفتوحًا في يديه، وتحرك شاربه الأبيض وهو يبتسم لي: "آه. إلياس، صحيح؟".

أجبته وأنا أعاود الإمساك برباطة جأشي بعد أن تزعزعت بعض الشيء من وقع الاسم: "صحيح"، لم أعد أحس بأن ذلك الاسم بات مألوفًا لي كما كان في الماضي.

قال: "أنا فاروس، زعيم نقابة صناع السفن، وهذه كورين، زعيمة نقابة الحدادين، وكذلك لدينا إدجار، زعيم نقابة الأحجار الكريمة، وإيرفا، زعيمة نقابة صناع الأشرعة".

أومأ كل منهم برأسه أثناء نطق اسمه، حين كان صوت الرجل يتردد من حولنا دون أن يقاطعه سوى صوت تأجج النيران، وشاع دفء وهج النيران عبر الغرفة مهيئًا أجواء تشبه الأجواء الخيالية.

ابتسمت المرأة التي ناداها فاروس بإيرفا قائلة: "إنه لشرف أن ألتقي بك يا بني"، وعلى الرغم من قولها يا بني، فإن نبرتها خلت من حنو الأمومة. ومرت بعينيها نزولًا من وجهي إلى أسفل صدري بطريقة لم أغفل عنها، وأردفت: "أنت من أوائل قباطنة منطقة المضايق الذين تشرفنا بمنحهم ترخيصًا تجاريًّا، ولن تكون الأخير".

نقر إدجار على الطاولة بمفاصل أصابعه قائلًا: "مرحى! مرحى!".

سُمع دبيب أقدام مرة أخرى قبل أن تظهر المرأة التي رأيناها عند المنصة، وهي تحمل على ذراعيها حزمة مُثلثة ملفوفة بورق بني، ووضعتها بجوار إيرفا، ثم ذهبت بعد أن ألقت نظرة

أخرى علينا.

شبَّك فاروس يديه أمامه، وقال: "تذكُر هنا أن لديك سفينة؛ السفينة أستر".

قلت: "بلى. تكاد تكتمل ونحن نتحدث الآن، وستكون جاهزة للإبحار مع عودتنا إلى ديرن".

قال: "هذا جيد. لا نريد أن يبحر تجارنا على متن سفن متهالكة، أليس كذلك؟".

وانحرف فمه بابتسامة هزلية، كأنني أشاركه فهم الدعابة التي ألقاها من فوره، كأننا متشابهان ورؤيتنا واحدة. لم يكن لديه أدنى فكرة عن مدى خطأ ظنه ذلك.

وعاد يسأل: "وهل لديك طاقم بحَّارة؟".

أجبته نصف إجابة فقط، وأنا أشير إلى كلوف: "هذا ملَّاحي". كان كلوف بحارًا، بيد أنه يمثل طاقم بحارتي كله.

قال: "حسنًا، أنا متأكد من أنك ستنتقي بقية الطاقم حالما تتسلم السفينة أستر".

وأصدرت إيرفا صوتًا ينم عن موافقتها على هذا الكلام، ثم حملت الحزمة المغلفة بالورق، ونهضت والتفت حول الطاولة. وعندما توقفت أمامي مدت يدها بالحزمة نحوي، ثم غمزت، وقالت: "سيكون عليك رفع ذلك الشعار إذا أردت إعلام مديري الموانئ بهوية السفينة الواردة".

تسلمت الحزمة منها، ومن وزنها أدركت أنه قماش شراع. قماش نظيف أبيض غير مخيط يحمل الشعار الذي سنكون معروفين به بقية حياتنا.

ونهض فاروس، وتوجه إليَّ هو الآخر، ونهضت الأخريان، والكراسي تحتك بالأرضية الرخامية. ثم تنحت إيرفا جانبًا وشبكت يداها خلف ظهرها، ورفع فاروس ورقة مطوية

مربوطة بشريط حريري أحمر. عندئذٍ ازدردت ريقي بصعوبة وأنا أحاول إبقاء يدي ثابتة وأنا أتسلم الورقة منه.

قال: "حسنًا، هيا".

سحبت طرف الشريط، وتركت الورقة تنبسط أمامي، وأحسست بأن شعور الشد في حلقي يتحوَّل الآن إلى غصة مؤلمة.

ولاحت في قمة الورقة الحروف الرشيقة المائلة والمكتوبة بالحبر الأسود اللامع، وتحتها نُقِش الشعار الذي جعلتُ الحداد يصممه لنا، عبارة عن موجة ملتوية تتقوس فوق شراع واحد مثلث الشكل.

بموجب سلطة
مجلس تجارة منطقة المضايق

تشهد هذه الوثيقة بأن حامل هذا الشعار
مرخص له بالتجارة بين موانئ سيروس
وديرن وسوان.

القبطان: إلياس ريدجريف

23 سينت

حين عدنا، كان جريف قد جهَّز زجاجة الجاودار لفتحها؛ زجاجة من أفضل الزجاجات التي حرصت زوجته دايا على ادخارها للمناسبات الخاصة.

اكتظت الحانة بالناس، وتردد عزف آلة كمان في مكان ما فيها وراء الحشد المكتظ بين الباب والمنضدة. كانت ليلة حافلة، امتلأ الميناء وامتلأت الحانات، ولم نكن الذين نحتفل وحدنا. وانتشرت الأخبار في سيروس بأن مجلس التجارة قد منح أربعة تراخيص تجارية اليوم، أي أننا صار لدينا أربع سفن، وأربعة شعارات، وأربعة قباطنة بمقدورهم الإبحار إلى منطقة البحر المجهول والمتاجرة هناك. وغدًا سوف نذهب إلى الميناء لنفسخ عقود ذوي الدم المملح ونكتب عقودًا جديدة مع أبناء جلدتنا.

وضعت دايا رغيف خبز طازجًا وسط المائدة، وهي تحرص على ألا ينسكب شيء من الإبريق الذي تحمله بيدها الأخرى. وبوسعي أخيرًا أن أتحمَّل إدخال شيء إلى جوفي الآن بعد أن حُزت الترخيص، وكنا بالفعل نحتسي إبريق الشاي الثاني. ومد كلوف يده نحو الطبق، وشطر الرغيف إلى نصفين، تاركًا نصفه لي. ثم وضع كومة من الزبد على قمته قبل أن يقضم قضمة كبيرة من شأنها أن تخنقه.

ثم قضم قضمة أخرى قبل أن يبتلع الأولى قائلًا: "لا أطيق صبرًا لرؤية وجه جيريك حين يعلم الخبر".

على الأرجح سوف يتفحص مدير ميناء ديرن الترخيص مفتشًا عن أمارات تزوير قبل أن يسلِّم بصحته، ولا يمكنني لومه؛ لقد كذبنا عليه كثيرًا طيلة سنوات لنتملص من رقابته حتى نتمكن من تحقيق النجاح الذي وصلنا إليه، والناس في منطقة المضايق لا يثقون

بأحد بسهولة. ومن حسن الحظ أننا لم نكن بحاجة إلى عملة الثقة تلك في التعامل معه، فالعقود التجارية هي الشيء الوحيد المهم، ونفوذ مديري الموانئ لا يمتد إلى تلك العقود.

جلس ناش يرنو إلينا من مائدته التي تفصل بيننا وبينها بضع موائد. ثم رفع كوب الشاي في الهواء وهو يحني رأسه تحية لنا، حتى هو كان عليه أن يقر بأننا اتخذنا الخطوات الصحيحة، ونجحنا في مسعانا. صبيان ابتعدا عن شواطئ قرية كراجسماوث قد حققا المستحيل. ولست أكترث بكم يبلغ عدد ذوي الدم المملح الذين ملأوا جيوبهم بنقودنا، فسوف أسترد كل عملة نحاسية أخذوها منا.

سألني كلوف: "أتظن أن زولا حاز أحد تلك التراخيص؟".

قلت: "أظن ذلك بالفعل. وإن لم يكن قد حازه بعد، فسوف يحوزه عما قريب".

كان لديه أصدقاء كثر وعلاقات كثيرة قائمة على المصلحة، ومن ثم هو يحظى بدعم كبير يجعل حظوظه وافرة لحيازة الترخيص. ورجوت أن يشغله الترخيص الجديد عن ملاحقة خبيرة الأحجار الكريمة التي فرَّت منه. ولكن أيًّا من يكون ذلك الشخص الذي أبرم معه صفقة نقل الخبيرة، فلن ينسى الأمر بسهولة.

ارتكزت بمرفقيَّ على المائدة، وقلبت كفي، فرأيتها خلوًا من الضمادة التي ربطتها إيزولد، ولكن ثمة إحساسًا باقيًا مكان لمستها، كأنه حرارة لهب شمعة قريبة جدًّا.

قال كلوف: "سوف يُصدم بشدة حين نبحر بالسفينة أستر من ديرن".

ضممت يدي، فوخزتني ندبة الجرح الحديث في كفي، وقلت: "نعم، سوف يُصدم".

تحوَّل كلوف إلى حديث العمل بالكلية الآن، وقال بتركيز: "لن يقوم عملنا على الجاودار إلى الأبد، سوف يستقر تدفق العمل إذا اعتمدنا عليه، ولكنه لن يكون كافيًا لتنامي تجارتنا، سنحتاج إلى مصادر أخرى. وثمة مزارعون آخرون سوف يسعون لتوقيع العقود معنا.

يمكننا المتاجرة بالبطاطس والشعير والجبن، أي شيء يمكن نقله دون أن يفسد. وبوسع إميليا مساعدتنا على هذا المسعى".

سألته وأنا أتفحصه: "والأحجار الكريمة؟". لن يكون من السهل الإفلات من اتفاقنا مع هنريك.

أجاب: "أرى أن التجارة في الأحجار الكريمة محفوفة بمخاطر جمة، حتى إن كانت أحجارًا كريمة غير مزيفة".

لقد كان محقًّا. إن اقتصاد منطقة المضايق ومنطقة البحر المجهول قائم على تجارة الأحجار الكريمة، وما من أحد ينكر أن تلك التجارة تدر أرباحًا أكثر كثيرًا من المتاجرة بصناديق التفاح أو الخضراوات.

قلت: "فلنتجه للمزارعين إذن".

بدا عليه الارتياح، وبالطبع أعرف السبب. وكان كلوف يمثل صوت العقل، كان هو المتأني الذي يركن إلى الصبر وانتظار مغنمه. أما أنا فقد كنت المتعطش الذي لا يرتوي أبدًا، وقد أقحمنا طبعي هذا في ورطات، لقد كلفنا كل شيء تقريبًا.

ناداني كلوف مقاطعًا أفكاري: "سينت؟"، رفعت عينيَّ عن طبقي.

كان قد شخص ببصره عبر الغرفة مثبتًا عينيه على شيء، وتقوَّس حاجباه، فيما لا يزال فمه ممتلئًا. فالتفتُّ وأنا جالس ورحت أفحص الحانة ببصري، حتى رأيت ما كان ينظر إليه. بين الرجال الواقفين لاحت التماعة جديلة حمراء داكنة متسللة من أسفل غطاء رأس ملحق بسترة، ثم اختفت.

وعندما استدارت بدا وجهها.

إيزولد.

كان كم سترتها ملطخًا بالطين، ووقفتْ وقفة مثقلة كأنها ترزح تحت وطأة شيء ثقيل، ولم تتسم وضعية جسمها بالاستقامة والثقة المعهودة، حيث بدت كأنها مضغوطة في الأرض. وشدت جديلتها المنسدلة خلف أذنها وهي تفحص الحانة بعينين منطفئتين، وحين عثرت علينا لمحت أثر ارتياح فيهما، أو لعله كان شيئًا آخر.

تمتم كلوف: "عجبًا، انظر إلى ما أرى!".

لكن عندما نظرت إليه لم يكن ينظر إلى إيزولد، بل يرنو إليّ.

اندفعت إيزولد نحونا تشق طريقها بين الحشد، فعدت أنظر في طبقي وأنا أحاول التقاط أنفاسي بطريقة طبيعية على الرغم من الانقباض الذي اجتاح صدري مرة أخرى. كنت متأكدًا من أننا لن نراها مرة أخرى أبدًا، وفي الوقت ذاته كنت أرجو مع كل نفس من أنفاسي أن أكون مخطئًا.

وتزحزح كلوف مفسحًا لها مكانًا بجواره، وهو يقول: "هذا اليوم يمضي من حسن إلى أحسن".

وتوقفتْ عند زاوية المائدة، وإحدى يديها تحافظ على بقاء حزام التجريف على كتفها وكأنها تنتظر إذنًا، مني.

سألتها من غير أن أرفع عينيّ تجاهها: "أنجزتِ ما كان عليك إنجازه؟".

أجابت: "ليس بالضبط".

رفع كلوف يده ليجذب انتباه دايا إليه، ثم أشار إلى كوب الشاي أمامه، فأومأتْ له قبل أن تدخل المطبخ.

ثم أشار إلى المقعد المجاور له وهو يقول لإيزولد: "حسنًا؟"، وشعرت بأنها ترمقني مرة أخرى. وعندما لم يبدر مني احتجاج جلستْ على المقعد.

ثم سألتْ بنبرة لاح فيها أثر طفيف من المرح في محاولة للتخفيف من حدة توتر الأجواء حول المائدة: "هل وجدت أحدًا يتولى مهمة التجريف؟".

إذا كانت تلتمس طمأنينة، فلن أطمئنها. لقد قدَّمت إليها العرض بالفعل، ولن أتراجع عنه، وبما أنها أمامي الآن، فأنا أعلم أنها قد قبلت العرض.

عندئذ قال كلوف: "بمجيئك صار لدينا جرَّافة".

ومع ذلك ظلَّت عينا إيزولد مصوبتين نحوي، بيد أنني لم أنظر إليها. هذه خطوة فارقة، نقطة لا رجوع عنها، ولم أكن متأكدًا من أنني أعرف إلى أين سيأخذني هذا الطريق، ولم أكن متأكدًا من أنني أردت أن أعرف ذلك أيضًا.

وظهرت دايا مرة أخرى حاملة كوب شاي نظيفًا، ونظرت إليَّ ثم إلى كلوف قبل أن تثبت عينيها على إيزولد. وعلى عكس إميليا، فإن دايا تعرف كيف تمسك لسانها. لكن تلك النظرة أفصحت عن كل ما لم تنطق به، فرؤيتنا نحن الاثنين جالسين إلى مائدة رفقة شخص لم تره من قبل كان أمرًا غريبًا جدًّا.

ثم انصرفت دايا، ودفع كلوف إبريق الشاي نحو إيزولد.

تساءلت إيزولد وهي ترنو إلى الورقة الملفوفة بجواره على المائدة: "أهذا هو الترخيص؟".

فأجابها: "بلى".

وسكبتْ إيزولد الشاي من الإبريق إلى الكوب، لكنها لم تلمسه. ثم قالت باقتضاب: "تهانيَّ". لقد اعتراها تغيُّر ما، ليس فقط في مظهرها حين دخلت من الباب. لقد غاب الغضب المكتوم الذي دائمًا ما أحسست به يتأجج في نفسها، وحل محله شيء آخر لم أستطع تبينه.

ولكزها كلوف بمرفقه قائلًا: "مع ذلك لست أعرف ما شعوري حيال انضمام فتاة من ذوي الدم المملح إلى الطاقم".

اختلجت شفتاها بابتسامة لا تكاد تظهر. لقد أصبحت أتوقع ظهور ذلك التعبير على محياها قبل أن يظهر، كأنما صار مألوفًا عندي، وكذلك بدأت أعتاد الشعور الذي يخالجني حين أرى ذلك التعبير.

ثم قالت مازحة وهي ترفع كوب الشاي أخيرًا: "أتصور أنني أفر من وغد لأقع بين أيدي وغدين".

حملت الكوب كما يحمله أبناء منطقة البحر المجهول، لكن تلك الحدة في صوتها كانت أقرب لأبناء منطقة المضايق. وتساءلتُ للمرة الأولى عما إذا كانت قد ولدت في الساحل الخطأ.

وضعت إصبعها على الحزمة المغلفة مثلثة الشكل الموضوعة بجوار طبقي، وتحوي القماش المرسوم عليه شعارنا، التي أعطتني إياها إيرفا وأنا أتسلم الترخيص، وقالت: "أتسمح لي؟".

أومأت بالإيجاب.

وغير كلوف وضعية جلوسه حتى تتسنى له الرؤية من فوق كتفها. قامت إيزولد بقطع إحدى زوايا الغلاف قبل أن تشقه، وتألق القماش الأبيض الناصع في الضوء الخابي. وشاهدتها وهي تفض الغلاف بحرص، وبسطت القماش في حجرها حتى تتمكن من رؤية الشعار كاملًا، موجة تتلوَّى فوق شراع مثلث الشكل.

راحت تتحسس الشعار بطرف إصبعها، ثم قطبت جبينها، وقالت: "يبدو كأنها..."، وانحبست كلماتها قبل أن تستأنف قائلة: "يبدو كأنها سفينة تغرق".

قلت: "بلى".

لم ينظر إليَّ كلوف، بيد أنني استطعت ملاحظة تغير جلسته. لم أكن قد أريته إياه بعد أن جعلت الحداد يصممه، لكنه كان الشعار الذي قدمته إلى المجلس مع طلب الترخيص، وقد كان له معنى لا يعرفه أحد سوانا.

وتساءلت إيزولد: "أليس هذا جالبًا للشؤم؟".

هززت رأسي، وقلت: "حظنا ليس عاثرًا".

تمتم كلوف: "ليس بعد الآن"، فحوَّلت إيزولد رأسها صوبه، لكنه لطَّف الأجواء بابتسامة صغيرة وهو يميل برأسه في بادرة ودية. وانطلقت عيناه صوب النافذة، ثم قال: "غربت الشمس. حان وقت الجاودار".

سألتُه: "وهل مثلك ينتظر غروب الشمس لتجرُّع الجاودار".

نهض كلوف قائلًا: "صدقت".

وحدقت إيزولد إلى الشعار هنيهة أخرى قبل أن تعيد طي الشراع، ولفه، ثم وضعته على المقعد بجوارها.

شق كلوف طريقه صوب منضدة الساقي مناديًا: "جريف!".

وقالت إيزولد وهي تعقد ذراعيها على المائدة: "لقد صار الشاي باردًا".

هبطت عيناي صوب الكوب. وترسب الثفل في قاعه، فبدا في سواده كأنه قطران. بيد أنني لم أكن أعرف مغزى تعليقها، ربما هذا أسلوب لتسألني عما إذا كان ثمة خطب ما. وكان هذا هو السؤال ذاته الذي أردت أن أطرحه عليها، بيد أنني لن أفعل.

ثم رفعت عينيَّ تجاهها، لكنني أرسلت بصري إلى مستوى كتفها فقط، وقلت: "إذن غيرتِ رأيك".

انتصب جذعها، وانخفض ذقنها، وهي ترنو إليَّ عبر المائدة، وقالت: "إن كنت سأنضم إلى طاقم فحري بي ألا أنضم إلى طاقم يحاول بيعي لتاجر أحجار كريمة".

قلت: "يعرف زولا حقيقتك. تلك المشكلة لن تختفي".

قالت: "فلعل السؤال الأفضل إذن هو لماذا قررت أن تضمني إلى طاقمك. ولا ترد بالجواب الذي قلت لي إياه على متن السفينة ريفين. إن ضم خبيرة أحجار كريمة ليس أذكى طريقة لتدشين طريق تجاري".

الحق أن السبب مبهم بالنسبة إليَّ. كان كلوف محقًّا في أن إبعادها عن يدي زولا مصلحة لنا، كما أنني بحاجة إلى من يتولى مهمة التجريف في طاقمي. ومع ذلك لست أبله لأخادع نفسي، وأنفي حقيقة أنني لم أرغب في أن تبتعد عني.

قبل أن أجيب، انفتح باب الحانة، وأعقب ذلك صمت مفاجئ ساد المكان، والتفتت أنا وإيزولد.

تألق وميض أخضر لامع عبر الحشد، حيث زينت الأزرار اللامعة كتفي سترة كلا الرجلين اللذين أوحى مظهرهما بأنهما غريبان جدًّا عن هذا المكان، كانا تاجرين من ذوي الدم المملح.

عادة لا يغامر ذوو الدم المملح بالتوغل إلى هذا الحد في سيروس، ولو لطلب الجاودار، فثمة حانات قريبة من الميناء يمكنهم شرب الجاودار فيها. إن هذين الوغدين يتحينان فرصة للعراك بمجرد مرورهما عبر ذلك الباب.

انقشع الصمت الباعث على الاضطراب مع انطلاقهما صوب طاولة الساقي، حيث كان جريف يُسلِّم ثلاثة أكواب من الجاودار إلى كلوف. وراح الرجلان يفتشان الوجوه من حولهما كأنهما يبحثان عن شيء معين. واتقدت عينا كلوف الزرقاوان مع انعكاس ضوء النار عليهما وهو يرنو إليها من طرف عينه، ولم ترقني الابتسامة الماكرة التي اختلجت بها زاوية فمه.

وعبر المائدة انكمشت إيزولد على نفسها، ولملمت شعرها خلف أحد جانبي وجهها، وضغطته في سترتها. واتسع بؤبؤا عينيها حتى كادا يخفيان قزحيتي العينين تمامًا، وهي تلاحق الرجلين ببصرها، وجعلت تعض شفتها السفلية بقوة شديدة جعلت الدم يفر منها.

قلت هامسًا وأنا أومئ بذقني تجاه التاجرين: "أيًّا يكن الأمر، فإنني أحتاج إلى معرفته".

وانتظرت أن تومئ لي، غير أنها نهضت ووليت ظهري للحانة حتى أخفيها عن أعين التاجرين، ودسست يدي في جيبي لأخرج مفتاح غرفتنا.

قلت: "الطابق العلوي. الباب الثالث على اليسار".

نهضت بهدوء، آخذة المفتاح معها، لكن أصابعها مكثت قابضة على أصابعي هنيهة قبل أن تتسلل عبر الموائد المجاورة لموقد النار، وما هي إلا ثوانٍ حتى غابت في الطابق العلوي.

كان الرجلان في الحانة مشغولين جدًّا بالتحدث مع جريف لدرجة أنهما لم يتمكنا من ملاحظتها، لكن عينيَّ التقتا بعيني كلوف الواقف خلفهما. حيث أمسك بزجاجة الجاودار التي وضعها جريف، وارتسمت على شفتيه تلك الابتسامة الماكرة، فبدت عضلات فكه المشدودة.

تنهدت وأنا أهز رأسي. وتحركت شفتاي بكلمة: لا تفعل.

لكن الأوان قد فات بالفعل.

تقدم كلوف خطوة، وأمال جسده جانبًا ليخبط كتف الرجل الأول.

غمغمت وأنا أسرع من خطواتي: "سحقًا".

ومال كلوف إلى الوراء كأنه فقد توازنه، ورفع يده التي كانت تحمل زجاجة الجاودار المفتوحة لينسكب السائل على الرجل. ثم قال: "معذرة"، وجعل ينظف كم سترة الرجل بظهر يده، والسائل ينسكب في كل مكان.

وارتفعت يد الرجل، ممسكًا بتلابيب كلوف، وهو يغمغم: "ما هذا...".

ودوى صوت كلوف لافتًا انتباه جميع مَن في المكان: "معذرة. أعتذر يا سيدي. من فضلك دعني أساعدك"، وأسقط الكئوس الخضراء فتحطمت عند قدميه، وفي الوقت ذاته مد يده نحو الرجل ساكبًا نصف زجاجة الجاودار في طوق سترته.

بالكاد حبس ضحكته وهو يقول: "يا للأسف. إنها سترة رائعة".

بدا جليًا الآن أنه يفعل ذلك عمدًا للاستهزاء، فامتقع وجه الرجل واتسعت فتحتا أنفه.

وفيما أحث الخطى، أزحت كرسيًا من طريقي.

ثلاث خطوات، خطوتان.

طوح الرجل قبضته إلى الوراء بينما يده الأخرى قابضة على كلوف، ثم هوى بها بقوة على خد كلوف، فانتثرت دفقة دم على الجدار المجاور له، وترددت صيحة في المكان، ولكن حين رفع كلوف وجهه مرة أخرى لاح الصفاء في عينيه، ولاحت ابتسامة على شفتيه.

وصلت إليهما، والرجل يطوح قبضته مرة أخرى، فأمسكته من سترته وجذبته إلى الخلف، وقلت كاذبًا: "إنه سكران. دعك من هذا".

لكن التاجر لم يقتنع. أي شخص ينظر إلى كلوف يعرف حقيقة الأمر، وجميع من في الغرفة كانوا مستمتعين.

استل الرجل من حزامه سكينًا لها مقبض ذهبي، ورفعها بيننا ملوحًا بها، واندفع كلوف إلى الأمام مرة أخرى. وانطلق الرجل الآخر نحونا، وارتطم ظهري بالجدار بقوة وأنا أتفادى نصل السكين.

وقف الحضور جميعًا واعتلوا المقاعد لمشاهدة العراك. ونظر الرجل إلى الوراء وهلة كانت كافية لأمسك بحلقه وأدفعه صوب المنضدة، ومن ورائي كان كلوف يسدد لكمة إلى بطن زميله.

لاحظت بطرف عيني التماعة النصل والرجل يطوح سكينه مرة أخرى، لكن الأوان كان قد فات لأتفاداه، فارتميت بوزني إلى الوراء بحركة التفافية؛ على أمل أن تصيب السكين جانبي بدلًا من أن تُغمد بين أضلعي وتصل إلى رئتي. لكن في اللحظة التي كنت أنتظر فيها انغراس النصل في جسدي، انثنت ركبتا الرجل فجأة، واعترى وجهه تغير قبل أن يهوي ساقطًا على الأرضية.

ومن خلفه وقف ناش ويده قابضة على زجاجة الجاودار المكسورة التي ضرب بها الرجل في الحال، وكانت عيناه متسعتين كأنه فوجئ مما فعله مثلما فوجئت أنا به. لكن نظرة الصدمة تحوَّلت إلى نظرة ابتهاج وهو يرفع عينيه نحوي لاهثًا.

تنهدت وقلت له: "شكرًا".

انزلقت الزجاجة من بين أصابع ناش وهو ينطق الكلمات وسط لهاثه: "على الرحب والسعة".

أمسكتُ بتلابيب التاجر وسحبته خطوة بعيدًا عن طاولة الساقي، وفي الوقت ذاته كان الناس يسوقون زميله تجاه الباب، فتبعتهم ساحبًا ذاك الوغد ورائي. وملأ مذاق الدم فمي،

وتشتمت رائحته في الهواء، كما تلطخت الأرض ببقعه.

سحبته حتى خرجنا إلى الشارع، ثم طرحته أرضًا على الحجارة المبتلة، وحين رفعت عينيَّ كان كلوف بجواري.

جاء صوت جريف من ورائي يقول للرجل الطريح: "انهض قبل أن يقرر هؤلاء الحمقى الاستمتاع بك"، وأردف: "إن هذين الولدين قد حازا شعارًا تجاريًا اليوم، ولا تحسبن أن مجلس التجارة سيتهاون في الأمر إذا وجدهما ميتين صبيحة الغد".

وخلف الباب كان جميع مَن في الحانة يرقبون المشهد من كثب.

تبادل التاجران النظرات في صمت قبل أن ينهض الرجل الملقى على الأرض، ليحدجني بنظرة تحدٍّ، ثم بصق على الأرض. وارتسمت ابتسامة على شفتيَّ، ولا يزال قلبي يتواثب في صدري على نحو جعل الدم يندفع في عروقي. ولم أستطع التظاهر بأن مثل تلك الأحداث لم ترقني كما راقت كلوف، والاختلاف اليوم فقط أننا نتمتع بحماية مجلس التجارة.

توارى الرجلان عند المنعطف، ونظرت صوب نافذة غرفتنا المطلة على الشارع، فلمحت يدًا تمسك الستارة، لكن إيزولد كانت غارقة في الظلام.

قال جريف: "هيا"، وتنحَّى جانبًا في انتظار دخولنا، ثم تبعنا، وأغلق الباب.

افترق الحشد في الحانة مفسحين لنا مسارًا. وفتح جريف زجاجة الجاودار التي جهزها لنا، ونفضت دايا كتفي سترة ناش وهو جالس قبل أن تشير إلى الرجلين الجالسين على المقعدين المجاورين له ليفسحا مكانهما، فامتثلا لإشارتها، وأخذ كل منهما كأسه واتكأ على الجدار.

قال كلوف وهو يرمق ناش بنظرة ممحصة: "إنه يوم مُترع بالمفاجآت".

طرف ناش بعينيه عدة مرات، وبدا مصدومًا بعض الشيء، ثم قال: "لا يمكنني العودة إلى بلدي إذا انتهى بكما المطاف جثتين في أحد الأزقة".

رفع كلوف حاجبيه قائلًا: "لم أكن أعلم أنك قادر على ذلك. يتعذَّر عليَّ تصديق أن سترتك الجميلة تلطخت بالدماء".

قال ناش: "ثمة مرة أولى لكل شيء".

ارتكز جريف على منضدته بيديه، وراح يرمقنا نحن الثلاثة، في حين رحت أنا أمسح الدم عن شفتي، ثم هز رأسه في صمت وهو يمد يده نحو كومة الكئوس الخضراء، ويحضر ثلاثًا منها.

عادت الحانة إلى أجوائها الطبيعية، واستأنف الناس أحاديثهم، وملأ جريف الكئوس بالجاودار قبل أن يغلق فوهة الزجاجة بالسدادة، وينتقل إلى الشخص التالي الواقف أمام المنضدة. ولم يكلف أحد نفسه عناء مسح الدماء عن الأرض.

ورجع ناش إلى طاولته أمام موقد النار بعد احتساء كأس واحدة، أما أنا، فوضعت السكين ذات المقبض الذهبي أمامي، ورفعت الكأس، ثم صوبت نظري نحو كلوف قبل أن أتجرع الكأس دفعة واحدة، وقلت: "أنت وغد غبي".

هز كتفيه. كانت ذراعه تنزف من تحت قميصه، حيث كشط طرف السكين جلده. ثم دس يده في جيبه، وأخرج في يده سلسلة ذهبية وزرارين نحاسيين، سلبها جميعًا أثناء الشجار، ووضعها بجوار السكين.

ثم قال: "هما من بدآ الشجار".

قلت: "إنني على يقين أنك مَن بدأته".

مال رأسه إلى الوراء وأفرغ الجاودار في جوفه، ثم قرع بقاعدة الكأس المنضدة فيما يشي بإحساس انتصار، وتنهد قائلًا: "لا. لقد بدأ الأمر أصلًا منذ أول مرة جاء فيها هؤلاء الأوغاد إلى مياهنا". ورفع كأسه وحك به كأسي، ثم قال: "ونحن يا صديقي سوف ننهي ذلك".

24 إيزولد

ما هي إلا دقائق حتى انفضت الجلبة، وعادت الحانة إلى الهدوء عقب إخراج التاجرين. كان ذلك مشهدًا من شأنه أن يثير الفزع في نفس والدتي؛ زمرة من رعاع منطقة المضايق يرمون تاجرين من تجار منطقة المضايق في وحل الشارع كأنما يرمون دلو فضلات.

كان هذا ما تخشاه هي، وما تخشاه النقابات، وما يخشاه مجلس التجارة كله في مدينة باستيان. يومًا ما سوف تستقل منطقة المضايق بأمرها وتقوى شوكتها، ويومئذ سوف تنشب حرب على البحار التي كانت لقمة سائغة لمنطقة البحر المجهول من قبل.

كان سينت محقًّا في فكرته بأن الأمور تتغيَّر، ولكن في أي اتجاه سوف تهب رياح التغير؟ لم أشعر مطلقًا بأنني منهزمة حقًّا أمام والدتي حتى لحظة وجودي في مكتب زعيم الأحجار الكريمة، حين رأيت تلك الريشة، لم أشعر مطلقًا بوطأة قوتها كاملة من قبل. لم أقلل من شأني لهذه الدرجة من قبل، ولا أحسست بأنني بلا حيلة هكذا من قبل، اللهم إلا في ليلة العاصفة على متن السفينة ريفين.

كنت أعرف حق المعرفة مدى القوة التي حظيت بها منطقة البحر المجهول، ومبلغ ثرائها، وارتأيت أن منطقة المضايق لا تحظى إلا بالنزر اليسير. ولكن عندما يبدأ قباطنة منطقة البحر المجهول خسارة عقود التجارة لصالح تجار منطقة المضايق، سوف ينقلون هذه الأخبار إلى التجار في باستيان، ومن ثم سيشتعل الجحيم. ولهولاند يد وراء كل ما يحدث.

إن الغرفة التي استأجرها سينت من صاحب الحانة لم تكن مختلفة عن غرفته على متن السفينة ريفين. كانت بسيطة، وخالية من أية زينة. وكانت تحوي سريرين صغيرين على كل منهما لحاف يختلف عن الآخر، وثمة فراش آخر بجوار أحد الجدران يمكن أن يُتخذ سريرًا مؤقتًا.

وعلى عمود من أعمدة السرير عُلِّقت العلبة الأسطوانية التي رأيتها على متن ريفين، ولا يزال غطاؤها مغلقًا بإحكام. كانت تلك العلبة هي الغرض الوحيد في غرفة سينت الذي لم يكن على استعداد لتركه يغرق مع السفينة إن غرقت، وكانت هي الغرض الوحيد الذي أخذه معه حين غادر السفينة. لم تكن تلك الخريطة مجرد رسم، بل كانت تحمل رؤية مستقبلية حقيقية، سوف تتسبب في تبعات توجع القلب حين تخطر في الذهن. كان بوسعه استشراف ذلك المشهد المستقبلي، حيث الموانئ محمومة بالنشاط، والأسواق مزدهرة، والسفن التجارية تبحر بحمولات كبيرة، والنقابات قوية النفوذ.

حين غادرت باستيان ومعي حجر قلب الليل ظننت أنني أمتلك وسيلة ضغط على والدتي لا يمتلك مثلها شخص آخر، بيد أنني كنت مخطئة. إن نفوذ والدتي لم يكن قائمًا فقط على تجارة الأحجار الكريمة، أو حجر قلب الليل الفريد من نوعه الذي أعطيتها إياه، بل كان قائمًا أيضًا على حلمها بغزو السواحل خارج منطقتها، قائمًا على تلك الشهوة الضارية للسيطرة. كنت أرى طيلة حياتي الخصوم عاثري الحظ الذين ثاروا ضدها، والمخططات والتآمرات التي حيكت على أمل دحرها. بيد أنها لم تلقَ خصمًا كفئًا لها قط، نداً كسينت حين تتحقق رؤيته على أرض الواقع.

ولسوف تتحقق، سوف أحرص على ذلك بنفسي.

هذا التاجر الذي ظهر من العدم، وصار أسطورة، هو عدوها الذي لا تعلم بوجوده، ولعله لا يأبه كثيرًا بهولاند؛ تاجرة الأحجار الكريمة عظيمة الشأن في منطقة البحر المجهول. لم يكن يحاول استلاب شيء من أحد أو التحايل، كان فقط يحاول تشييد شيء ذي قيمة والحفاظ عليه.

رفعت عينيَّ تجاه المرآة الصغيرة المعلقة على الجدار فوق الحوض، فرأيت انعكاس صورتي، وظهرت ملامحي حين تقدمت إلى البقعة المضاءة بنور القمر المنساب من النافذة. واستللت السكين من حزامي ببطء، ولففت جديلتي حول أصابعي حتى جعلتها مشدودة بقوة.

ما من فرصة لهزيمة هولاند، أو لجعلها تدفع ثمن ما اقترفته بضربة واحدة، ليس وهي مسيطرة على الاقتصاد بدءًا من مدينة سيروس وصولًا إلى مدينة باستيان. بيد أنني أدركت لحظتئذ أن القدر قد ساقني لأكون على متن سفينة الشخص الوحيد الذي قد يكون قادرًا على جعل أفظع كوابيس والدتي تتحقق على أرض الواقع.

وضغطتُ نصل السكين على جديلتي، ونظرت إلى انعكاسي صورتي في المرآة وأنا أحرك النصل جيئة وذهابًا. وخلا وجهي من أي تعبير، أحسست بفراغ من نوع ما، لكن ذلك لم يبث الخوف في نفسي، بل دفعني إلى التفكير للمرة الأولى في أنني ربما أملأ تلك المساحة بأي شيء أريده.

جزَّ النصل الجديلة، وظللت ألازم مكاني، وهبطت يداي بثقلهما على جانبيَّ. بدا شعري مقصوصًا بزاوية تعوزها الاستقامة، إذ كانت نهاياته تلامس فكي على أحد جانبي وجهي، بينما على الجانب الآخر تلامس أطرافه كتفي. لو رأتني هولاند لقالت إنني أبدو كالدهماء، وقد سرتني الخاطرة، فامتدت ابتسامة على شفتي.

انفتح الباب من ورائي، وجمدتُ في مكاني حين رأيت انعكاس سينت في المرآة. وترامى الضوء المتدفق من الردهة مصطبغًا بطيف عسلي، وقبل أن يدلف سينت إلى الداخل هبط بصره من وجهي في المرآة إلى يديَّ اللتين كانتا تمسكان بالجديلة المجزوزة وبالسكين.

وأحسست بأن الغرفة صارت أصغر حين دخل. وكانت سترته في يده، وشعره يميل جانبًا كأنه كان يمشطه بيده أثناء صعوده الدرج من أسفل، بيد أن عينيه ما زالتا مصطبغتين بزرقة فاتحة التمعت في الظلام.

أغلق الباب، وألقى بالمعطف على أحد السريرين، في حين دسست سكيني في حزامي، أما الجديلة فوضعتها على الطاولة الصغيرة التي تحمل الحوض.

وسار سينت في الغرفة بخطوات متأنية، ثم توقف على مقربة من المرآة ساندًا إحدى كتفيه إلى الجدار. واستشعرت ببصره يهبط من شعري إلى حزامي، حيث أعدت السكين إلى غمدها، وأحسست بتلك النظرة تتفحص جسدي كله.

ثم سألني: "مَن يبحث عنك؟".

خطر لي أن أكذب؛ أن أصطنع قصة أخرى غير حقيقية. ولكن ما دام سينت على استعداد لمواجهة زولا من أجلي، فلن ترهبه فكرة هروب ابنة تاجرة من والدتها.

قلت: "والدتي".

لبث صامتًا منتظرًا أن أكمل؛ تلك النظرة التي تنم عن استغراقه في التفكير لا تبرح وجهه.

أردفت: "إنها تاجرة أحجار كريمة ذات نفوذ قوي".

فتساءل: "مَن؟".

ومرة أخرى، فكرت في الكذب، ثم صارحته: "هولاند".

لم يرقه الجواب، فبدت عليه الجدية، ولم تفارقني عيناه، ثم سأل: "لماذا تهربين منها؟".

عضضت على شفتي السفلى، وقد حضرتني ذكرى امتلائي بالخوف وأنا في مكتب والدتي، ونظرة أبي إليَّ من خلال صورته المعلقة على الجدار. ثم أجبته: "لأنها قتلت أبي".

كانت تلك حقيقة، هذه هي الفكرة التي جعلتني أفتح العلبة وأسلبها حجر قلب الليل، هي الفكرة التي جعلتني أذهب إلى سيمون؛ لكنني لم أكن مستعدة للحديث عن الحجر المخفي في جيبي.

عقد سينت ذراعيه على صدره، وتغضن جبينه، كأنه يحاول سبر أغوار أمر ما.

قلت: "سترسل أشخاصًا يبحثون عني. ولن تنسى أمري".

سألني: "هل يعرف زولا ذلك؟".

هززت رأسي، وقد فكرت في أنها في نهاية المطاف سوف تكتشف السفينة التي غادرتُ على متنها، لا ريب في ذلك؛ وهذا يعني أن زولا يمضي في درب ضيق يفضي إلى نهاية واحدة؛ انتقام هولاند.

ولوهلة خطرت في ذهني احتمالية أن ينتهي المطاف بسينت وكلوف إلى معاداتها أيضًا، فدبت قشعريرة في ذراعيّ.

وهبطت عيناي على يده المليئة بالندوب، وأنا أسأله على أمل أن نتبادل سؤالًا بسؤال: "وماذا عنك؟ ممَّ تهرب؟".

أخرج يده من تحت مرفقه وقلبها كأنه يتفقدها، وصمت مليًّا قبل أن يجيب.

قال وهو يرفع عينيه ويصوبهما نحوي في الظلام: "كنت في الثانية عشرة من عمري، وكلوف يماثلني في السن".

لم أتوقع أن يجيب عن سؤالي حقًّا. ولبثت جامدة بلا حراك؛ إذ اعتراني خوف من أن يسكت إذا بدرت مني أية حركة.

وتابع: "خرجنا إلى الصيد بالمركب مع أبوينا وطاقمهما، وكنت أول من وصل إلى الرصيف البحري ذلك الصباح. وكانت تلك أول سنة يسمحان لنا فيها بمرافقتهما إلى الصيد؛ لأنهما أرادا أن يعلمانا الإبحار. ليس الإبحار على مراكب صيد، بل أرادا أن يعلمانا الإبحار بسفن تحت شعارنا الخاص يومًا ما"، وسكت هنيهة محاولًا العثور على الكلمات، ثم أردف: "كانت توجد قواعد يجب الالتزام بها؛ قواعد التزم بها أجدادنا من قبل. فثمة نظام، روابط تحكم العلاقة بيننا وبين البحر. بيد أنني لم أؤمن بها قط، ليس حقًّا".

خطر ببالي عنقود حجارة الأفعى المثقوبة الذي كان معلقًا في نافذة غرفته على متن السفينة ريفين، ومشهد النصل الملطخ بدماء سينت وهو يجرح به قبضته ليتقاطر دمه في الماء.

وبدا صوته عميقًا وهو يواصل الحكي: "لقد أرسلني أبي إلى الرصيف مبكرًا لتجهيز الشباك، إذ كنا سنتوجه إلى الصيد في شعاب مرجانية بعيدة لم أزرها أنا وكلوف من قبل. وحالما دلفت إلى المركب رأيته على الفور؛ طائرًا من فصيلة اللارك، كانت جثته هامدة على سطح المركب، أمام الدفة مباشرة، في إشارة إلى أنه لا يجدر بنا الإبحار اليوم. لو رآه أي شخص آخر على متن المركب في تلك الصبيحة ما رفعنا المرساة قط، لكن لم يره أحد سواي".

وعرفت فجأة ما سيقوله قبل أن ينطق به، فاضطربت أحشائي.

وأردف: "ظننت أن الخرافات لا تعدو أن تكون مجرد خرافات، لا وزن لها، وكنت أرغب في الإبحار؛ فأمسكت الطائر وألقيت به في الماء قبل أن يراه أحد، لم أتردد، وبعد سويعات، أتت عاصفة ... هبَّت من العدم. وكأنها انبعثت من تحت سطح الماء بدلًا من أن تهبط علينا من الجو. وكنت أعرف. كنت أعرف بالضبط ما يوشك أن يحدث"، وسكت هنيهة أخرى قبل أن يواصل: "حبسنا والد كلوف في مخزن الشحن، واستمرت العاصفة ساعات. سمعناهم يصرخون ويركضون على السطح، وفي النهاية انقلب المركب مرات عديدة، لست أدري كم مرة، ولكن عندما انتهت العاصفة أخيرًا صعدنا إلى السطح، ولم نجد أحدًا، لقد التقمهم البحر جميعًا".

انسلت دمعة على خدي، بيد أنني لم أطرف بعيني. كانت عيناه تحدقان بثبات فيح عينيَّ، ولم أرغب في أن أقطع ذلك التواصل البصري فأشتت تركيزه، وأقطع عليه لحظته. لم أستطع استيضاح المشاعر التي كانت تخالجه، لعله حكى هذه القصة مليون مرة، لكن حدثتني نفسي بأنه لم يحكها لأحد، ليس على هذا المنوال، لعله كان يحكيها لنفسه فقط.

وأضاف: "وكتمت السر بضعة أيام، لكنني في النهاية أخبرت كلوف بالحقيقة، وأخبرت عائلات البحَّارة أيضًا. ولم تغفر لي القرية غلطتي قط، فنبذني أهلها وقاطعوني كلهم ما عدا كلوف".

هذه القصة أوضحت لي الكثير؛ أوضحت سبب اختلاف طاقم سينت وكلوف عن غيرهما، وأوضحت لماذا كان من المهم جدًّا أن يحصل سينت على هذا الترخيص.

قلت: "والآن أنت تلتزم بالقواعد. ولهذا السبب تُقدِم على الإبحار في العواصف".

أومأ برأسه وقال: "لقد نذرت حياتي للبحر، ولن يغدر بي أبدًا".

لقد آمن بذلك، إيمانًا كاملًا. أرى هذا جليًّا.

ثم قال: "وضعنا خطة: المجيء إلى سيروس، والبحث عن سفينة، وحيازة ترخيص تجاري"، وركن إلى الصمت، فازداد جو الغرفة ثقلًا وكثافة.

عرفت ما كان يرمي إليه - أنا. لم أكن جزءًا من تلك الخطة.

قلت: "إذا كنت لا تريد ضمي إلى الطاقم فأنا أتفهم ذلك. بوسعي العثور على طاقم آخر".

أجاب بسرعة أكبر مما كنت أتوقع: "أنا أريد ذلك"، ثم أردف: "نحن نريد ذلك".

لم أكن متيقنة مما إذا كان قد صحَّح عبارته احترامًا لكلوف أم ذودًا عن كبريائه بدافع الغريزة. وقد كان من الجلي وجود مشاعر تؤجج الأجواء بيننا، ولم يكن مُجيدًا في إخفائها.

واقتربتُ منه خطوة وأنا أتأمل وجهه، وحوَّام ببصره فوقي على اتساع عينيه.

قلت وقد بدا صوتي هشًّا بدرجة أكبر مما كنت أقصد: "إنني معتادة أن أُستَغل يا سينت. لكنني لم أفهم ما تريده مني بالضبط".

قال بصوت هامس: "ولا أنا".

أدهشنى الرد حتى كادت قدماي يختل ثباتهما، وتمنيت لو لم أكن خطوت تلك الخطوة التي قربتني منه. وغزاني إحساس مباغت بأنني قد أبكي، ولم أكن متأكدة مما إذا كان باعثي على ذلك الإحساس هو كلماته أم الإرهاق الذي اعتراني. لم أكترث. لكن ساورني سرور كبير لسماع أحدهم يخبرني بالحقيقة، أحسست كأنني أشهد شروق شمس بعد أمد طويل ساده ليل بهيم.

لا يزال يرنو إليَّ بنظرة مباشرة في عينيّ، وكأنه ينتظر ليرى ما سوف أفعله. ثم تحدث مرة أخرى سائلًا: "ما شأن هذا الشعور الذي يخالجني؟ هذا الشيء الذي يجعلني لا أريدك أن تغادري؟".

هززت رأسي قائلة: "لست أدري".

لقد أجبت بصدق. لم تكن لديَّ أدنى فكرة عن هذه الجاذبية المتعذر تفسيرها بيننا.

قال: "لا تفعلي فحسب".

قلت: "لا أفعل ماذا؟".

قال: "لا تغادري".

لم أكن أدري كيف أتصرف حيال هذه النسخة من سينت؛ تلك النسخة التي تطلب مني ألا أغادر بطريقة مباشرة بدلًا من محاولة الالتفاف على المعنى بتردد، تلك النسخة التي لا تبدو آبهة بإظهار كل نقاط الضعف.

ثم رفع يده نحوي في الظلام، وأجبرت نفسي على الجمود في مكاني. وتسارع خفقان قلبي، وأنا أنتظر يده وهي تلامس وجهي، وإبهامه يتحسس شفتي السفلى قبل أن يرفع

ذقني تجاهه. وضغط بأصابعه على الجلد الرقيق أسفل فكي حيث تسارع تدفق الدم في العروق، وساد الصمت في الغرفة ولم يقطعه سوى صوت أنفاسي.

لكن سينت بدا هادئًا، مستشعرًا أريحية تحت جنح الظلام، ومتحررًا من أي قلق قد يعتريه جراء لمسه لي. مرة أخرى، في أية لحظة كان سيقبلني، وكأنه اتخذ قراره من فوره، وسوف يفعل ما يعن له.

اشتدت الظلمة لدرجة أنني لم أستطع تحديد مدى قربه حتى تلامست شفاهنا، وقد ملأني طوفان انتظار تلك الملامسة بحرارة لافحة. وفتح فمه، فترددت أنفاسه بخفة على بشرتي، وانزلقت يده إلى مؤخرة عنقي مخلفة وراءها لهيبًا كاويًا على خدي.

قبلني قبلة لطيفة متأنية، كأنه يحرص على نحت هذا الشعور في ذاكرته. وعندما استرسلتُ في التقبيل، استرسل هو الآخر، والتحم جسده بجسدي.

كان في نفسي شيء مبعثر، وقد اعتدل ميزانه الآن، تلك القطعة من روحي التي تشظت في ذاك اليوم في باستيان. ولم أكن أعرف ما الذي كنا نفعله، وإلى أين يمكن أن يقودنا ذلك، لكننا انسجمنا بطريقة ما.

ترامى دبيب أقدام تصعد الدرج، فابتعد عني، وانزلقت أصابعه من شعري، والتقطت أنفاسي بصعوبة شديدة لدرجة أنني أحسست بشيء من الدوار. وعندما انفتح الباب كان سينت قد ذهب إلى الجانب الآخر من الغرفة، وظهر ناش وفي إثره دايا التي وضعت إحدى يديها على ظهره كأنها تسوقه عبر مدخل الباب.

وضعت كومة من الملاءات على أحد السريرين، وقالت مازحة من غير أن ترفع عينيها: "إنه لا يتحمل قوة تأثير شراب الجاودار"، ثم أردفت وهي تلقي عليَّ نظرة سريعة أخيرًا: "ارتأيت أنك بحاجة إلى مفارش جديدة"، ثم وجَّهت سؤالها إلى سينت: "أتحتاج إلى أي شيء آخر؟".

أجاب: "لا".

وتحرك ناش مترنحًا نحو كومة المفارش على الأرضية، وتهاوى عليها قبل أن يخلع حذاءه، وتقلَّب حتى صار وجهه ناحية الجدار مع مغادرة دايا الغرفة. ثم ظهر كلوف، وخلع قميصه مع انغلاق الباب، وكان كم قميصه ذي القماش الرقيق مشربًا بالدماء، لكن كلوف لم يبد مكترثًا ألبتة بالجرح المفتوح تحت كتفه.

وتحركنا نحن الثلاثة بعضنا حول بعض في الظلام، ولم يتردد في الأجواء سوى صوت الأحذية وتعليق الأحزمة، في حين امتلأ ذهني بمشهد القبلة، ونظرة سينت إليَّ، وطريقة تقبيله إياي، إذ بدا متأكدًا مما يفعله.

أوى كلوف إلى سريره، وحين أمسكت بالمفارش التي تركتها دايا لأفرشها وأنام عليها أخذها سينت من يدي دون أن ينبس ببنت شفة، وفرشها على الأرضية، واستلقى عليها دون أن ينطق بكلمة.

لبثت واقفة هنالك هنيهة أجيل بصري في أرجاء الغرفة قبل أن أستلقي على السرير، وأغطي نفسي بالألحفة. وأغمضت عينيَّ قبل أن أستنشق نفسًا أملأ به رئتيَّ، وأنا أعلم أية رائحة سوف تزكم أنفي، إنها رائحة أعماق البحر؛ رائحة سينت.

وتحسست شفتيَّ بأصابعي، إذ لا يزال أثر ذلك الدفء اللطيف موجودًا.

لست أدري بالضبط ما الذي أقحمت نفسي فيه بعبور باب تلك الحانة، لكن ثمة شيئًا في الأمر أحسست بأنني كنت أنتظره طوال حياتي، كأن كل المسارات التي سلكتها منذ غادرت مكتب والدتي في تلك الليلة أفضت إلى مكان واحد؛ ساقتني إلى هنا بشكل خاص.

25 إيزولد

قال سينت بحدة، وأصابعه قابضة على الإبرة الملطخة بالدماء: "اثبت".

كان الجرح في ذراع كلوف عميقًا لدرجة تستدعي الخياطة، بيد أنه لم يبدُ مكترثًا ألبتة.

خلت الحانة إلا من الساقي ودايا، التي استنبطتُ أنها زوجة جريف. لقد كانت لطيفة بما يكفي لتزويدي ببعض الثياب التي تجعلني شبيهة بأبناء منطقة المضايق، وهي أيضًا من أصرَّت على أن جرح كلوف يحتاج إلى عناية. لكن كلوف لم يسمح لها بلمسه، لم يسمح لأحد بالاقتراب من الجرح إلا سينت.

وظهرت مرة أخرى حاملة وعاءً خزفيًّا يحوي ماءً دافئًا. وغرز سينت رأس الإبرة في نهاية الجرح، ثم مررها قبل أن يعض الخيط ليقطعه ويربطه في عقدة. التهب الجلد بالفعل واصطبغ بالحمرة، لكن لا يبدو أن النصل قد وصل إلى العظم.

تساءلت عن عدد المرات التي قام فيها هو وكلوف بخياطة جراح كل منهما. إن تاريخهما أبعد وأعمق مما كنت أتوقعه، وقد كان تاريخًا مترعًا بأحداث جليلة أكثر من مجرد ذكريات الطفولة. كانت الروابط بينهما تصل إلى جوانب أعمق من تلك البادية للعيان.

لم أنم أكثر من ساعة أو ساعتين خلال الليل، بقيت مستيقظة وأنا مستلقية في الظلام أعاود استحضار تلك اللحظة في ذهني مرارًا وتكرارًا، يد سينت وهي تتخلل شعري، احتكاك شفتيه بشفتيَّ، والمعنى الكامن وراء كلماته حين تساءل: ما شأن هذا الشعور الذي يخالجني؟

ما زلت لا أملك إجابة.

قال جريف وهو يسحب قطعة القماش المبللة من أسفل المنضدة في حين كان سينت يغسل دماء كلوف عن يديه: "آه لو يراكما أبواكما".

حاولت دايا أن تبدي تجهمًا له، لكن ظلت ثمة ابتسامة مكتومة تحت تعبيرها، وقالت: "لافتخرا بهما جدًا".

أومأ جريف برأسه موافقًا، وكأن هذا بالضبط ما كان يخطر في باله.

قلت وأنا أعطي كلوف قصاصة القماش النظيفة: "لن يمر الأمر مرور الكرام كما تعلمان. سوف يثرثر هذان التاجران عن أن مجلس التجارة هنا يمنح التراخيص الآن".

ما لم أخبرهم به هو أنني تعرَّفت على التاجرين، وهما التاجران ذاتهما اللذان طاردانني في السوق، وعلى الأرجح قضيا الليلة الماضية في البحث عني.

ضغط كلوف قطعة القماش على ذراعه وملامحه تنقبض. ولاحت على وجهه آثار الإصابات، حيث انجرحت شفته، وأصيب خده بكدمة. غير أن الأمر كاد يكون أسوأ من ذلك، ولربما انتهى به المطاف وتلك السكين مغمدة في بطنه.

وضعت دايا إحدى يديها على خصرها، وسألت: "هل أحضر فطورًا قبل أن تذهبوا؟".

أجاب سينت: "أريد كوبًا من الشاي فقط".

تنهدت في استهجان قبل أن تشق طريقها نحو المطبخ، وهي تقول: "حسنًا".

جلس سينت بجواري، وهو غير حريص على إبقاء مسافة بيننا كما كان يفعل من قبل. وبدأ يتعامل بأريحية أكبر مما توقعت منه هذا الصباح، إذ توقعت أن يتصرف بتردد شخص ندم على أفعاله. ولعل ذلك بسبب قراري البقاء، أو لعله بسبب اعترافه العلني بمشاعره المكتومة. كان الأمر كأننا أطلقنا قوة جبارة لا يمكن احتواؤها، كلانا أدرك أننا وصلنا إلى نقطة لا عودة بعدها، ولم تكن ثمة جدوى من التظاهر بغير ذلك.

انخرط كلوف وسينت في نقاش بشأن الخطوة التالية: الإبحار إلى ديرن، وتسوية الديون، وتوقيع العقود. وفي غضون ثلاثة أسابيع سوف نعود إلى سيروس على متن السفينة أستر، هذا هو الوقت الذي ستبدأ فيه التجارة الحقيقية. ولكن لا تزال هناك مسألة فقدان نقود هنريك.

احتك باب الحانة بالأرضية غير المستوية، وهو ينفتح، فترامى صوت جريف من المطبخ: "الحانة مفتوحة الآن للنزلاء في الغرف فقط! لا نفتح للعامة إلا بعد بضع ساعات".

قال الداخل: "سآخذ غرفة إذن".

جمدتُ في مكاني حين سمعت ذلك الصوت المألوف يتردد في الأرجاء.

زولا.

انغلق الباب، فانقطع صوت الشارع، ولففت نفسي في المقعد لأراه، حيث غطى معطفه الأسود الطويل قامته الطويلة النحيلة، وتأرجحت حاشية معطفه على الأرضية وهو يسير نحونا، ليس بخطوات ثقيلة لرجل غاضب كما كنت أتوقع، بل بدا هادئًا.

نهض سينت ملقيًا بقطعة القماش على المنضدة قبل أن يخطو خطوة ليضع نفسه أمامي، لم ينطق بشيء، لكن الصمت الذي جثم على الحانة وشى بالكثير، وبدا الجو مشحونًا بالتوتر.

وراحت أطراف أصابعي تتحسس مكان مقبض السكين في حزامي، وترك كلوف أمر جرحه، وبسط كم قميصه ليغطي ذراعه مرة أخرى، وهو ينهض من المقعد.

رنوت ببصري من فوق كتف سينت وأنا أرى زولا يشق طريقه بخطوات متراخية بين الطاولات، لم يلح عليه ما يشي بالتهديد، أو إقدامه على شيء خطير، ولا بادرة غضب

لرؤيتي، كأنه وجد بالضبط ما كان يبحث عنه. ولم يظهر ملّاحه بيرك الذي لا يفارقه مطلقًا. وتساءلتُ عما إذا كان من الممكن أن يكون زولا قد جاء بمفرده، بدا ذلك غير مرجح.

توقف زولا على بعد بضع خطوات، ثم قال وهو ينظر إلى سينت: "تبدو مندهشًا لرؤيتي. لقد وصلت إلى الميناء قبل شروق الشمس، ورأيت ريفين راسية، فارتأيت أن آتيك كي نحتفل".

خطا كلوف خطوة بطيئة في اتجاهه تشي بتهديد، بيد أن زولا لم يلقِ له بالًا، وسحب من سترته ورقة ملفوفة مربوطة بشريط من الحرير الأحمر، مماثلة لتلك التي منح مجلس التجارة سينت إياها.

أردف زولا: "أعترف بأنني كنت منزعجًا بعض الشيء حين سمعت أنك تلقيت طلب الاستدعاء قبلي بيوم".

صارت السكين بجانبي الآن وقبضتي مشدودة على مقبضها.

ثم سدد نظرة نحوي، وقال: "وسمعت أيضًا أن ريفين رست في الميناء وعلى متنها جرَّافة جديدة".

لم ينطق سينت بشيء، لكن بوسعي تخيُّل أن عقله محموم بالتفكير فيمن وشى به، ليست إميليا بالتأكيد، فمَن يكون إذن؟

ابتسم زولا ابتسامة خبيثة، وقال: "إن غرز سكين في يد إنسان أمر من شأنه أن يجعل لسانه يفشي الأسرار".

عندئذ أدركت مَن المقصود، إنه لاندر؛ التاجر الذي حاول خداع سينت انتقم لمصابه بالطريقة الوحيدة التي يعرفها، بالطريقة الوحيدة التي يستطيعها.

انطلقت عينا زولا إلى جريف الذي كان لا يزال واقفًا بتوتر خلف طاولته، ثم قال: "بربك يا جريف، لن تقدِّم لي كوب شاي؟".

أومأ سينت بذقنه صوب باب المطبخ، حيث كانت دايا تراقبنا من خلال النافذة الصغيرة، في إشارة إلى أن الوقت قد حان لمغادرة جريف المكان، وفي ثوانٍ كان قد اختفى جريف في المطبخ دون احتجاج، ولم يرجع.

وتابع زولا: "يبدو أنني أضعت شيئًا من حمولة سفينتي. قبيل مغادرتك ديرن مباشرة، وهو ما قد يقول المرء إنها مصادفة".

جعل كلوف يُصعِّد بصره فيه قائلًا: "تحدث مصادفات كثيرة مثل هذه في الأرجاء".

فابتسم زولا ابتسامة خبيثة، ولم يحاول التظاهر حتى بإنكار سرقة الأحجار الكريمة من السفينة ريفين، ثم قال: "أفترض أن مثل هذه المصادفات ممكنة الحدوث حين لا تكون الأغراض مقيدة في الدفاتر".

وأخيرًا تحدث سينت بذلك الهدوء العميق السلس الذي يغلف صوته: "ماذا تريد يا زولا؟".

سحب زولا كرسيًا من عند الطاولة المجاورة له، وجلس مثبتًا قدميه على الأرض، ومباعدًا بين ركبتيه، ثم قال: "أود أن تعيد لي جرَّافتي".

بقي سينت ثابتًا في مكانه أمامي، وهو يقول: "هيا اسألها، إذا أرادت العودة إلى السفينة لونا فما من شيء يحول بينها وبين ما تبتغيه".

سحب زولا ورقة أخرى من سترته، وقال: "أخشى أن الأمر ليس بهذه البساطة"، وقد كانت هذه الورقة مطوية على شكل مستطيل صغير، وعندما رأيت بقعة الحبر في إحدى زوايا الورقة ازدردت ريقي بصعوبة.

ارتسمت ابتسامة مائلة على شفتي زولا وهو يفتح الورقة ويمسكها مبسوطة في الهواء، ثم قال: "لدينا عقد".

تصلب جسد سينت أمامي، وتراجعت كتفاه في تأثر مباغت، في حين قطع كلوف ثلاث خطوات نحو زولا، وانتزع الورقة من بين أصابعه، وجرت عيناه فوق الأسطر قبل أن يصوبهما نحوي، ونظر إليَّ نظرة استلبت ما في جسدي من دفء.

قال زولا: "هذا عقد سارٍ".

لم يعترض كلوف.

تقدمت إلى الأمام وقلت: "هذا عقد فاسد"، وأخذت العقد من كلوف وألقيته على الطاولة.

قال: "لقد أصبح ساريًا منذ اللحظة التي حزت فيها هذا الترخيص. والآن كل عقد أملكه يقع تحت طائلة مجلس التجارة وقوانينه".

انتظرت أن يعترض سينت على صحة كلامه، لكنه لم ينبس بشيء. وانقبضت عضلات فكه وهو يراقب زولا من علٍ.

عندئذ سأله كلوف: "إنها إما أن تكون فردًا من طاقمك أو أن تكون حمولة تنقلها، فماذا تكون؟".

أجابه: "كلاهما. من حيث مكاسبي، فهي حمولة أنقلها، وفي نظر مجلس التجارة هي من أفراد طاقمي".

كان العقد مجرد وسيلة للتغطية على ممارساته المشبوهة وحماية نفسه، ولكنه كان أيضًا الشيء الذي يقيدني بسفينته. وإذا ارتاب أي أحد بشأن ممارساته، فلديه عقد يفيد بأنني مجرد جرَّافة من أفراد الطاقم، ولكن حين يسلمني إلى أوليفر ديورانت فهو بحاجة إلى

عقد موقع من سيمون يفيد بأنه ناقل الحمولة، وذلك كي يحصل على أجره. وما من أحد يعلم كم عدد خبراء الأحجار الكريمة الذين باعهم سيمون بهذه الطريقة.

قلت: "التوقيع على هذا العقد باسم إريس، ولا وجود لإريس".

قال زولا: "وهل تودين توضيح ذلك لمجلس التجارة، أم ينبغي لي أنا توضيح ذلك له؟".

ورويدًا رويدًا تكشفت منطقية وجهة نظره، وبدأتُ استيعابها.

وأردف: "سيخبره أكثر من فرد من طاقمي بأنهم يعرفونك باسم إريس، ويمكنك إثبات خطئهم إن شئتِ، ولكن السؤال الذي سيطرحه المجلس هو مَن أنتِ حقًّا".

بطريقة ما توصل زولا إلى حل المعضلة بما يصب في صالحه.

وتابع: "لقد ربطت الخيوط بعضها ببعض حين بدأ التجار في الميناء البحث عن ابنة هولاند الهاربة. وما كنت لأسمح لكِ مطلقًا بالصعود إلى سفينتي لو كنت أعرف أنني بذلك أتعدى حدود أخطر تاجرة في منطقة البحر المجهول".

جعلتُ أحدق إليه.

واصل حديثه: "لقد أوقعتِ بي في فوضى عارمة يا إيزولد. وأقل ما يمكنك فعله هو التأكد من حصولي على النقود التي يفترض أن أكسبها من ورائك".

وصار تزعزع سينت باديًا لعينيَّ، لم يكن يتوقع ذلك، بالطبع لم يتوقع.

وأضاف زولا: "إنها لصة كما تعلم".

عض سينت على أسنانه وهو يقول: "لقد أخذت منك ما لا تملكه أنت، لذا هذا لا يُعد سرقة؛ تلك الأحجار الكريمة كانت ملكًا لي".

قال: "لست أتحدث عن الزمرد الأحمر يا سينت"، ثم حدق بعينيه في، وأردف: "لا تقل إنها لم تخبرك".

زحفت القشعريرة على جلدي مرة أخرى، ومن ثم سرت ارتجافة في جسدي كله. كان يعلم أيضًا بحجر قلب الليل، بطريقة ما كان يعلم.

وتنهد زولا قائلًا: "إن هذه الفتاة تمثل مشكلة أنت في غنى عن مجابهتها، صدقني. ردها لي مرة أخرى، وسنعتبر أن كل هذا لم يحدث مطلـ...".

قاطعه سينت قائلًا دون أدنى تردد: "لا".

نبرته وهو ينطقها حبست أنفاسي، وعندئذ فقط صارحتني نفسي بأنني كنت أخشى أن يوافق، خشيت أن يجنح إلى الموافقة لتقليل خسائره بعد أن أدرك أنني لم أصارحه بكل شيء.

هتف زولا: "هل لديك أية فكرة عما تكبدتُه بسبب هذه الفتاة؟".

انتزع سينت سترته عن ظهر الكرسي، وارتداها وهو يقول: "لا أكترث. وما من شيء يمكنك فعله لي، فأنت ملزم بالقوانين ذاتها التي ألتزم بها الآن، إن حاولت الاعتداء عليَّ، فسيحرق مجلس التجارة ترخيصك".

ضاقت عينا زولا بطريقة وشت بأنه يعرف أن سينت محق، لا يستطيع أن يأخذني، لا بد من تدخل مجلس التجارة إن أراد ذلك.

وقال زولا محذرًا: "إنك تقترف خطأ. سأرفع هذا الأمر إلى المجلس في غضون ساعات، وسوف يحاسبك على التعاقد مع جرَّافة يربطها عقد معي".

رد سينت: "سوف نرى".

جمد زولا في مكانه هنيهة ويده تعتصر الورقة قبل أن يقول: "أنت توقعنا جميعًا في متاعب الآن".

قال: "ربما".

نهض زولا واقفًا، وقد احتقن وجهه؛ كان يغلي بالغضب.

ثم قال وهو يضغط على كلماته: "هذا ليس كل ما سمعته في سوان. أنا أعرف بشأن المزارعة الحسناء وابنتها، تلك التي تبيع لك الجاودار، وأعلم بشأن تلك السفينة التي تصنعها في ديرن".

تبعثر جأش سينت فور سماعه هذا الكلام، وتتابعت أمواج الغضب الهادر على محياه، حتى أحسست بأثر الغضب يتفشى في الجو، كان الأمر يخرج عن السيطرة سريعًا.

عندئذ خرجت من وراء سينت وقلت: "اسمع...".

قال سينت: "لا ... تنبسي ... بكلمة"، وجعلني صوته العميق أبتلع ما كنت سأقوله. لم ينظر نحوي. لم أكن متأكدة مما إذا كان سينظر إليّ مرة أخرى. ثم توجه إلى زولا مرة أخرى، وقال: "إنك لن تحوم بالقرب من تلك المزرعة".

تساءل زولا: "ألن أفعل؟".

أجاب كلوف: "لا؛ لأنك إذا أقدمت على ذلك، فلن نذبحك ونرميك في مكان ما في البحر، بل سنغرق سفينتك بك وبطاقمك حتى ترقد في أعماق البحر"، ثم خطا خطوة أخرى إلى الأمام، وقال: "وسوف نحرقها حرقًا قبل أن نقف على متن سفينتنا أستر ونشاهد كيف سيختار كل منكم طريقة موته".

اجتاحني شعور فظيع وأنا أردد بصري بين كلوف وسينت، لقد قصدا كل كلمة قيلت.

ارتدت عينا زولا نحوي مرة أخرى قائلًا: "أعتقد أنك حظيتِ بأكثر مما كنت تتمنينه، أليس كذلك يا عزيزتي؟"، ونهض فتمايل معطفه مرة أخرى.

وعندما لم أرد عليه، ابتسم لسينت ابتسامة أخرى وهو يدور على عقبيه، وعاود أدراجه عبر الحانة. وفي اللحظة التالية رحل.

ظل سينت وكلوف واقفين في صمت، ولم يتردد في المكان سوى صوت قطرات الماء المتساقطة.

ثم قال سينت وهو يومئ بذقنه صوب الدرج المفضي إلى الغرفة حيث كان ناش لا يزال نائمًا: "أيقِظ ذلك الأحمق. ولا تخبر جريف بأي شيء. يُستحسن أن يبقى بمنأى عن الأمر. سوف نلتقي بكما هناك".

سألت وأنا أردد بصري بينهما: "أين؟".

قال: "أنت لستِ في وضع يسمح لك بطرح الأسئلة"، تجمدت من أثر نبرته الباردة. ثم زرر سترته، وأردف: "انطلقي".

أذعنت وقصدتُ الباب وأنا أترقب ظهور زولا على الجانب الآخر من الباب ممسكًا بسكينه، بيد أن سينت كان محقًّا، لا يستطيع المساس بنا، ليس بعد.

وحالما صرت في الشارع، أوصد الباب وراءنا، واستنشقت نفسًا، ثم قلت: "سينت...".

قاطعني قائلًا: "إياكِ"، وبدرت منه هذه الكلمة ثقيلة للغاية، وحاسمة جدًّا، حتى شعرت بأنها حجر جاثم على صدري.

وشرع في المسير دون أن ينبس بكلمة أخرى، وسرت في إثره، وأنا أحدق إلى خط الغرز الذي يتوسط ظهر سترته. انبسطت كتفاه العريضتان تحت ثيابه، وكانتا ترتفعان مع كل نفس عميق يأخذه ونحن نشق طريقنا ضد الحشود في الاتجاه المعاكس للميناء.

لم نمشِ على الجسور، إذ من السهل جدًّا أن نُراقب عليها، وبدلًا من ذلك جعلنا ننعطف في الشوارع حتى شعرت بدوار شديد لدرجة أن الغثيان أهاج بطنى. كانت الأزقة تضيق مع كل خطوة حتى أفضت بنا إلى مجموعة من المباني المتشابكة، حتى إن ضوء الشمس يصل بصعوبة إلى الأرض تحت أقدامنا.

أطلت الوجوه من النوافذ المظلمة، وثُقل الجو برائحة نتنة.

همست وأنا أنظر إلى عينين تطلان من نافذة معتمة: "ما هذا المكان؟".

ومع ذلك تابع المشي دون أن يكلف نفسه عناء التأكد من أنني أحاذي سيره بتلك الوتيرة.

ناديته باسمه الذي قاله لي في ديرن: "إلياس"، وهو اسمه الأصلي.

فاضطربت سيره بعض الشيء وهو يبطئ خطواته، ثم أجاب: "نقصد إلى مكان لا يقصده أحد للبحث عنكِ فيه؛ وادي الضنك"!!

26 سينت

كان ضوء النهار هو السبب الوحيد في أننا ما زلنا على قيد الحياة.

بدأ المطر يتساقط مع توغلنا في وادي الضنك، ونحن نقتحم شبكة المسارات الضيقة المتعرجة التي تُشكل الدهاليز الخانقة للمنطقة. إن قاطني هذه البقعة السكنية المكتظة يتجاوز عددهم تعداد منطقة نورث فيج كلها، إذ اشتمل كل مبنى على شقق عديدة، تجمع العديد من العائلات، ويعمل أولئك الآباء والأمهات على الأرصفة أو في البحر، ويمثل الأطفال غالبية السكان هنا. إن الأطفال هم أوفى المخلوقات في أية قرية أو مدينة.

لو أتى زولا إلى الحانة في وقت مبكر، أي قبل شروق الشمس، فما كنت أحسب أن تهديده بانتقام مجلس التجارة منه كان سيثنيه عن سفك الدماء. لكن في وضح النهار توجد عيون ترصد جرائمه، وقد كان يعلم ذلك، وما كان ليخاطر بخسارة ترخيصه التجاري بعد سويعات من حصوله عليه.

أحسست بأن نفسي تمور بقلق طاحن جراء استشعاري حركة إيزولد وهي تسير في إثري. لم أتحدث لأنني لم أكن متأكدًا من أن لديَّ أي شيء لأقوله، ليس بعد، لقد أتيحت لها الفرصة لتخبرني بالحقيقة. لقد وثقت بها، على الرغم من أنها لم تقدِّم الكثير لتكسبها. ومع الانعطاف الأخير إلى نهاية دائرية مسدودة مرصوفة بالحجارة علمت أنني قد ارتكبت خطأ فادحًا. وكان السؤال هو: ماذا كنت سأفعل حيال ذلك؟

لاح أمامنا جدار مشيد بالحجر الرملي الأبيض يتخلله باب مطلي باللون الأزرق، ومعلق بمفصلاته كأنه يتشبث بها. لم تكن ثمة حاجة لإغلاقه، فما من جدوى لإغلاق الأبواب في وادي الضنك إلا للإشارة إلى أن هذا المكان له صاحب.

كان بوسعي استشعار عيون سكان وادي الضنك تراقبني وأنا أخرج المفتاح من جيبي.

جاءني صوت إيزولد مشوبًا بالحذر وهي تنادي: "سينت".

قلت وأنا ألقي نظرة خاطفة على النوافذ فوق رءوسنا: "ليس هنا".

لقد وثقت في أطفال وادي الضنك، وأوكلت إليهم مهمة حراسة هذا الباب، بيد أنني حاذرت من أن يتنصتوا على ما يدور وراء هذا الباب.

لازمت إيزولد الصمت وأنا أدس المفتاح في القفل وأفتح الباب، فبدت من ورائه شقة خالية ومعتمة، إذ كانت غيوم العاصفة تتداعى في سماء المدينة، وتحجب ضوء الشمس، وتردد صوت سقوط قطرات المطر آتيًا من النوافذ المتكسرة في الطابق الثاني.

ولبثت منتظرًا أن تخطو إلى الداخل قبل أن أتبعها، وأغلقت الباب من ورائنا.

لقد حصلنا على هذه الشقة بموجب صفقة عقدناها حين غادرنا قرية كراجسماوث، ويومًا ما سوف تكون مقرًّا لنشاطنا التجاري، بعيدًا عن أعين التجار المتطفلين وذوي الدم المملح، فما من أحد يأتي إلى وادي الضنك إلا في حالة الاضطرار، وقد أعطينا الناس هنا نقودًا تجعل ولاءهم لنا، فإن أراد أي شخص العثور على مكاننا هنا، فسوف يضللونه.

فتحت سترتي، وتركت الهواء ينعش جلدي المتعرق، لم أتعرق من أثر الجو، بل من أثر إيزولد. ذلك اللطف الذي ملأ الأجواء بيننا صباحًا قد تبدد، والآن أشعر بأن ثمة حبلًا مشدودًا حول صدري. لقد تصرفت ببلاهة بالغة، والآن سوف أدفع ثمن ذلك.

جلستُ على حافة النافذة، ووضعت قدمًا فوق أخرى، ثم رنوت إليها. ليلة أمس لم أتمكن من منع نفسي من لمسها، بيد أنني الآن أخشى مجرد التفكير في الأمر.

ووقفتْ في الطرف الآخر من الغرفة المتربة، واضعة يديها في جيبي سترتها، وشعرها المقصوص يطوق رأسها في خط مائل، وبدا في الضوء الخافت مصطبغًا بأعمق طيف للون البني، ولكن في الضوء القوي كان يتوهج مثل العقيق.

قلت ببرود: "يجدر بك أن تشرعي في التحدث الآن".

قالت، وكانت كلماتها يتداخل بعضها في بعض: "كان عليَّ إخبارك. أعلم أنه كان عليَّ إخبارك".

قلت بحدة: "نعم، كان عليك إخباري"، ومع ذلك لم تصطبغ نبرتي بالغضب المضطرم في نفسي. لقد كان غضبي من نفسي أشد من غضبي منها. وأردفت: "ما كنت لأسمح لك بركوب السفينة ريفين لو كنت أعلم أن ثمة عقدًا يربطك بسفينة أخرى".

تساءلت: "أحق هذا؟".

زفرت زفرة طويلة وأنا أمسك بأعلى أنفي، كان هناك صداع يحشد كتائب ألمه بين عينيَّ، ثم اعترفت: "لست أدري. أتمنى أن يكون حقًّا".

لو أن الأمر متعلق بمجرد عقد عمل عادي لهان الأمر ولحسمته بلا تردد، إذ كانت القوانين التي تحكم مجلس التجارة واضحة، وأي شخص يريد الاحتفاظ برخصته سوف يلتزم بالقوانين. بيد أن شأن هذه الفتاة معقد لأبعد حد، إنها خبيرة أحجار كريمة، وابنة تاجرة قوية النفوذ، وقد أعطت زولا الشيء الوحيد الذي يخوِّل إياه إحكام قبضته عليها.

وأردفت: "لم يكن زولا يخدعني، سوف يرفع تقريرًا إلى مجلس التجارة بشأن العقد المنتهك؛ لأنه يعلم أنك لن تخبريهم بهويتك الحقيقية. وأيًّا كان الميناء الذي سنرسو فيه تاليًا، فسوف نجد في انتظارنا استدعاء من مجلس التجارة للتحقيق معنا".

تساءلث: "ما العمل إذن؟ نختبئ هنا فقط؟".

قلت بغضب: "وهل لديك فكرة أفضل؟ لا يمكنهم تسليمنا طلب الاستدعاء ما داموا يجهلون مكاننا. إن مغادرة الميناء تعني أن السبل ستتقطع بنا في البحر".

أزاحت خصلات الشعر المبللة من صفحة وجهها، وضغطت كفيها على وجنتيها المحمرتين.

وأضفت: "بمجرد أن أظهر سوف يكون في انتظاري من يسلمني هذا الاستدعاء، وعندما أذهب إلى مجلس التجارة سوف يوقع عليَّ عقوبة أخذك من زولا. إن كل ما فعلته، وكل ما قمت به من أجله، سوف يذهب سدى"، وعلا صوتي حد الانفجار وأنا أنطق الجملة الأخيرة.

قالت: "إذن، سوف أذهب إليهم بنفسي، وأخبرهم بما كان زولا ينوي فعله. سوف أخبرهم بأنه يتاجر في خبراء الأحجار الكريمة و...".

قاطعتها قائلًا: "إن فعلتِ ذلك، فسوف تفتحين أبواب جهنم. هل تحسبين أن زولا هو التاجر الوحيد الذي يُهرب خبراء الأحجار الكريمة؟ هذا كأنك تَعرضين نفسك في ساحة المزاد في السوق".

قالت: "إما أن المجلس يحفظ القوانين، وإما لا، فأي الخيارين صحيح؟".

تنهدت تنهدة ثقيلة، وقلت: "ثمة فارق بين ما يحدث في مقر مجلس التجارة وما يجري خلف الأبواب المغلقة. إن زعماء النقابات يعملون بقواعدهم الخاصة".

لوحتْ بيدها، وقالت: "ما الذي يعنيه ذلك؟ أنتم هنا تتلاعبون بالقوانين وفق هواكم؟".

أنتم. ذاك مناط الأمر. منطقة المضايق. نحن. الناس الذين عاشوا في حالة التخلف هذه.

نهضت واقفًا، وقلت: "لا تفعلي ذلك. لا تتصرفي كأن المكان الذي أتيتِ منه أفضل".

قالت: "لست أفعل ذلك".

قلت: "منطقة البحر المجهول طافحة بفسادها، وأهلها هم الذين ابتلونا بهذا البلاء".

تساءلت: "أي بلاء؟".

هززت رأسي وقلت: "أنت لا تفهمين الوضع".

قالت: "ساعدني على الفهم إذن!".

كدت أضحك، وقلت: "لا يمكنك. لن تفهمي أبدًا كيف تجري الأمور هنا، لأنك لست واحدة منا! أنت واحدة منهم. وكل ما تعرفينه هو الأخذ لا العطاء".

ندت عني الكلمات حادة وموجعة، لم أكن متأكدًا من أنني أصدق تلك الكلمات قط، بل كان الأمر أقرب إلى أنني لم أكن أريدها أن تكون حقيقة، كنت أود منها إثبات خطأ ظني، وإخباري بكل ما كتمته عني. لكن لبثنا واقفين هنالك نتبادل النظرات دون أن تتحرك شفتاها بأي تفسير، ولن أطلب منها ذلك، ليس مجددًا.

تهاوت يدا إيزولد إلى جانبيها بشدة، ولاذت بالصمت، واتقدت عيناها بشرر متطاير، ثم قالت: "أعرف أنك لم تنتظر كل ذلك حين قبلت مساعدتي على مغادرة ديرن، أو حين عرضت عليَّ الانضمام إلى طاقمك. لقد كذبت لحماية نفسي، والآن أنت تدفع ثمن ذلك".

لم أجادلها، وقلت وأنا أفكر في إميليا وهيزل، وفي الوعد الذي قطعته لإميليا بألا ينالها أذى من وراء مشكلاتي: "لستُ الوحيد الذي قد يدفع الثمن. إذا أصابهما أي مكروه..."، واختنق صوتي جراء سوداوية تلك الخاطرة، وازدردت قدرتي على نطق بقية الجملة.

قالت: "ماذا تريدني أن أفعل؟ وسوف أفعله".

انطبق فكاي انطباقًا مؤلمًا، وقلت: "أريد منكِ أن تعودي بالزمن إلى الوراء، ولا تدخلي الحانة في تلك الليلة"، لقد قصدت ذلك وعنيته بكل قطرة دم تجري في عروقي.

تزايد صوت تساقط قطرات المطر الآن، وومض برق في الأفق أضاء وجهها، وقد انحرف فمها بعض الشيء، وتبدت عيناها الرماديتان قطعتي زجاج صافيتين.

لقد كنتُ مثل سفينة تسير في مسار ثابت منذ أن غادرت قرية كراجسماوث، كنت أعرف بالضبط ما ينتظرني؛ لأنني كنت على استعداد لفعل أي شيء لتحقيق هدفي. لكن إيزولد،

وأيًّا كان ما تفر منه في مدينة باستيان، كانت أول شيء يعترض طريقي، ويُشعرني بأن الأمور تخرج عن سيطرتي. لا أهمية لامتلاكي ترخيصًا تجاريًّا، أو مسار تجارة، أو خريطة لمنطقة المضايق، إذ ما المغزى من كل ذلك ما دام يوجد شيء بمقدوره سلب كل شيء مني؟

وقفتُ هنالك منتظرًا أن تنطق بشيء، وفي الوقت ذاته أتمنى ألا تنطق بشيء. فلم أكن أريد أن يثير صوتها عواطفي الجياشة من مكامنها، التي تأججت في عتمة ليلة أمس. لم أكن أريد مزيدًا من الأسباب التي تجعل نفسي تحدثني بترك إيزولد ورائي في وادي الضنك والإبحار إلى ديرن، حيث تنتظرني السفينة أستر.

مررت بجوارها صوب الدرج، وارتقيته إلى الطابق الثاني الفارغ، حيث تطل النوافذ على الجزء الصغير المرئي من البحر من هذه المنطقة من المدينة، وها هو ذا المطر يهطل بغزارة.

في حقبة سابقة كنت أشعر بأن هذا الأفق مترامٍ إلى ما لا نهاية، كأنه ممتد على مساحة لامتناهية من الاحتمالات، أما الآن، فقد اختلف الوضع، شعرت بأن عالمنا يتضاءل: منطقة المضايق؛ سفينتنا؛ أفراد طاقمنا؛ وتجارتنا. دائمًا ما اعتقدت أنني سوف أتقاسم المستقبل أنا وكلوف فقط، لم أتخيَّل دخول أحد غيرنا في هذا المستقبل، ولم أرَ مستقبلًا إلا في المسار الذي حلم أبوانا به.

أما الآن، فإن إيزولد حصاة قُزفت في مياه ضحلة، فغيرت شكل السطح كاملًا. لقد كانت لحظة تقبيلي إياها لحظة فارقة حسمت أمر تغيير مسار حياتي نهائيًّا.

27 إيزولد

لم يكن ناش مسرورًا بترك محبسه على ريفين ليصير نزيل محبس آخر في وادي الضنك. لقد وصل رفقة كلوف في فترة الظهيرة، وكانت أوامر سينت تقضي بألا يبرح أي منا المكان. ولو لم يظهر زولا صباحًا، لكنا الآن في طريقنا إلى ديرن، ولكان ناش متجهًا إلى صانعة السفن التي يعمل معها بسجل أبيض لا يخشى أن تلاحقه الأخطاء التي كان قد أوقع نفسه فيها. ولكن إذا كان زولا قد ذهب إلى مجلس التجارة، فهذا يعني أن خصوم سينت يتضاعفون بمرور كل دقيقة.

لم يكن الاختباء في وادي الضنك حلًّا، بل كل ما هناك أنه يؤجل الأمر المحتوم الذي لا مناص منه، إذ إن طلب استدعاء سينت إلى مجلس التجارة لا بد أنه آتٍ، لكن لا يمكن الامتثال للطلب والحضور بموجبه إلا حين يتسلمه سينت، وما من أحد سيأتي إلى مثل هذا المكان بحثًا عن قبطان حاز ترخيصه من فوره.

تواصل هطول المطر حتى فاضت الشوارع بأنهار صغيرة تتشعب وتلتحم مرة أخرى في شقوق الأرضية. وقد حل الظلام قبل غروب الشمس، إذ توارت السماء خلف غيوم العاصفة التي جثمت فوق المدينة. وعلى الطاولة الصغيرة وُضعت قطعة من الجبن ورغيف خبز أرسلتهما دايا مع كلوف، لكن لم تمتد يد أي منا للطعام، فما من أحد يشتهي طعامًا وهو يرتقب فأسًا تهوي على رأسه.

جلس كلوف أعلى عتبات الدرج، وراح ينحت قطعة خشب بسكينه حتى تكوَّمت جذاذات الخشب عند قدميه، وقد حنى رأسه جانبًا في إشارة إلى التركيز. ولم يهبط سينت من الطابق الثاني منذ أن أخبرني بأنه تمنى لو لم يكن قد التقى بي قط.

ارتقيت الدرج، وجلست على بعد بضع عتبات أسفل كلوف، وقد سحبت ركبتيَّ وضممتهما إلى صدري. كانت العلبة الأسطوانية التي تحوي الخريطة ملقاة على الأرضية خلفه، إلى جوار حزام التجريف الذي أحضره من الحانة.

قال كلوف وعيناه ما زالتا مثبتتين على سكينه: "لقد تسببتِ في فوضى أيتها الجرَّافة"، لكن الكلمات لم تكن حادة أو اتهامية، حتى إنها لم تخلُ من طيف تسلية.

قلت: "أعلم ذلك".

لم يكن كلوف يأخذ أشياء كثيرة على محمل الجد، وتساءلتُ عما إذا كان ذلك طبعًا راسخًا في نفسه، أم أنه قد رأى ما يكفي من العالم لفهم مدى ضآلة سيطرته على أي شيء. لقد كان درسًا مؤلمًا بدأت أتعلمه.

انحنيت إلى الأمام حتى تسنت لي رؤية الغرفة من بابها المفتوح، حيث كان سينت واقفًا عند النافذة، وذراعاه معقودتان على صدره وهو يشاهد المطر. حسبت أنه لم يبرح مكانه هذا منذ صعد.

سألت كلوف وقد أبقيت صوتي منخفضًا: "ماذا يفعل؟".

قال: "إنه يفكر".

تأملته وهلة، ورأيت فيه المعنى الذي يقصده. لم يكن سينت مستغرقًا في التفكير فقط، بل كان يقرر؛ يقرر ماذا سيفعل معي.

قلت: "ليس ثمة الكثير للتفكير بشأنه. إما أن مجلس التجارة سيقضي بعودتي إلى السفينة لونا، وإما سيسحب ترخيصكما".

قال: "نعم، سوف يفعل ذلك".

سررت بأن كلوف لم يتظاهر بوجود حل لهذه المعضلة، فلن يعود ذلك بالنفع على أحد.

سألته: "إذن، ما الذي يفكر بشأنه".

قال: "إنه لا يحب أن يتخذ الآخرون القرارات نيابة عنه. إذا كان عليَّ أن أخمن، فهو يحاول استكشاف كيف يبقى قادرًا على تحديد مسار مستقبله بنفسه بدلًا من أن يُساق إليه".

سألته مرة أخرى: "أليس ذلك ما يفعله مجلس التجارة بالفعل؟".

قال: "لست أتحدث عن المجلس".

عندئذ رنوت بعينيَّ صوب عينيه، وأنا أتساءل: "تقصدني أنا؟".

قال وهو ينبش الخشب بالسكين مرة أخيرة قبل أن يتركه: "نعم أنت. إن كل أحجار الأفعى الجالبة للحظ في منطقة المضايق لا تغني شيئًا في حمايتنا من ضروب المتاعب التي ستجلبينها لنا".

عقبت: "إلا إذا عدتُ إلى السفينة لونا".

هز رأسه قائلًا: "أخشى أن مشكلتك ليست سهلة الحل هكذا. فأنت من أفراد طاقمنا".

قلت: "لست كذلك".

قال: "بل أنت كذلك. ولست من أفراد الطاقم العاديين الذين يمكنهم الاختفاء في ميناء، أو ترك الطاقم بعد إتمام عقدهم معنا. بطريقة ما كنت أنا الوحيد الذي عرفت ذلك في اللحظة التي رفعنا فيها المرساة ونحن نغادر ديرن، عرفت أن قرارًا حاسمًا قد اتُخذ، قرارًا لا رجعة فيه".

قلت: "لست أدري ماذا تقصد".

تردد كلوف وهو يتفحصني بعينيه قبل أن يتحدث مرة أخرى: "لم يعد الأمر منوطًا بي وبه فقط"، وخرجت كلماته متجردة من تلك الثقة البالغة كالمعتاد، بل وشت بقلق يعتريه.

قلت: "اختياراتي تقع على عاتقي، إنه ليس مسئولًا عما يحدث لي، ولا أنت أيضًا".

قال: "ربما. لكن سينت يتقن تأنيب ذاته، وتحمل اللوم على الأخطاء، ويحاول معالجة الأزمات، هذه هي طريقته".

تمنيت لو لم أكن قد فهمت ما قصده بذلك.

أمسك سينت بالسكين مرة أخرى وصوَّبها نحو قطعة الخشب، وأدركت أنه لم يكن يحاول نحتها بشكل معين، بل كان فقط يُبقي يديه مشغولتين، محاولًا بذلك تزجية وقته بشيء وهو ينتظر عودة سينت من وقفته عند تلك النافذة.

سرعان ما اكتشفت أن سينت لم يكن مجرد صبي خرج من العدم، ويطلب الموت في خضم العواصف كما تروي القصص المنسوجة حوله، لم يكن ذلك القبطان الشجاع في مخيلة أبناء منطقة المضايق، بل كان أمره أعمق من ذلك، الحق أنني كنت متيقنة أن الخوف هو الذي يدفعه إلى خوض غمار الغيوم السوداء المتكاثفة خلال العواصف.

وجهت عينيَّ صوب العلبة الأسطوانية الملقاة على الأرض، وقد رق جلدها الناعم البالي من كثرة احتكاك يدي سينت بها. لم يكن خائفًا فقط من خسارة كل ما كان يعمل في سبيله. لقد كان هو ومنطقة المضايق شيئًا واحدًا، وإن وئدت فكرة نهوض منطقة المضايق بقوة، فسيهلك هو الآخر.

نهضت واقفة، وتجاوزت كلوف، وأمسكت العلبة. لم يلتفت سينت لينظر إليَّ حين دخلت من الباب. كانت الغرفة الصغيرة تتألف من ألواح أرضية مغبَّرة ونافذة ذات زجاج متصدع تطل على أسطح منازل، وتسنت لي رؤية انعكاس وجهه على الزجاج، لكن عينيه بقيتا شاخصتين إلى المشهد أمامه.

دسست يدي في جيبي لأخرج حافظتي، وفتحتها، وحين تدحرج الحجر على أصابعي أحسست بأنه أثقل مما كان عليه في أي وقت مضى.

ثم تنهدت وقلت: "قد لا أكون واحدة منكم، بيد أنني لست واحدة منهم أيضًا. ولم أكن كذلك قط، ولهذا أتيت إلى هنا، ولهذا لا أستطيع العودة".

ثم وضعت حجر قلب الليل على حافة النافذة بجواره، وارتمى الضوء الخابي على حواف الحجر اللامعة، فرنا إليه بلا حراك.

واصلت حديثي: "لقد كنت أغوص لأحضر الأحجار الكريمة لوالدتي منذ أن بلغت العاشرة من عمري. ولفترة طويلة لم أكترث بقيمة الأحجار التي كنت أحضرها إلى صناديق والدتي، أو بمدى تأثيرها، إذ ما دام ذلك يرضيها عني فلا بأس. ولكن مع مرور الأعوام استطعت رؤية تلك النظرة في عينيها، لم تحبَّني لأنني ابنتها خبيرة الأحجار الكريمة، لقد أحبَّت فقط الأرباح التي أدرها عليها"، وازدردت ريقي بصعوبة، ثم أردفت: "لقد عثرت على هذا الحجر مصادفة، ولم نكن في مهمة غوص. وحالما رأته هولاند علمتُ أنني قد اقترفت خطأ. إذ كانت هذه أول مرة يتملكني الخوف حقاً، وقد كذبت عليها بشأن المكان الذي أحضرت منه الحجر، كذبت عليها بعفوية دون أن أقرر ذلك سلفًا".

تساءل وهو يلتقط الحجر بعناية: "ما هذا؟".

أجبته: "حجر قلب الليل".

قال: "لم أسمع به من قبل".

فعقبت: "لأنه غير موجود. لا يعرف أحد بوجوده بعد. هذا هو الحجر الذي كان من شأنه أن يجعل والدتي المسيطرة الوحيدة على منطقة البحر المجهول ومنطقة المضايق. لكن لم أستطع السماح بحدوث ذلك، ومن ثم سرقته وهربت، كما قال زولا".

لاحت في عيني سينت نظرة تنم عن أنه قد استوعب شيئًا وهو يقلب الحجر بين يديه: "إذن، هي لا تبحث عنك؛ إنها تبحث عن هذا الحجر؟".

أجبت: "أحسب أنها تبحث عني وعنه. لن تتخلَّى عن خبيرة الأحجار الكريمة بهذه السهولة، خاصة مع الأرباح الطائلة التي جلبتها لها".

أخيرًا نظر إليَّ.

أضفتُ: "قتلتْ أبي حين حاول حمايتي منها"، نطقتها بصوت مسموع عَمَّق الألم في نفسي، ثم أردفت: "وقررت أن الطريقة الوحيدة للقصاص منها هي سلبها كل شيء كنت قد ساعدتها على تشييده. وجئت إلى سيروس لأسلم هذا الحجر إلى زعيم نقابة الأحجار الكريمة. إذ ارتأيت أن القصاص الأفضل يتمثل في جعل اليد العليا لمنطقة المضايق. لكنها دائمًا ما تسبق الجميع بخطوة، وحين ذهبت إلى مقر الزعيم وجدتُها هناك بالفعل".

تساءل: "ماذا تقصدين؟".

قلت: "سيطرتها، نفوذها. زعيم نقابة الأحجار الكريمة طوع بنانها بالفعل، ولعله ليس الوحيد".

لم يبدُ متفاجئًا من ذلك.

وأخذت شهيقًا، وأردفت: "قلتَ إنك ترى مستقبلًا لمنطقة المضايق".

رد: "صحيح".

قلت: "إن أردت أن تشهد ذلك واقعًا حقيقيًا في يوم من الأيام فحري بك ألا تكون على شاكلتهم".

فعقَّب: "أعلم ذلك".

عندئذ أخذت علبة الخريطة من كتفي، وفتحت غطاءها، وقلت: "لن تتمكن من دحر نفوذ منطقة البحر المجهول في تجارة الأحجار الكريمة، فدائمًا سيكون لها السبق في هذا المضمار، من حيث الشعاب المرجانية والأحجار والتجَّار. لكن يمكنك استخدام قوتها ضدها".

انزلقت الخريطة من العلبة إلى يدي، وبسطتُها حتى ظهرت مجموعة الشعاب المرجانية الشاسعة التي رسمها هناك، فأشرت إليها.

وقلت: "إليك كيف تحقق هذا المسعى".

استرعيت انتباهه بالكامل الآن، فأمسك بطرف الخريطة ليبقيها مبسوطة، ثم تساءل: "بحر شَرَك العواصف؟".

أومأت بالإيجاب، وقلت: "إن كان ما قاله زولا صحيحًا، فثمة عشرات السفن المتحطمة في تلك الشعاب المرجانية، وكثير منها من سفن منطقة البحر المجهول".

قال: "بلى، لقد رأيت السفن المتحطمة هنالك".

قلت: "إذن لا تدري مقدار الثروات الكامنة في جوفها".

تحوَّل وجه سينت نحوي، وثارت في ذهني ذكرى وقوفه بهذا القرب مني في ظلام ليلة أمس.

وأضفت: "لن يبحر أحد في تلك المياه؛ لأنهم يخشون من فكرة الإبحار فيها. ولكن إذا كان بمقدورك رسم خريطة لمنطقة المضايق، فبمقدورك رسم خريطة لبحر شرك العواصف، وبعد ذلك كل ما عليك فعله هو أن تأخذ الثروات التي تجدها هنالك".

كان بوسعي رؤية عقله يتجاذب الأمر الآن، ويُقلبه على كل وجه، ويتنقل من فكرة إلى أخرى، ومن احتمالية إلى غيرها.

واصلت حديثي: "هيِّئ لنفسك تجارة لا تعتمد على تجار سيروس، واعمد إلى إغراق منطقة المضايق بنقود وافرة، وهكذا سينحسر نفوذ تجار منطقة البحر المجهول على النقابات. وبمجرد أن يحدث ذلك...".

قاطعني متممًا الجملة: "ستتوالى كل الأمور تباعًا".

أومأت بالإيجاب.

فقال: "سأحتاج إلى مَن يتولى مهمة التجريف إذا كنا سنغوص في بحر شرك العواصف".

قلت: "ارسم الخريطة، وحين أتم فترة عقدي على متن السفينة لونا سوف ألتحق بطاقمك لأتولى تلك المهمة، سأعمل على تجريف كل الشعاب المرجانية".

فكر في ذلك، وقال: "قد لا يكون لديك خيار. إذا عدت إلى زولا، فسيبيعك إلى أوليفر ديورانت".

قلت: "سوف أحرص على عدم حدوث ذلك".

تساءل: "كيف؟".

تركت الخريطة تنطوي بين يدي، وأجبت: "سوف أدر على هذا الوغد من تجريف الشعاب المرجانية أرباحًا طائلة أكثر مما سيدفعه له ديورانت. إن أثبتُّ له ذلك، فبوسعي تغيير رأيه".

لم يبدُ سينت مقتنعًا، ولأكن صادقة لم أكن مقتنعة أنا الأخرى.

سألني: "هل ستعودين؟".

أجبته: "إن كنت لا تزال تريدني".

واقترب مني جدًّا وهو ينظر إلى وجهي من أعلى حتى صار طرف أنفه على بعد أنامل من طرف أنفي، ثم قال: "لقد أردتك منذ اللحظة التي رأيتك فيها. هذه هي المشكلة يا إيزولد".

اشتدت خفقات قلبي خلف أضلعي، واضطربت أنفاسي.

ثم همس: "ماذا تريدين أنت؟".

غمرني السؤال بمشاعر طاغية حتى أحسست كأن المطر الغزير في الخارج يهطل في رئتيَّ مثقلًا صدري وحابسًا أنفاسي، إن تلك العواطف الجياشة الثائرة بيننا كانت أشبه بالحبال المتهالكة على صواري السفينة ريفين، كان انقطاعها مرتقبًا في أية لحظة.

لم أعرف متى حل الوئام بيننا أو كيف، وكل ما أعرفه أنني في وئام. قدر محتوم ساقنا إلى هذه النقطة، كما ساقني القدر المحتوم من مدينة باستيان إلى تلك الحانة في ديرن، وكما وضعني في طريقه، ووضعه في طريقي. إن هذا التاجر الذي خاض العواصف، وتحدث إلى البحر، وعقد اتفاقًا مع الشياطين كان أول إنسان يسألني عما أريده، وقد كانت الإجابة سهلة، لقد أردته هو. لكن الرابط بيننا لم ينحصر في مجرد انجذاب عاطفي سطحي، بل كان أكثر عمقًا من ذلك.

قلت: "أريد أن أشيِّد شيئًا لا سيطرة لهم عليه".

فقال: "حسنًا. سوف نفعل ذلك إذن".

28 إيزولد

جلس سينت على حافة الطاولة، قبالتي أنا وكلوف، لكن كليهما كان ينظر إليَّ، وقال: "اشرحي لنا".

لم يكن ثمة ريب في أن طلب الاستدعاء قادم، إذا كان زعماء النقابات في سيروس على شاكلة نظرائهم في منطقة البحر المجهول، فلن يتسامحوا في قضية تشغيل شخص يربطه عقد بطاقم سفينة أخرى. لكن ما لم يكن أكيدًا هو ما سيفعله سينت وكلوف حين يتسلمان طلب الاستدعاء.

قلت: "سوف يستمع المجلس إلى اتهام زولا الموجه إليكما، ثم يُرسل طلب الاستدعاء إلى مديري الموانئ، وأول مدير ميناء يعثر على سفينتكما سيحصل على مكافأة من المجلس مقابل تقرير مذكور فيه أنه سلمكما الاستدعاء. ومنذ لحظة التسلم يكون أمامكما يومان للحضور إلى مقر المجلس من أجل التحقيق في الاتهام".

ارتسمت جدية هائلة على محيًا كلوف، ما أشعرني بقلق أكبر، فقد كان هو الشخص الذي يجد عادةً بصيص أمل في الموقف العصيب، لكن في هذا الموقف كانت المخاطر هائلة، من شأنها أن تهلكهما. قال: "وكيف سيجري الأمر؟ أقصد التحقيق".

قلت: "سيعقد مجلس التجارة اجتماعًا رسميًّا، وسيدعو أعضاء النقابة الراغبين في الحضور".

فسألني: "ولِمَ عساهم يفعلون ذلك؟".

أجبت: "إنهم يعقدون تلك الاجتماعات لأسباب كثيرة؛ مثل مراقبة التحالفات والمشاحنات بين أعضاء النقابة. أو استغلال المواقف لنيل ما يشتهونه. أو تجنيد بعض التجار لاستغلالهم بما يصب في مصالحهم الخاصة، أو التستر على أية أنشطة غير مشروعة. إنهم

يحبون جمع المعلومات عن المشكلات التي يواجهها التجار والنظر في إمكانية كيفية استغلال ذلك".

قال كلوف منفعلًا: "حسبت أن الغرض من مجلس التجارة هو تنظيم كل ذلك، أما هكذا فيبدو أنه يزيد الطين بلة".

عقبت وأنا أفكر في والدتي: "دائمًا ما ستوجد متاعب في أي مكان تسنح فيه الفرصة لاكتساب نفوذ أو المساومة على القوة".

كانت تلك هي الأساليب التي استخدمتها والدتي لارتقاء مناصب النقابات في منطقة البحر المجهول، وليس لديَّ أدنى شك في أنها يومًا ما ستكون ضمن أعضاء مجلس التجارة بصفتها زعيمة نقابة الأحجار الكريمة.

وأردفت: "بمجرد تقديم الاتهام، سيطلبون الأدلة التي تدينكما".

قال سينت مفكرًا بصوت مسموع: "العقد".

أومأت بالإيجاب، وقلت: "سأخضع للاستجواب، وسيُطلب مني شرح سبب انتهاك بنود العقد".

عندئذ ترامى صوت ناش من الدور السفلي قائلًا: "ما زلت لا أفهم، لماذا لا يمكنك قول الحقيقة فحسب. كان الوغد سيبيعك. تبدو تلك حجة مقنعة لي"، لم أحسب أنه ينصت إلينا، وتساءلت عما إذا كان يصغي إلى ما يقال منذ البداية.

قال سينت بصوت هامس: "لا. إن الحماية التي يوفرها مجلس التجارة تقتصر على القباطنة الذين يحملون التراخيص، ولا تتجاوزهم إلى أطقم البحَّارة. وإذا أخبرناهم بحقيقتها، فسيتنافس جميع التجار الفاسدين في بيعها إلى شخص آخر في اللحظة التي يدير فيها المجلس ظهره".

وأضاف كلوف: "يُستحسن أن تبقى إريس في الوقت الحالي".

قلت: "على أية حال لسنا الوحيدين الذين نمتلك وسيلة ضغط على الخصم، فزولا يعرف عن انخراطكما في تجارة الأحجار الكريمة المزيفة وتهريبها في زجاجات الجاودار، كما يعرف مصدر هذه الزجاجات. وإذا وجَّهتما إليه تهمة تهريب خبيرة أحجار كريمة، فسيحرص على تشويه سمعتكما أمام المجلس بتلك المعلومات هو الآخر".

تساءل كلوف: "فماذا سنفعل إذن؟".

قلت: "سوف يقضي المجلس بعودتي إلى السفينة لونا".

سألني: "وإذا لم تفعلي؟".

أجبته دون محاولة التكلف في اختيار الألفاظ: "سيسحبون ترخيصكما"، هذا هو مربط الفرس، وما من سبيل للالتفاف حول هذا الأمر، ثم أردفت بالصراحة ذاتها: "أنا على يقين بأنهم سيرغبون في جعلكما عبرة، خاصة أن منطقة البحر المجهول تراقب كل تحركاتهم".

تبادل سينت وكلوف النظرات، لم تكن خسارة الترخيص خيارًا مطروحًا.

تابعت حديثي: "ما دمت سأعود إلى لونا، فلا داعي للقلق. أما أنتما فستُفرض عليكما غرامة، ويمكنكما العودة إلى ديرن، والحصول على السفينة أستر والإبحار بها".

حافظت على نبرة صوتي هادئة. لقد تقبَّلت مصيري هذا في اللحظة التي جلس فيها زولا على ذاك الكرسي في حانة جريف. لقد وقَّعتُ على العقد، حتى إن لم يكن باسمي. ولم يكن ثمة مهرب من ذلك. ولحظة توقيعي لم أكن أكترث لشيء، كانت الرغبة الوحيدة المهيمنة عليَّ حينها هي إسقاط والدتي. لكنني الآن وأنا واقفة في الشقة أراقب الظلال تتحرك فوق الأرضية أدرك أنني لم أتمكن من خدش حصن نفوذها قط. ولم تكن مثل شجرة يمكنني اجتثاثها بنفسي، بل كانت شبكة جذور ضاربة تحت الأرض وتمتد إلى ما لا نهاية.

ترامى صوت ناش مرة أخرى من الأسفل يقول: "التاجر"، وأعقب ذلك دبيب قدميه على الدرج.

وحين ظهر رمقه سينت سائلًا: "أي تاجر؟".

قال محدِّثًا إياي: "الذي كان سيشتريكِ من زولا. ماذا كان اسمه؟".

تراءى لي وجه الرجل من صورته التي كنت قد رأيتها من قبل، وأجبته: "أوليفر. أوليفر ديورانت".

اتكأ ناش على الحائط لافقًا قدمًا حول أخرى، وقال: "إذن لديك ما تستغلينه في صالحك".

قلت: "لست أملك عقد اتفاقية النقل، إنه لا يزال على متن السفينة لونا".

قال: "إنه لا يعرف ذلك".

عندئذ تطلع سينت ببصره إليَّ، وعقله يزن الفكرة. لم يكن ذلك كافيًا، سوف يطلب مجلس التجارة أدلة.

قلت: "حتى لو كان العقد في حوزتنا، فهذا ليس دليلًا، مذكور في العقد أن الحمولة المنقولة حرير من مدينة نيمسمير".

هز ناش كتفيه قائلًا: "أي شخص يفتش وراء مخزون السفينة سيكتشف أن الوغد لم يكن يحمل حريرًا. واسم سيمون معروف في منطقة المضايق بأعماله في تجارة الأحجار الكريمة".

معلومة ربما كنت لأستفيد بها لو عرفتها قبل أن أذهب لطلب المساعدة من سيمون، هذا ما دار في خلدي.

وأردف: "على الأقل قد يثير ذلك فضول أحدهم. لا يتعين عليكم الإبلاغ عنه والمجازفة بفضح أمر إيزولد. يكفي أن يعرف أنكم قادرون على إحداث المتاعب له إن أردتم".

عندئذ رنا كلوف إلى ناش بنظرة تكاد تكون نظرة إعجاب، وقال: "تحطيم الرءوس بزجاجات الجاودار، والكيد لمجلس التجارة. لست عديم النفع في النهاية، أليس كذلك؟".

قال ناش ساخرًا: "أحاول فقط أن أسهم بما يجعلني جديرًا بمكاني".

كان محقًّا بشأن التاجر. إن الحصول على هذه المعلومة ذو قيمة، سواء استغلها سينت الآن أم ادخرها إلى يوم الحاجة.

قلت وأنا أحرص على الحيلولة دون انبثاق أية أفكار في ذهن سينت جراء تلك المعلومة: "ما زال هذا لا يغير حقيقة أنني سأعود إلى السفينة لونا".

قال: "أعلم".

أخذ كلوف ينقِّل بصره بيننا قائلًا: "أعتقد إذن أن الوقت قد حان للقصد إلى مدير الميناء، من المفترض أن يكون الاستدعاء في الانتظار".

أومأ سينت بالموافقة.

لا جدوى من تأجيل المحتوم. كلما طال أمد بحث المجلس عن سينت ازداد ارتياب أعضائه فيه، خاصة أن سفينته لا تزال راسية في سيروس.

تأوه كلوف وهو ينهض منتصبًا، وقال وهو يومئ بذقنه إلى ناش: "هلمَّ".

فتساءل ناش: "أنا؟".

قال كلوف: "هذه المدينة تكتظ بأفراد طاقم زولا، لا بد لي من شخص يحمي ظهري".

تنهد ناش وهو ينتزع سترته من الخطاف.

وبعد هنيهة خرجا، صرت أنا وسينت وحدنا في الشقة الخاوية. وجعل ينقر بأصابعه على مرفقه، وعيناه مثبتتان على الموقد غير المشتعل في الجانب الآخر من الغرفة.

سألته: "لا يروقك أن تكون على اليابسة، أليس كذلك؟".

أجاب: "كلا".

عدت أسأله: "ولِمَ؟".

تروَّى مفكرًا في الإجابة قبل أن يقول: "البحر أصدق من البشر".

لا يمكنني المجادلة في ذلك. لكن هذه المقولة لا تصدُق على سينت. لم يكن على شاكلة الآخرين، إن قوة حضوره طاغية وتأثيره عميق في نفسي.

قلت: "لقد عنيت ما قلته لك. سوف أعود وأعاونك في تجريف بحر شرك العواصف".

لم يكن الباعث على كلامي هذا رغبتي في إسقاط والدتي فقط، بل صار الأمر منوطًا أيضًا بالقبطان الواقف أمامي، وبالبريق الغامض الذي يلوح في عينيه، وبأسلوبه في البوح بما يعتلج في نفسه بصدق. وإذا كان ثمة مستقبل لمنطقة المضايق، فإنه يتمثل في سينت، ومستقبلي أيضًا مرتبط به.

قال: "أعرف أنكِ ستفين بوعدك".

عندئذ خطوت خطوة نحوه، وهذه المرة لم أنتظر حتى يُقبلني؛ شببت على أصابع قدميَّ، وأمسكت وجهه بين يديَّ، ثم تبادلنا عناقًا حميمًا، وطوقني بذراعيه والدفء المنبعث منه يتدفق داخلي.

لقد عبَّرتُ عن وداعي دون الحاجة إلى نطق كلمات، أو وعود، أو نيات.

لا أستطيع تغيير تلك الليلة في مكتب والدتي، أو تغيير المسار الذي سلكته وأنا ذاهبة إلى مقر سيمون، ولا أستطيع الرجوع بالزمن ومحو توقيعي من ذلك العقد مع زولا، لكن يمكنني توحيد مصيري مع مصير سينت، وخوض دربه معه، وأعلم أن ثمة شيئًا حقيقيًّا فيه؛ لأنني استشعرته، استشعرته في الأجواء المحيطة بنا، وفي استقرار نفسي حين يلمسني. ذلك الإحساس بأننا كنا في بداية قصة سوف تظل تُروى بعد أمد طويل من رحيلنا؛ تلك أشياء لا تقدر بثمن.

إن ابتعادي عامًا لهو مدة يسيرة إذا قُدِّر لي العودة بعدها لمرافقته في هذا الدرب.

29 سينت

إن البرد الذي نخر في عظامي منذ أن غادرت قرية كراجسماوث قد تلاشى الآن للمرة الأولى.

كانت إيزولد تغط في نوم عميق بجواري، وذلك على الرغم من حقيقة أنها ستواجه مجلس التجارة حين تستيقظ. لم تفقد رباطة جأشها حين أدركت أن السبل قد تقطعت بها، وكنت أتوقع أن تهرب تحت جنح الليل عائدة إلى المكان الذي أتت منه، بيد أنني عرفت أن هروبها من باستيان وتركها حياتها هناك لم يعنِ أنها من النوع الذي يلجأ إلى الهروب دائمًا، بل تتحلى بالعزيمة التي تحثُّها على مجابهة الصعاب.

ارتمى شعرها على خدها مخفيًا خط النمش الذي يعتلي عظام وجنتيها، وقد رقَّت أنفاسها للغاية، لدرجة أنني أسمع بجهد صوت أنفاسها وسط صوت المطر وغطيط ناش. حتى كلوف استطاع أخذ قسط متواصل من النوم بضع ساعات، أما أنا فلم يسعني إغماض عينيَّ عن وجه إيزولد النائمة بجواري، وقد ضمت يدها إلى صدرها. إن كانت ستغادر، فأريد أن أنحت صورتها في ذاكرتي.

على السرير كانت توجد بعض الألحفة المهترئة، ورقدنا هنالك نشاهد قطرات المطر تتساقط على النافذة دون أن نتحدث حتى صارت أنفاسها طويلة وعميقة. هذه الفتاة التي أتت إلى السفينة ريفين تجر وراءها جحافل من الشياطين، أحسست بأنها الشيء الوحيد المستقر وسط بحر الفوضى هذا، كأنها نقطة ثابتة في أفق مضطرب.

لم يمنحني أحد أي شيء على سبيل الهبة، ولا أبي نفسه. كان يؤمن بأن على المرء الكد من أجل الكسب، وأن يبني المرء قيمته بعمل يده. ولكنني كنت أحس إحساسًا معذبًا بأنه ما

من شيء بوسعي فعله لأستحق الشعور بهذا الدفء، وما كنت لأخادع نفسي بأنني جدير بذلك.

مددت يدي بحرص نحو جسد إيزولد المستلقي، ودسستها في جيب سترتها لأخرج الحافظة. لقد صار جلد الحافظة ناعمًا من أثر احتكاك أصابع إيزولد بها، وأحسست بوزن الحجر ثقيلًا في يدي. فتحت الحافظة وتركت الحجر يتدحرج في كفي، وأمسكت به موجهًا إياه نحو ضوء القمر، تراقصت خيوط أرجوانية في جسم الحجر الأسود، كأنها ألسنة لهب تجمَّدت بمرور الزمن.

لقد قلب هذا الحجر توازن حياة إيزولد حتى رمى بها إلى حياتي. كان شيئًا من شأنه أن يشيد مدنًا أو يحرقها، يرفع ملوكًا أو يُهلكهم، وكان بوسعي استشعار أهميته فور أن وقعت عيناي عليه.

حدَّثتني نفسي بشيء أيضًا، همس لي صوت بأن هذا الحجر في يدي من شأنه أن يصلح كل أمر مُعوَّج في حياتي - أمر سفينتي، وديوني لهنريك، وتجارتي. ومن شأنه أن يصلح أمر باستيان ومجلس التجارة ومنطقة المضايق. ومن شأنه أن يُحدث تغييرًا جذريًّا سريعًا، ويوفر فرصًا وإمكانيات عظيمة. لم أملك مثل هذا الضرب من القوة في متناول يدي من قبل.

ورفعت جذعي ببطء لأجلس وأنا أسحب ذراعي من تحت جسد إيزولد، ومع نهوضي حوَّلتْ وجهها نحو ضوء القمر، أما أنا فأحكمت قبضتي على الحجر حتى استشعرت بوخز أطرافه الحادة على جلد كفي التي لم تزل جروحة تلتئم. لقد أعلمتني إيزولد بشأن الحجر ثقةً بي، لكن كان حريًّا بها ألا تفعل ذلك. لقد رأت شابًّا يحاول بناء سلم ليرتقي به؛ لكنها لم تعلم أنني صنعت هذا السلم بعظام الموتى.

ندَّ عن الباب صرير خافت وأنا أغلقه ورائي وأخرج إلى الزقاق. وبدأ المطر يهدأ أخيرًا، وكانت المدينة هادئة هدوءًا لا تشهده سيروس إلا في منتصف الليل. سوف يأتي الغد

بمخاوفه ومشكلاته، أما في هذه الساعة فقد تناثرت النجوم في صفحة السماء السوداء ساطعة مثلما كنا في مزرعة إميليا.

وأحسست بشعور الدفء الذي استشعرته بجوار إيزولد يزايلني وأنا أشرع في السير في الزقاق. وحين لاحظتُ عينين ترصدانني في الظلام، أخرجت عملة نحاسية من حزامي.

وحالما التمعت العملة في ضوء القمر، خرج صبي من العتمة وهو يرتدي سروالًا مطويًا عند كاحليه، ومن تحته قدمان حافيتان موحلتان. كان شعره الأسود مبللًا، وخصلاته تتلوى فوق حاجبيه، وبدا أنه مقصوص بهذا الطول كي يتسنى للصبي الرؤية. وطرف بعينيه مرة قبل أن يرفع ناظريه نحوي.

قلت وأنا أشير لأعلى: "أريدك أن تجلس عند تلك النافذة. إذا أتى أي شخص غيري إلى ذلك الباب، فعليك أن تستدعي كل وغد في وادى الضنك مستلًّا سكينه".

أومأ الصبي متفهمًا.

وتابعت: "إن وجدتك في مكانك حين أعود، فسوف أعطيك عملة نحاسية أخرى".

انتزع العملة من أصابعي وهرع مندفعًا نحو الظلام، واختفى صوت ارتطام قدميه الحافيتين بالوحل عندما انعطف، وجعلت أراقب النافذة المطلة على الشارع حتى رأيت وجهه من خلف الزجاج.

مشيت على الجسور المفضية إلى حي التجار للمرة الأولى. والآن بعد أن حزت ترخيصي التجاري لن تكون تلك المرة الأخيرة. إذ ستكون هناك صفقات يجب إبرامها، وعقود يجب التفاوض عليها، واستثمارات يجب الشروع فيها، إن أردنا تحرير منطقة المضايق من قبضة تجار منطقة البحر المجهول، كما قال كلوف. وساورني شعور بأنني سأقضي في تلك الشوارع أوقاتًا كثيرة، أكثر مما أود.

دفعت ثلاث عملات نحاسية فقط لمعرفة مسكن الرجل الذي أبحث عنه، كانت هذه هي المشكلة مع هؤلاء الحمقى الأثرياء، لقد ركنوا إلى غناهم حتى نسوا أن لديهم ما يخشونه، وأغفلوا حماية أنفسهم كما ينبغي.

وجدته منزلًا مشيدًا بحجارة رمادية، ذا باب مطليٍّ باللون الأحمر، عُلِّقت به مطرقة باب نحاسية تأخذ شكل عجلة الدفة في السفينة. ومن وراء زجاج النوافذ مُدَّت ستائر مخملية خضراء، لكن وهج الشموع كان يتسرب من الزجاج. بعد بضع دقائق سوف تشرق الشمس فوق البحر، وتدب الحركة.

مددت يدي، وأمسكت بالمطرقة، وطرقت ثلاث مرات؛ طرقات قوية كي توقظ الوغد إن كان نائمًا إلى الآن. تمايل الضوء خلف الستائر، وسمعت دبيب أقدام خلف الباب قبل أن ينفتح، وظهرت من ورائه شابة ذات عينين واسعتين، وتتغطى بمئزر.

رفعت عينيها نحوي، وأخذت تمرقني بهما وهي تقول: "هل لي أن أساعدك؟".

قلت: "أود أن ألتقي التاجر".

تساءلت: "في هذه الساعة؟".

قلت ويداي ما زالتا موضوعتين في جيبيَّ: "سيرغب أن يراني"، وكان الحجر لا يزال في قبضتي كأنه جمرة.

كانت المرأة حذرة، وكان حريًّا بها أن تكون كذلك.

حدقت إلى وجهي هنيهة أخرى وقالت: "انتظر هنا".

أمسكت الباب قبل أن تغلقه، وقلت: "أخبريه بأن الأمر يتعلق بحمولة الحرير التي يرتقب وصولها".

حين تركت الباب، أغلقته المرأة، وابتعد دبيب الأقدام، وتركتني واقفًا في الشارع وحدي. وفي الأفق دبَّت أمارات الحياة في المحلات التجارية في حي التجار، حيث ترامى صوت المياه المتدفقة في الشارع، وصوت باب يحتك بحجارة الطريق. وكان ضوء الصباح الشاحب يتسلل إلى المدينة مع انفتاح باب المنزل مرة أخرى.

هذه المرة تنحَّت المرأة جانبًا كي أدلف، وسألتني بتلعثم: "هل آخذ منك سترتك لأعلقها؟"، كنت أشك في أن مثل هذا اللقاء تحفُّه آداب اللياقة.

قلت: "لا. لن أمكث طويلًا".

وفي الداخل فاحت في الجو رائحة الخبز واللحم، وأضيئت الشموع في أعلى الدرج لتنير عتمة المنزل، بينما الشمس لا تزال تشق طريقها ببطء في السماء.

وضعت المرأة يدها على السور الخشبي المنحوت، وشرعت ترتقي عتبات الدرج قائلة: "اتبعني".

تبعتها وعيناي تجوبان اللوحات ذات الأطر المذهبة المعلقة على الجدران، والتي صورَّت مشاهد حقول الجاودار، والمنحدرات، والسفن في الميناء. إن تلك المشاهد لمنطقة المضايق عرضة لخطر عظيم بسبب مخططات أوليفر ديورانت.

كان الباب في نهاية الردهة مفتوحًا، وانعكس ضوء الشموع على علبة زجاجية داخل الغرفة. وتوقفتُ أمام العتبة وأنا أتفحص الغرفة، كانت الغرفة مهيأة لتكون مكتب عمل، حيث امتلأت الجدران بالأرفف التي تحتوي على كتب ومجلدات، وعلب تحوي نبتة البوصير. وغطى الأرضية الخشبية بساط منسوج يدويًّا محاطة أطرافه بشراشيب ذهبية. ما من شيء هنا يمكن صنعه في سيروس، وكانت هذه خلاصة ما كنت بحاجة إلى معرفته عن الرجل الجالس خلف المكتب الخشبي المزخرف.

أوليفر ديورانت.

أحاطت لحيته الكثيفة البيضاء وجهه العريض، وكانت أكثر بياضًا قياسًا إلى عمره، وكان شعره ممشطًا بعناية، وأزرار سترته الفاخرة مزررة كأنه استيقظ مبكرًا ليعمل على دفاتره قبل شروق الشمس. كنت متأكدًا أنه كان منكبًا على دفاتره بالفعل. وضع يديه على ذراعي كرسيه وجعل يرمقني كأنه يرتاب في أنني قد أستل سكيني.

أومأت لي المرأة بالدخول، ثم أغلقت الباب خلفي، لكن أوليفر لم يُحوَّل عينيه عني.

قال: "ومَن أنتَ بحق الجحيم؟".

تقدمت بخطوات متأنية وأنا أرصد محتويات الغرفة. وعند الجدار البعيد وقفت طاولة عليها مصباح خاص بفحص الأحجار الكريمة إلى جوار عدة صوانٍ تحوي أحجارًا. إنه تاجر أحجار كريمة ارتأى أنه بحاجة إلى خبيرة في هذا النوع، ربما لفحص الأحجار التي كان يشتريها أو للتأكد من أن الأحجار المزيفة التي يبيعها متقنة الصنع بدرجة تحول دون اكتشافها. أو لعله مثل التجار الذين تحدث عنهم هنريك، أولئك الذين يتعقَّبون خبراء الأحجار الكريمة للقضاء عليهم واحدًا تلو آخر، إذ كلما قل عددهم ازدادت قوة أمثاله، وصاروا أكثر أمانًا.

قلت وأنا أسحب الكرسي المكسو بالجلد من أمام المكتب الخشبي: "اسمي سينت". رافعًا إحدى قدميَّ على ركبة قدمي الأخرى، واتكأت على ظهر الكرسي. وكان نعل حذائي لا يزال ملطخًا بالطين، وهي تفصيلة لم يتغاضَ عنها أوليفر.

ضيَّق عينيه، وهو يرمقني، وتساءل: "أين سمعت هذا الاسم من قبل؟".

وقلَّبت الحجر في جيبي مرة أخرى. ما من أحد يدري، ربما سمعه في السوق، أو في مجلس التجارة، أو في الحانة، إن اسمي يتردد في أماكن كثيرة، ولست أكترث أين سمعه.

قلت: "لديَّ مشكلة، وسوف تحلها".

قال: "أخشى أن لديَّ مشكلاتي الخاصة".

قلت: "هذا صحيح؛ لأنني أعرف عن تجارة خبراء الأحجار الكريمة التي تديرها".

عندئذ تململ في كرسيه، وهو يحاول الحفاظ على رباطة جأشه، بيد أنه كان متوترًا، وجالت عيناه في أرجاء الغرفة قبل أن تستقر عليَّ مرة أخرى، ثم قال: "إذن أنت هنا لتحاول ابتزازي ماديًا قبل أن تبلغ مجلس التجارة عن العقد، أهكذا الأمر؟".

قلت: "إن إبلاغ مجلس التجارة عن صفقتك مع سيمون لا يخدم أغراضي".

سألني: "إذن، تريدني أن أنقلب على القبطان الذي تولى عملية النقل؟ قبطان السفينة لونا؟".

قلت: "ولا هذا سينفعني".

تساءل: "إذن، ماذا تريد يا بني؟".

أجبت: "اكتساب صديق في النقابة".

بدر منه صوت ينم عن استهانته بما قيل، وأخيرًا حرك يديه من فوق ذراعي كرسيه، وعقدهما فوق سترته، ثم قال: "لا أصادق من يهددونني".

قلت: "لو كنت مكانك لأعدت التفكير في الأمر. ففي غضون عام سوف تستجدي خدمات تاجر مثلي".

احتدت نظرة أوليفر، وأصبح فضوليًا، ثم قال: "أنت تاجر".

قلت: "بلى".

قال: "هل هذه المساومة تتعلق بعقد تجاري؟ لأن لديَّ وفرة في العقود التي يمكنني تقديمها إليك".

قلت: "إنها تتعلق بالنقود. على وجه الدقة بمبلغ قدره ثلاثمائة وست وخمسون عملة نحاسية"، كان هذا بالضبط هو المبلغ الذي يجب أن أسدده لهنريك حين أعود إلى ديرن.

كرر كلمتي: "نقود".

قلت: "صحيح".

قال: "لماذا لم تقل ذلك؟ لديَّ وفرة في النقود أيضًا".

أومأت برأسي، ثم قلت: "سأحتاج منك أيضًا إلى أن تحرص على عدم إبرام قبطان السفينة لونا أية عقود تجارية مع نقابة الأحجار الكريمة. وأجعلك شخصيًّا المسئول الحريص على إنهاء تجارة خبراء الأحجار الكريمة بين منطقة المضايق ومنطقة البحر المجهول إلى الأبد".

قال: "لا أستطيع أن...".

قلت: "بل تستطيع. ولسوف تفعل. وإلا ستخسر خاتم التجارة هذا، وستفقد أية فرصة تسنح لزيادة نفوذك والترقي في النقابة".

عندئذ سرى طيف من الاحمرار تحت جلده، وأخذ خداه اللون القرمزي من فوق لحيته، وسألني: "ما الاقتراح الذي تقدمه ويجعلني أبسُط سيطرتي على جميع تجار هذه المدينة من أجل إنجاح هذا المسعى؟".

قلت: "أعتقد أنك ستكتشف حلًّا لذلك"، ثم وضعت قدمي على الأرض وانحنيت إلى الأمام، وأردفت: "وإذا تعرضت خبيرة الأحجار الكريمة التي طلبت نقلها من باستيان لأدنى أذى على يدك أو يد أي شخص آخر، فسوف أقطع لسانك وألقيه لطيور البحر، ثم سأربطك

بالمرساة وأسحبك فوق أقرب منطقة شعاب مرجانية حتى ينفصل لحمك عن عظمك بدرجة تجعل من المتعذر على أي أحد في منطقة المضايق التعرف عليك. وستقضي بقية أيام حياتك في حي الساحل تتسول لتحظى بقدر من الأسماك المتعفنة التي لا تتمكن السفن من بيعها على الأرصفة".

شحب وجهه وازدرد ريقه بصعوبة.

سألته: "هل نحن على وفاق؟".

قال بصوت متهدج: "أعتقد ذلك".

قلت: "جيد"، ونهضت واقفًا، وأخذت الوقت الكافي لأزرر سترتي.

ودفع أوليفر كرسيه إلى الخلف، ثم فتح درجًا وأخرج منه كيس نقود، ووضعه على المكتب بيننا، ثم سألني: "هل هناك فترة محددة لهذا الاتفاق بيننا؟".

قلت وأنا أحمل كيس النقود، وأدسه في جيبي: "نعم. يمتد الاتفاق الفترة التي أراها مناسبة".

كنت ذكيًا بما يكفي لأعرف أن وسيلة الضغط التي أضغط بها عليه ستفقد تأثيرها مع الوقت، لكن لم أكن أعرف مدى الوقت الذي سيستغرقه ذلك. وحين يحل ذلك الوقت سأكون قد عثرت على سبل أخرى لجعل أوليفر ديورانت وأمثاله في نقابة الأحجار الكريمة بحاجة إليّ، كنت على يقين من ذلك.

تنهد تنهدة ثقيلة وهو ينهض من كرسيه، وتردد قبل أن يمد يده ليصافحني، بيد أنني لم أصافحه، واستدرت وعدت صوب الباب.

وقلت: "سعدت بالتعرف عليك يا سيد ديورانت"، ولقد قصدت ذلك حقًا.

بعد أن وصلت إلى السلم ترامى إلى أذني صوت قبضة تخبط المكتب، وأعقبه هدير من كيل اللعنات. وحين عدت إلى الشارع كان صوته الأجش قد خفت حتى صار همسًا مختنقًا، وهو يقول: "يا لك من وغد!".

30 إيزولد

استُهل يومي الأول من العام الذي يجب أن أقضيه على السفينة لونا بزقزقة العصافير.

استيقظت في وادي الضنك على ضوء الشمس المتدفق عبر النافذة. توقف هطول المطر أثناء الليل، واجتاح نسيم البحر المدينة حاملًا في ثناياه رائحة عاصفة عابرة. لم أشعر بأنني حزينة حيال ما هو آتٍ، ولا أحسست بالخوف منه، بل ساورني أمل كبير حيال ما سوف يتلوه ويعقبه.

لقد أمضيت ساعات الصباح في دراسة خريطة سينت التي سيضعها لبحر شرك العواصف، وتدوين الملاحظات له على ورقة لتوضيح الطرق التي عليها أن يسلكها أولًا عبر الشعاب المرجانية الوعرة. وحين أعود إليه بعد العام سيكون هو وكلوف جاهزين لتجريف المنطقة، وسنبدأ الرجوع إلى سيروس بالثروات قبل أن يفطن أي شخص لأمرنا. سنُبقي عملياتنا صغيرة وموزعة، لن نتاجر بالكثير لتفادي اجتذاب الانتباه، ولكن في غضون بضع سنوات سننشئ أسطول سفن يبحر من أجلنا بجانب السفينة أستر.

هبط سينت عتبات الدرج، وهو يمشط شعره بيده، وبوجه مغسول وقميص نظيف. لكنه لا يزال يبدو كأنه قد خرج مباشرة من أحد كتب أبي القديمة التي كانت تحكي عن أساطير البحر، لو أن أبي حضر معنا الآن لقال إن مشهد البحر المهيب يلوح في عيني هذا القبطان.

تصاعد لسان دخان عبر النافذة ينطلق من الغليون الذي يعض عليه كلوف بأسنانه، وهو واقف في الخارج. لقد كان هدوء كلوف يضاهي هدوء سينت، وكان قد ارتدى ملابسه سريعًا قبل أن يخرج لينتظرنا في الشارع.

سألت سينت وأنا أنهض من مجلسي وأترك ريشة الكتابة: "أمستعد؟".

انطوت الخريطة أمامي، وجعل سينت ينظر إلى الملاحظات التي كنت أدوِّنها وهو يقلب الورقة كي تتسنى له قراءتها، ولم ينبس بكلمة، ثم رنا بعينيه نحوي، وأومأ برأسه.

دسست يدي في جيبي وأخرجت الحافظة التي تحوي حجر قلب الليل، ووضعتها في راحة يده. وطوى أصابعه فوق أصابعي، في حين تقافزت نظرة استفهام في عينيه.

سألته وأنا أبلع ريقي على الرغم من الغصة التي تعترض حلقي: "هل تحفظه لي وديعة عندك؟".

فكر سينت مليًّا ويده لا تزال متشبثة بيدي، بدا غير متيقن، ربما خشية من تبعات هذا.

ثم قال أخيرًا: "نعم، حتى عودتك".

قلت: "شكرًا لك".

رق صوتي تحت ثقل عواطفي وأنا أنطق الكلمة، حتى إنها خرجت من فمي ثقيلة، لم أكن متيقنة على ماذا أشكره بالضبط، أغلب الظن أنني سعدت بمجرد وجوده، لقد كان حظي طيبًا بما يكفي لأعثر عليه في حياتي.

اشتدت قبضته على يدي قبل أن يفلتها، ودس الحافظة في سترته.

وقال ناش الذي كان عاقدًا ذراعيه فوق صدره، وهو يرمقني من الجانب الآخر من الغرفة: "إلى اللقاء يا جرَّافة".

أوضح سينت أن ناش غير مدعو لحضور الجلسة في مقر مجلس التجارة، وقد بدا مرتاحًا لذلك. وإذا تمكن من النجاة بحياته بضعة أيام أخرى، فسيعود إلى حياته الطبيعية في ديرن كأن شيئًا لم يحدث قط.

ابتسم لي ابتسامة لم أتبين كنهها ومغزاها تمامًا، وهو يسأل: "هل سأراكِ في المرة المقبلة التي تحضرين فيها إلى ديرن؟".

قلت وأنا أمد يدي لنتصافح: "نعم. أطبق فمك وقد تنجو بحياتك".

قال بابتسامة بسيطة: "سوف أحاول ذلك".

وانزلقت يدي من يده، وفتح سينت الباب المفضي إلى الشارع، حيث راح صبيان يراقبان كلوف كأنهما طائران جاثمان على فرع شجرة، لكنه تجاهلهما، وسحب نفسًا أخيرًا من غليونه قبل أن يفرغ المسحوق المحترق على الأرض ويدهسه بكعب حذائه.

وشرعنا في المسير صوب الجسور دون أن ينبس أحد بكلمة، وتبددت الحرارة الرطبة المحبوسة في وادي الضنك حين ارتقينا السلم المفضي إلى شبكة الجسور في الأعلى، حيث حلت بدلًا من الحرارة لسعة برد تحملها الرياح في هَبة خُيل إليَّ أنها آتية من مدينة باستيان. كنت مجهولة وسط آلاف الوجوه التي تجوب هذه المدينة، لم يكن ثمة شيء يميز مظهري، وقد وجدت عزاءً في ذلك، حتى إنني أحسست للمرة الأولى بأنه من الممكن مواصلة حياتي على هذا النحو، مجرد مجهولة.

دبت الحركة في السوق، التي ازدحمت بالناس مع وصولنا إلى مقر مجلس التجارة. لقد انغمست المدينة في أنشطتها الروتينية اليومية، وقد أحسست راحة حيال استمرارية الحياة هكذا على الرغم من كل شيء. أحسست بأن كل ما يواجهني من صعوبات - هذا الاستدعاء للتحقيق، وهذا الاتهام الموجَّه لسينت، والعقد الذي وقعته مع زولا - مجرد تموجات عابرة في تيار الحياة الهادر. رأيت كل تلك الصعوبات كأنها بصيص ضوء خابٍ في العتمة، يعقبه بزوغ الفجر ثم نور الصباح، كما يحدث في السماء يومًا تلو آخر.

وتوقفتُ أمام باب المقر، وكان سينت عن يساري، وكلوف عن يميني. ثم قلت لسينت: "هل أستطيع إخبارك بشيء؟" وابتسمتُ ابتسامة لعوبًا وقلت: "أنا سعيدة لأنني دخلت الحانة

في تلك الليلة".

لكن سينت لم يرد عليَّ مباشرة، بل رنا إليَّ وعيناه تتواثبان جيئة وذهابًا على محيَّاي، ثم قال: "وكذلك أنا".

وفتح كلوف الباب، فتناهت إلينا همهمات من الداخل. خوت الردهة التي تفضي إلى غرفة انعقاد الجلسة، ثم شققنا طريقنا فيها مرورًا بصور أعضاء النقابة المعلقة على الجدران، فبدا لنا الحشد، حيث اكتظت الغرفة بالحضور، ومن ثم اضطربت وتيرة خطوات سينت وتباطأت.

مر بصري بالغرفة الطويلة حتى استقر على أعضاء مجلس التجارة الجالسين أمام الجدار المقابل.

ترامى صوت كلوف العميق من ورائنا قائلًا: "إنه أول اتهام يوجَّه إلى تاجر من أبناء منطقة المضايق، لم يود أحد أن يفوِّت تلك السابقة كما أرى".

إنه محق، لقد صارت لسيروس قوانينها وقادتها الآن، ومشاهدتهم وهم منخرطون في العمل ستكون مشهدًا جديدًا مثيرًا بعض الوقت، وسيرغب جميع تجار المدينة في مشاهدة زعماء النقابات وهم يضطلعون بواجباتهم.

خفتت الأصوات ونحن نشق طريقنا وسط الحشد، وبدأت الهمسات تملأ أركان الغرفة الضخمة. وظللت قريبة من سينت، ومن ورائي كلوف، وحين بلغ سينت وسط الغرفة اتجهت إليه عيون أعضاء مجلس التجارة.

وعبر الأرضية المبلطة كان زولا منتظرًا بالفعل، وعيناه السوداوان مثبتتان عليَّ، وقد لاحت على شفتيه ابتسامة سخرية كشفت عن جزء من أسنانه. لقد توعدنا وأوفى بوعيده، والنظرة المرتسمة على محيَّاه أكدت ثقته بالنصر.

وإلى جواره جلس لاندر؛ التاجر الذي رأيته في سوان. كان يرمق سينت بحذر، ويده المصابة ملفوفة بحمَّالة تضمها إلى صدره، وقد بدت عليه أمارات الخوف، وكأنه يخشى أن يأتيه سينت ويخنقه. لم أكن لأفاجأ لو فعل ذلك.

احتدت نظرة زعيم نقابة الأحجار الكريمة وهو يرمقني أثناء صعودي إلى المنصة بجوار سينت، وانتصب جذعه وهو جالس على كرسيه. لقد تعرف عليَّ، وكان من شأن ذلك أن يُزيد من تعقيد الأمور.

وراح يمحِّصني ببصره هنيهة قبل أن يميل جانبًا ويهمس بشيء في أذن المرأة المجاورة له. بيد أن انتباهها ظل متركزًا على الورقة المبسوطة أمامها.

ودوَّى صوت المطرقة الثقيلة في الغرفة، فهدأت الهمسات رويدًا رويدًا. وبدا أن الحضور قد أتوا إلى هنا قصدًا للعمل أو التسلية، ولاح عدم الاكتراث على وجهين فقط؛ سينت وكلوف. لكن سيتعين عليهما تعلم لعب هذه اللعبة في نهاية المطاف، ولا بأس في أن يتعلماها الآن.

نهض الرجل عند نهاية الطاولة قائلًا: "قبطان السفينة أستر. تقدم من فضلك".

امتثل سينت، وتقدَّم حتى حاذى حافة المنصة بطرف حذائه، ودبت حركة بادية في عضلات فكِّه.

وتابع الرجل: "لقد وُجِّه إليك اتهام رسمي من طرف قبطان السفينة لونا، وذلك بتهمة الاستيلاء على فرد من أفراد طاقمه بموجب عقد سارٍ"، وسحب ورقة، وأمسك بها في الهواء، ثم قال: "جرَّافة".

ارتفعت الهمهمات مرة أخرى مع نظر الحشد نحوي، وأحسست بامتنان لدايا؛ لأنها زوَّدتني بهذه الثياب التي أرتديها، إذ للمرة الأولى أتماهى في المظهر مع أهالي منطقة المضايق، ولم يبدُ عليَّ أي أثر لمنطقة البحر المجهول.

ثم جرى بعينيه على الورقة التي بين يديه بحثًا عن اسم الشاهد، وقال: "لدينا شاهد هنا، هو لاندر..."

قاطعه سينت قائلًا: "لن يكون ذلك ضروريًّا".

وعبر الغرفة بدا لاندر مرتاحًا لذلك. فما من أحد يدري ما الذي قدمه زولا له كي يأتي به للشهادة ضد سينت، لكن كل من ينظر إليه يرى أن الرعب الذي تملَّكه.

ثم تحدث إدجار مورانتون، زعيم نقابة الأحجار الكريمة، وقال: "هل لديك رد على هذا الاتهام إذن؟".

أجاب سينت: "كلا".

تنهد الرجل الأول بنفاد صبر، وسأل: "حسنًا، هل الاتهام حقيقي".

أجاب سينت: "بلى"، وترددت إجابته المباغتة في الغرفة، إذ جالت نبرته العميقة في الأرجاء تشق الصمت المخيف.

وصوَّب زعماء النقابة أعينهم جميعًا عليه الآن، لم يفهموا نية ذلك الرجل الذي ينتقي كلماته بعناية، ويحاول تحقيق مآربه بقول الحقيقة، لم يفهم أحد ذلك.

جعل إدجار يعبث بيديه في الورقة الموجودة أمامه وهو يلقي نظرة في اتجاهي، وقال: "الحق أنني أشعر بخيبة أمل".

أما المرأة الجالسة عند نهاية الطاولة من الطرف الآخر، فطوت يديها فوق الطاولة، وقالت: "لم يكن ذلك ما قصدناه حين قلنا إنه سيتعين عليك اختيار طاقمك"، وكانت اللافتة البرونزية الموضوعة أمامها تحمل ختم نقابة صانعي الأشرعة.

لكن سينت لم يحر جوابًا، ولاذ بالصمت.

أما أنا فقد تقدمت وقلت: "أنا من وقَّعت العقد وأنا من انتهكت بنوده، أنا وحدي، ولم يكن لقبطان السفينة أستر أي علم بذلك".

تصلَّب جسد بجواري، وهبطت عيناه على حذائي.

وأردفت المرأة بكلمات أشد حدة: "للأسف لن تكوني الشخص الذي سيدفع جزاء ذلك. إن القبطان مسئول عن سفينته وطاقمه، إنه الشخص الذي يحمل الترخيص التجاري، ويخضع لقوانين هذا المجلس".

عندئذ قال سينت مستعيدًا جذب أبصارهم نحوه: "أنا مستعد للتعويض". وأحسست بالارتياح لأنه صرف انتباه الحضور عني، وقد امتننت لذلك، إذ كلما طال وقوفي هناك، ازداد شعوري بنظرات التجار من حولي وهي تتفحصني.

أومأ الجالس عند الطرف الآخر من الطاولة برأسه قائلًا: "جيد. ستمضي الأمور ببساطة إذن. سوف تدفع غرامة إلى المجلس مقدارها..."

قاطعه سينت قائلًا: "أود شراء العقد".

عندئذ تجمدتُ في مكاني، بالتأكيد أخطأتُ السمع.

وأفلت الرجل الورقة متسائلًا: "شراؤه؟".

قال: "هذا صحيح".

نظر الرجل إلى أسفل العقد الذي لا يزال مفتوحًا أمامه، وأعاد قراءته، وقال: "هذا مبلغ كبير يا بني".

قال سينت: "لا أملك نقودًا".

والتقت عيناي بعيني كلوف الذي تغضن جبينه بشدة حتى بدت التجاعيد عليه كأنها محفورة بسكين، لم يكن تحيُّره أقل من حيرتي.

ضحك زعيم نقابة الحدادين قائلًا: "حسنًا، ما المقابل الذي تخطط لتقديمه لشراء العقد إذن؟".

دس سينت يده في سترته وسحب ورقة مطوية، وأمسك بها، كانت الورقة مربوطة بخيط غليظ، لكن الحبر الأسود على حواف الورقة كان باديًا. لم أتعرَّف على ماهية الورقة.

نظرت إلى كلوف، فوجدت وجهه قد شحب تمامًا.

ثم همستُ منادية إياه: "سينت".

لكنه نطق الكلمة بسرعة البرق الخاطف: "سفينة".

تسارع خفقان قلبي حتى أحسست بالدوار، وشعرت بالمنصة تمور من تحتي.

ساد صمت شامل في الغرفة، كان هذا آخر شيء يمكن أن يتوقعه أحد.

واصل سينت كلامه: "هناك رصيف في ديرن ترسو عنده سفينة حديثة الإنشاء جاهزة للإبحار. وفي يدي وثيقة الملكية".

نهضت زعيمة صانعي الأشرعة، وارتكزت بيديها على الطاولة، وقالت: "سفينة، من أجل جرَّافة؟".

رنا إليها سينت، وترك صمته يجيب سؤالها، لم يكن فقط حذرًا في كلماته، بل لم يكن يحب تكرارها أيضًا.

ولم يتلقَّ أحد الصدمة بأشد مما تلقاها زولا، إذ تململ في وقفته، واحتقن وجهه بحمرة تزداد قتامة دقيقة تلو أخرى.

حاولت مناداته مجددًا وأنا أبقي صوتي خفيضًا: "سينت".

ومددت يدي إلى كم سترته، بيد أنه تجاهلني، وشق طريقه صوب الطاولة التي يجلس خلفها أفراد المجلس. وسلم الوثيقة إلى زعيمة نقابة صانعي الأشرعة، وحدجته مليًّا قبل أن تفتح الوثيقة وتقرأ الكلمات المسطورة فيها، وحين أتمت القراءة انطلقت عيناها صوب إدجار.

قالت: "يبدو أنها وثيقة امتلاك حقيقية".

لوَّح زولا بيده نحو سينت قائلًا: "لا يمكن أن يكون هذا حقيقيًّا... لا أتخيل أنكم قد تسمحون بمثل هذه السخافة...".

لكن المرأة قاطعته قائلة: "هل تخبرنا بأنك لا تعتقد أن قيمة سفينة أكبر من قيمة عقد عمل جرَّافة لمدة عام؟".

قال وهو يعض على أسنانه: "لا، ليس هذا ما أقوله".

عادت المرأة تتحدث إلى سينت مرة أخرى: "أريد منك أن تكون على بينة تامة من عناصر القضية يا سيدي. لقد وُجِّه إليك اتهام بالاستيلاء على جرَّافة يربطها عقد عمل بقبطان آخر، والتعويض عن ذلك يتمثل في غرامة مقدارها ثمانمائة عملة نحاسية وعودة الجرَّافة إلى السفينة التي يربطها بها عقد عمل".

قال: "أفهم ذلك".

تابعت المرأة: "لكنك تريد شراء عقد العمل بدلًا من ذلك؟ مقابل سفينة كاملة؟".

قال: "أرى أنها صفقة مُنصفة".

عقبت وهي تنظر إلى زولا: "أرى أنها أكثر من مُنصفة بعض الشيء. إن السفينة أستر إلى جوار السفينة لونا تكون بداية أسطول. هل هناك أي سبب يجعلك تجد عوارًا في هذا العرض؟".

قال بامتعاض: "لا".

عند ذلك التفت سينت ناحية زولا الذي بدا كأنه سيسقط من فوق المنصة، ومد يده قائلًا: "اتفقنا إذن".

من شأن التمادي في المجادلة أن يجعل أعضاء المجلس يتساءلون ما الذي يجعلني ذات قيمة كبيرة إلى هذا الحد، ولن يخاطر زولا بذلك. رجوت أن يكون الأمر على هذا النحو.

بلع ريقه بصعوبة قبل أن يهبط من المنصة متجهًا إلى الأرضية، وصافح سينت. وتزاحم التجار للخروج حين فتحت الأبواب، ونهض أعضاء مجلس التجارة وأخذوا يجمعون دفاترهم وأوراقهم.

أما أنا، فظللت واقفة هناك في جمود وسينت عائد نحونا، ثم وضع يده على ظهري وراح يقودني عبر الغرفة. تغلغلت أنفاسي في رئتيَّ بدرجة كبيرة، وتسارعت جدًّا في الوقت ذاته، وأحسست بحرارة شديدة في الجو.

ولم أستوعب ما حدث من فوري إلا بعد أن خرجت للشارع، وضرب ضوء الشمس وجهي، عندئذ قلت همسًا: "ما الذي تفعله بحق الجحيم؟ ارجع وأخبرهم بأنك غيرت رأيك، وأنك لن تمنحه السفينة أستر".

لم يرد إلا بكلمة واحدة: "لا".

نظرت إلى كلوف متوقعة منه أن يوافقني، بيد أنني لاحظت طيف ابتسامة ماكرة على شفتيه وهو يردد بصره بيننا، لقد فهم شيئًا هنا لم أفهمه.

وسألني سينت بصوت منخفض: "هل كنت تقصدين ما تقولين حين قلتِ إنك تريدين تشييد شيء لا سيطرة لهم عليه"، ونظر في عينيَّ منتظرًا الجواب.

تنهدت عميقًا وأجبته: "بلى".

قال: "وأنا كذلك".

هذه المرة عندما نظرت إلى كلوف هز كتفيه فقط، وقال: "إنه القبطان"، والتمعت عيناه بذلك البريق مرة أخرى.

أخذت أنظر إليهما كل على حدة وقلت: "أنتما مجنونان، كلاكما".

ولم ينفيا ما قلت. وأنَّى لهما أن ينفياه؟

وبغتة ارتطم بي شخص بقوة، فاختل توازني، وأحسست بألم شديد في ذراعي قبل أن أستدير بترنح، فوجدت وجه زولا أمامي، ويداه تسحبانني من السترة مع طوفان الناس المتجهين إلى السوق، وسرعان ما وصلنا إلى الزقاق الجانبي قبل أن أتمكن من الوقوف على قدمي باتزان.

وحالما أفلتني طوَّح قبضته إلى الوراء وهوى بها على وجهي، فزاغ بصري، وصُمَّت أذناي، وأنا أتهاوى على جدار بيت من خلفي، ثم سقطتُ على الأرض وأنا أضغط على فمي بيدي، وأحسست بطعم الدم يغطي لساني بالفعل.

وما هي إلا لحظة حتى اندفع سينت وكلوف خلال تيار الناس المتدفق، وسحب سينت سكينه وهو يتجه صوب زولا، لكن كلوف أمسكه من سترته واجتذبه إلى الوراء قبل أن يشق سينت السكين أحشاء زولا.

ودوى صوت كلوف في تحذير وهو يضع نفسه بين سينت وزولا: "لا. إن قتلته، فسيذهب كل ما فعلته في الداخل سدى"، وبجهد استطعت سماع كلماته التي كانتتزاحم طنين أذنيَّ.

مسحتُ شفتي بكم سترتي، وأنا أنهض مترنحة، وقلت لسينت: "إنه محق، دعك من هذا".

لقد كان جميع تجار سيروس تقريبًا حاضرين في تلك الغرفة منذ قليل، وإذا اختفى زولا فجأة فلن يشك أحد في المسئول عن اختفائه، ولن يقبل مجلس التجارة أي تعويض عن جريمة كهذه.

ومد كلوف يده طلبًا للسكين، وتردد سينت قبل أن يسلمه إياها. ولكن قبل أن تنغلق يد كلوف على مقبض السكين، كان سينت قد طوَّح قبضته وهوى بها على فك زولا.

فطاح رأس زولا جانبًا، وسقط على ركبة واحدة والدم ينزف من شفته في دفق مستمر على التراب تحت قدميه، وكان صدره يعلو ويهبط في ذعر الآن، تتقد عيناه بشرر متطاير.

وعند مدخل الزقاق وقف لاندر يرمقنا بعينين متسعتين، ويده المصابة ما زالت مضمومة إلى أضلعه.

ثم صوَّب كلوف سكين سينت نحو زولا، وقال: "المسها مرة أخرى وسوف أقتلك بنفسي، تلك القوانين التي تتحامى فيها لا تسري على مَلّاح".

فبصق زولا على الأرض، وامتد خط من الدم يتقاطر من ذقنه على الأرض، ثم قال وهو ينظر نحوي: "لن أضطر إلى ذلك. إن البحَّارة التابعين لوالدتك يمشطون منطقة البحر المجهول بحثًا عنك، وكل ما عليَّ فعله هو الذهاب إليها وإخبارها".

غاص قلبي في أعماقي. إن الخسارة التي مُني بها أمام مجلس التجارة سوف تكلفه النقود التي ينتظرها حين يسلمني إلى أوليفر ديورانت. وأيًّا يكن المبلغ، فسيكون مبلغًا زهيدًا قياسًا إلى غضبة سيمون التي ستجعل منه عدوًّا له.

وأضاف زولا: "أتساءل ما الذي ستعطيني إياه مقابل المعلومة التي سأخبرها بها".

قلت: "أنا أعرف بالضبط ما ستعطيك إياه، سوف تعطيك نصلًا في صدرك".

عندئذ تحجرت نظرته.

وتابعت: "كل ما عليَّ فعله أن أخبرها بالسفينة التي ركبتها لمغادرة باستيان".

لقد أوقع زولا نفسه في ورطة بإبرامه تلك الصفقة، وأعرف من نظرة عينيه أنه يعلم ذلك. وعلى الأرجح أنه لن يبحر إلى منطقة البحر المجهول مرة أخرى مجددًا في حياته.

ساعدني سينت على النهوض، ومسح الدم من فمي بإبهامه، ثم أجرى مفاصل أصابعه برفق على جلد خدي الرقيق، فأحسست بالكدمات.

قلت وأنا أرجو أن يكون صوتي متحليًا بثقة مقنعة: "أنا بخير".

وتنحى جانبًا وهو ينتظرني أن أمضي أمامه قبل أن يتبعني صوب الشارع الرئيسي، وحين وصلنا إلى مدخل الزقاق تقهقر لاندر إلى الخلف، لكن سينت توقف أمامه حين ارتطم ظهره بالجدار.

ثم قال له: "أنت مدين لي. ويومًا ما، حين لا تتوقع أنني سأطالبك بهذا الدين، عندما تتيقن من أنني قد نسيت..."، وخطا خطوة أخرى نحو لاندر الذي تلوَّى وجهه، ثم واصل: "سيكون ذلك هو الوقت الذي سأجعلك تسدد الدين فيه".

31 سينت

لم أشعر بالانتماء إلى ريفين من قبل كما أشعر بذلك الآن.

علا صرير من السفينة، وفرقعة من الأخشاب والصواري في مواجهة الرياح التي تدفعنا إلى ديرن. كان مخزن الشحن خاويًا، لكنه لن يبقى كذلك فترة طويلة، وفي غضون أسبوع سوف يمتلئ بالجاودار والحبوب وأسماك الصيادين. سوف نتاجر بكل ما نستطيع نقله إلى سوان وسيروس.

ساد السفينة صمت، حتى ناش تحلَّى بالحصافة الكافية لإطباق فمه ونحن نرفع الشراع الجديد الذي يحمل شعارنا. كان من المفترض أن يحلِّق الشعار فوق السفينة أستر، ولكن حين رأيته يحلِّق فوق السفينة ريفين أحسست بأنه في المكان المناسب. وبطريقة ما قد وُلدنا على هذه السفينة، أنا وكلوف، وكان من المناسب أن تحملنا عبر منطقة المضايق في أول رحلة لنا بصفتنا تاجرين يحملان ترخيصًا تجاريًا.

لم تأتِ إيزولد إلى غرفتي إلا بعد أن غاب الساحل عن الأنظار من ورائنا، إذ وقفتُ عند الباب وأنا أسجل المبلغ الذي أخذته من أوليفر ديورانت في دفتر الحسابات، وأسدد العجز المالي للمرة الأولى منذ أسابيع.

قالت بصوت خفيض: "ربما لا تزال ثمة طريقة لاستعادة السفينة".

تركت ريشة الكتابة، وأغلقت الدفتر، ورفعت بصري إليها. كان شعرها معقوصًا خلف أذنيها وأطرافه تلامس كتفها. ولم أعرف ما إذا كنتُ قد رأيتُ تلك النظرة على مُحيَّاها من قبل، كأنما يخالجها شعور بالذنب.

قلت: "لا يهم".

فأومأتْ إلى غرفتي الصغيرة، وقالت: "بل يهم. أنت بحاجة إلى سفينة".

وندَّ صرير عن السفينة وهي تميل بعض الشيء كأنما تنصت إلى الحديث.

قلت: "لا أحتاج إلى تلك السفينة".

ضيَّقت عينيها وهي ترمقني أثناء دخولها إلى الغرفة، وسألت: "ما الذي يعنيه ذلك؟".

قلت: "إن السفينة أستر من طراز شونر، مناسبة لحمل الحمولات متوسطة الحجم وعبور المياه العميقة في منطقة المضايق، أما نحن فنحتاج إلى سفينة يمكنها الإبحار في المياه الضحلة ببحر شرك العواصف".

فتمتمت وقد بدا أنها استوعبت الفكرة: "تحتاج إلى سفينة من طراز بريجانتين".

كان هذا بالضبط ما يدور في خلدي؛ سفينة مصممة كي تقل مقاومتها للماء فتكون حركتها أكثر سلاسة، ويمكن المناورة بها في الرياح المباغتة. أما أستر فلم تُصمم لذلك.

أفلتت ضحكة صغيرة من شفتيها، وقالت: "بالطبع".

ونهضتُ وسرت حول المكتب حتى وقفت أمامها. لقد بدأت أحس بأنها جزء لا يتجزأ من حياتي، وشعرت بأنها أندر من هذا الحجر الكريم الكامن في جيبي.

قلت: "كما أنني لا أريد الإبحار بسفينة لستِ على متنها".

ابتسمت وقالت: "إذن أين عقدي؟".

قلت: "لن أوقع عقدًا، ليس معك. أريد أن يكون وجودك هنا معي بمحض إرادتك، وفي اللحظة التي يتغير فيها ذلك، فأنت حرة في المغادرة".

رنت إلى وجهي مليًّا، وساورني قلق لحظة من أنها كانت تفكر حقًّا في حقيقة إرادتها.

سألتني: "إذن هذا كل شيء؟ لا صفقات أو عقود أو وعود؟".

تتبعت ببصري النمش المصطف على خدها، وقلت: "ثمة وعد واحد عليكِ أن تعديني به".

رفعت ذقنها منتظرة وأنا أدس يدي في جيبي وأسحب الحافظة التي أعطتني إياها، وحين أدركتْ الأمر رمقتني بارتباك، وتساءلت: "ماذا؟".

بلعت ريقي وأنا أمد الحافظة ناحيتها، وقلت: "لا تخبريني أبدًا من أين حصلتِ على هذا الحجر".

لاحت على شفتيها ابتسامة خفيفة كأنني أمازحها.

عندئذ بدا صوتي عميقًا وأنا أقول: "أنا جاد يا إيزولد. عديني بأنك لن تخبريني بذلك أبدًا".

تساءلت: "لماذا؟".

لقد أمعنت التفكير في الأمر وقلَّبته على وجوهه مِرارًا. كان هذا الحجر يمثل الحل لمشكلات جمة، من شأنه أن يقلب موازين العالم إلى الخير قبل أن يدمره مرة أخرى. لم أكن من ذلك النوع من الرجال الذي يحسب تكلفة الأمور، ويلتزم التروي في التفكير في العواقب إذا حاز مثل هذه القوة الجبارة. لقد تخليت عن سفينة من أجل هذه الفتاة بلا تردد، وسوف أتخلى عن بحر كامل من أحجار قلب الليل هذه من أجلها إذا اضطررت إلى ذلك، وقد حدثتني نفسي بأن الأمر قد يصل إلى هذا الحد في نهاية المطاف.

وضغطتُ الحافظة في يدها، وقلت: "ثمة أشياء ينبغي عدم ائتماني عليها. عديني".

التقت عيناها بعينيَّ فترة طويلة وهادئة قبل أن تشتبك أصابعها بأصابعي، وهي تقول: "حسنًا، أعدك".

وارتكزت على أصابع قدميها وقبَّلتني، وطوقت رقبتي بذراعيها وتعانقنا طويلًا.

وقد كان هذا العناق مختلفًا، ليس كالسابق، حين كنت أحاول الحيلولة دون ابتعادها. لقد صارت هي المرفأ الذي أرسو عنده، المأوى الذي ألوذ به، ولم أكن أعرف ما إذا كان البحر هو الذي وهبني إياها أم أنها كانت مصيرًا اصطنعته بنفسي لنفسي. ثمة جزء مني لم يكترث بالجواب.

أعادت تكرار جملتي التي كنت قلتها، أعادتها همسًا وشفتاها بالقرب من شفتيَّ، كلمات ظننت ذات مرة أنها قد تفضي بي إلى الهلاك يومًا ما: "أنا أردتك أيضًا، منذ اللحظة التي رأيتك فيها".

والآن، قد صار الظن يقينًا.

32 سينت

بدا رصيف روزاموند كالمقبرة دون السفينة أستر. كان هيكل السفينة شاهقًا هنا يكاد يلامس السقف، أما الآن فها نحن نرى السقف مفتوحًا من فوقنا على سماء المساء الوشيك، حيث لاحت في صفحة السماء أطياف من اللون الوردي والبرتقالي مع انحسار آخر ذيول الشمس، وتراءت لنا بعض السحب العابرة، وقد ظهرت النجوم من ورائها واضحة.

جلست رفقة كلوف وإيزولد على حافة الرصيف وأرجلنا تتدلى فوق الماء الذي كان يحمل السفينة أستر قبل بضعة أيام فقط، أما الآن فهي في طريقها إلى سيروس تحت قيادة بيرك. كان كلوف قد صعد إلى التلال المطلة على الميناء لمشاهدتها وهي تبحر، لكنني لم أقوَ على ذلك. إن دمي مخلوط بهيكل تلك السفينة، إنها مشيدة بعظامي. وسيبقى جزء من نفسي حيًّا في هيكلها ما دامت تبحر في منطقة المضايق، وحين تجد مستقرها في قعر البحر سوف تأخذ ذلك الجزء معها.

رفع كلوف زجاجة الجاودار، وأعاد ملء كئوسنا. لقد أخذنا إحدى أفضل الزجاجات من الحانة، وكانت خطتنا الوحيدة من الآن حتى الصباح هي تجرعها، لن يقطع هذه الخطة إلا اللقاء الذي سأحضره في الحانة.

تساءل كلوف وهو يتجرع كأسه: "كم المبلغ الذي سنحتاج إليه؟".

لقد انكببنا أنا وإيزولد على دراسة الأمر ساعات، وقد أمعنا التفكير في الخطط التي يجب أن تُنفذ معًا كي يتسنى لنا الشروع في تجريف بحر شرك العواصف. أمعنا التفكير في كل شيء، من معدات ونقود وجداول زمنية.

أجابته إيزولد: "مائة عملة إضافية أو نحو ذلك".

ندَّ صوت صفير عن كلوف وهو يصب كأسًا أخرى.

أول مرة أخبرت فيها كلوف بفكرة إيزولد لتجريف بحر شرك العواصف بدا كأن إعياءً سيصيبه. فلم يكن الصيادون من قرية كراجسماوث يبحرون في تلك المياه؛ لأنها تزخر بأرواح الموتى. إن الممرات المائية الضيقة تُشكل تلك المنطقة، وتنبثق منها صواري السفن الغارقة، كما تحتوي على شعاب مرجانية حادة شبيهة بالأنياب التي التهمت عشرات السفن، وتنجرف السفن إلى المياه الضحلة بفعل العواصف العاتية المتقلبة. وما من أحد يدري نوع الغنائم والثروات التي غرقت هنالك، ولم يجرؤ أحد مهما بلغت حماقته على اقتحام المنطقة بحثًا عن تلك الثروات.

إن هذه الثروات لن تجعلنا أثرياء فقط، بل ستكون كافية لتشكيل أول أسطول في منطقة المضايق يواجه ذوي الدم المملح الأوغاد الذين يستنزفون خيرات المنطقة.

قالت إيزولد: "إن الحبال وصناديق السحب ليست مجانية يا كلوف، ولا يمكننا الغوص والتجريف دونها".

عقب: "وبعدها سيكون علينا التفكير في نفقات صقل الأحجار والمعادن كي تكون جاهزة للتداول".

استلقت على الألواح الخشبية، وراحت ترنو إلى العوارض الخشبية من فوقنا، وهي تقول: "لن تكون نفقات كبيرة، فمعظم ما سنجده سيكون في هياكل السفن الغارقة، وسيكون أغلب الأحجار والمعادن فيها مصقولًا وجاهزًا بالفعل".

لم يخطر ذلك في بالي.

نظر إليَّ كلوف من فوق رأسها بعينين تلوح فيهما نظرة استحسان. يومًا تلو آخر كنا نعرف مقدار إلمامها بالتجارة والتجار وآليات عمل النقابات. إن قيمة تلك المعرفة تساوي عشرة أضعاف قيمة مهارتها في التعامل مع الأحجار الكريمة.

التفتت إيزولد برأسها نحوي، وسألت: "متى ستنهي رسم خريطة منطقة المضايق؟".

قلت: "في غضون شهر، أو ربما خلال شهرين".

قالت: "سيتسابق جميع القباطنة والتجار في منطقة المضايق على شراء عدة نسخ من تلك الخريطة".

كانت محقة في ذلك أيضًا. قلت: "يستحسن عدم الكشف عن مصدرها. أعرف مُزوِّرًا في سوان يمكنه تجهيز النسخ وبيعها".

تساءلت: "مُزوِّر؟".

ألقى كلوف الحبل البالي الذي كان يلفه حول إصبعه في الماء، وقال: "إنه يتحلى بمهارات تتجاوز مجرد تزوير العقود والتوقيعات، سيكون مفيدًا في هذا المسعى".

عادت تتساءل: "وماذا إذن؟ هل تأخذان نسبة فقط من الأرباح؟".

قلت: "إن أخذ نسبة من الأرباح هو الطريقة الأكثر أمانًا لجمع المال في هذه المنطقة". لقد تعلمت ذلك بعد عناء ومشقة وتكبد خسائر. وحالما يربط الناس مصدر ثروة كبيرًا بشخص ما، يكون هذا الشخص في خطر محدق. تابعت: "نسبة من أرباح الخرائط، نسبة من أرباح نقل أحجار هنريك، نسبة من أرباح نقل الجاودار... هذه هي السبل التي سنموِّل بها ما سنحتاج إليه من أجل عمليات التجريف".

كلاهما بدا راضيًا عن ذلك. كانت خطة محكمة، قائمة على دعائم متعددة، لا يمكن أن ينهار بعضها فوق بعض. وكانت تلك هي الطريقة الوحيدة لبناء العملية التجارية التي كنا بصددها.

تمتم كلوف: "في غضون عشر سنوات سوف نسبح في بحر من النقود".

فعقبتُ شاردًا: "لكن ذلك لن يكون كافيًا ما دامت التجارة قائمة في الأساس على الأحجار الكريمة".

جلست إيزولد مرة أخرى، واستدارت لتواجهني، وسألت: "ماذا تقصد؟".

هززت رأسي وقلت: "كنتِ محقة. الأحجار الكريمة ليست الحل. إن عدد تجار الأحجار الكريمة في منطقة البحر المجهول أكثر من عدد السفن في منطقة المضايق، وعندهم شعاب مرجانية أكثر منا كثيرًا يمكنهم تجريفها واستخراج المزيد من الأحجار، وعندهم أعضاء نقابات أكثر منا. ولن نتغلب عليهم أبدًا في هذا المضمار"، وواصلتُ مفكرًا في خاطرة بصوت مسموع: "لكن ربما لا يتعيَّن علينا ذلك".

أنصت كلوف بكل اهتمام الآن، واحتدت نظرته مع زيادة تركيزه، وسألني: "ما الذي يجول في خاطرك؟".

أخذتُ الزجاجة من يده، وقلَّبتها حتى صار الملصق أمام عينيَّ، وقلت: "ما الشيء الوحيد الذي يمكنك بيعه في أي ميناء بأية كمية؟".

أعطيت الزجاجة إلى إيزولد التي وضعت كأسها على الأرضية، وقالت: "الجاودار؟".

قال كلوف وهو لم يستوعب الفكرة التي أرمي إليها بعد: "نحن نتاجر في الجاودار بالفعل".

فسحبت الدفتر من سترتي وفتحته على الصفحة الأخيرة، وقلت: "ليس بالمستوى الذي أقصده".

حاول كلوف أن يطل من فوق كتفي ليقرأ ما في الدفتر وهو يقول: "أنا لا أستوعب".

قلت: "إن مستقبل منطقة المضايق لن يقوم على تجارة الأحجار الكريمة، أو الفضة، أو الحرير. ليس هذا مضمارنا"، وتسارعت الأفكار في عقلي وأنا أحلل الأرقام، وأقول: "لقد أقامت منطقة البحر المجهول قوتها على تجارة الأحجار الكريمة، ونحن سنقيم قوتنا على تجارة الجاودار".

تساءل: "كيف؟ إنه مجرد مشروب من مشروبات الحانات".

قلت: "ليس بعد الآن"، وأشرت إلى الزجاجة، وقلت: "في غضون سنوات قليلة يمكننا المتاجرة بالجاودار في باستيان".

عندئذ اتسعت عينا إيزولد حين استوعبت الفكرة، وتساءلت: "هل تظن أن ذلك يمكن أن ينجح؟".

قلت: "متأكد من ذلك".

وقال كلوف: "لكن لا توجد جهة تحكم تلك التجارة وتنظمها. حتى إن مزارعي الجاودار وصانعي المشروب ليست لهم نقابة حتى الآن".

فأغلقت الدفتر وسلمته إياه، وقلت: "ليس بعد. أرسل رسالة إلى إميليا. أخبرها بأن تزرع كل حقل يمكن زراعته في تلك التلال".

لاحت ابتسامة على شفتيه، وقال: "حسنًا"، وأردف متسائلًا: "وروزاموند؟".

قلت: "أخبرها بأننا نحتاج إليها أن تصنع أفضل سفينة شراعية".

عقَّب: "سيستغرق ذلك ما لا يقل عن عام. ربما أكثر".

قلت: "جيد. هذه تقريبًا المدة التي سنحتاج إليها لتسديد ثمن السفينة".

أعاد كلوف فتح الدفتر وقراءة آخر ما سجلته فيه، وقال: "سوف أحسب قيمة أول دفعة علينا تسديدها".

سحبت الساعة من جيبي لأنظر في الوقت، ثم قلت: "يجب أن أنطلق"، نهضتُ، فانزلقت يد إيزولد من فوق ركبتي.

ورفع كلوف عينيه من الصفحة قائلًا: "سوف تحتاج روزاموند إلى اسم للسفينة كي تسجله في العقد يا سينت".

أغلقت غطاء الساعة، ودسستها في جيبي مرة أخرى، وأجبته: "لارك"، وخرجت الكلمة من فمي بنبرة مهتزة، وأردفت: "سوف نسميها السفينة لارك".

ارتأيت أن تلك اللحظة الغابرة كانت بداية كل شيء؛ ذاك الطائر من فصيلة لارك الذي كانت جيفته مسجاة على متن السفينة، وذاك الصبي الذي ألقى بجيفته في الماء.

ودبَّت حركة انقباض في عضلات فك كلوف قبل أن يومئ لي إيماءة بدا عليها الاضطراب، ورأيته يبتلع ريقه قبل أن يكرر الكلمة: "السفينة لارك".

33 سينت

كادت عتمة المساء تكتمل وأنا أشق طريقي في الشارع، وهدأت الأجواء مع خمود جرس الميناء. سوف يتطلب الأمر بضع رحلات قبل أن يمتلئ مخزن شحن سفينتنا، لكن عيني جيريك كادتا تسقطان من محجريهما عندما رآني أسحب هذا الترخيص من سترتي، والحق أنني لمحت فيهما بصيصًا من الافتخار أيضًا.

قلت لنفسي إن السفينة ريفين سوف تصمد. سوف تبقى قادرة على الإبحار فترة كافية حتى تكون لنا سفينة أخرى تأخذنا إلى بحر شرك العواصف. وسوف يضمن البحر سلامة ريفين.

بلغت الحانة فوجدتها خاوية تقريبًا، إذ كانت لا تزال تنتظر توافد حشد المساء الذي سيتدفق من السوق، لكن عند الطاولة الأخيرة جلس زبون اعتاد الجلوس في هذا المكان ذاته.

ارتكز هنريك روث بمرفقيه على الطاولة، ويداه مشبوكتان أمامه، وهو يرنو إلى خارج النافذة المطلة على الشارع. كانت زجاجة الجاودار التي تحمل اسمي جاهزة بالفعل على منضدة الساقي، فأخذتها وأخذت كأسين من كومة الكئوس.

اشتعلت النيران في المواقد على الرغم من دفء المساء وانفتاح الأبواب، ما جعل النسيم يتدفق إلى داخل الحانة، فأخذت ألسنة اللهب تتراقص داخل الفوانيس ملقية بظلالها على الجدران.

لم يرفع هنريك عينيه نحوي وأنا أجلس على مقعدي، ولاحظت أن شعره الذي عادة ما يكون ممشطًا قد تطايرت خصلاته على جبينه الآن، ثمة شيء مختلف في هنريك اليوم؛

شيء يشي بالإهمال.

صببت الجاودار وأنا غير متأكد مما إذا كنت أرغب في معرفة ما يعنيه مظهره ذلك. لعله سمع بما حدث للأحجار الكريمة، أو عرف ما وقع في سيروس على مرأى من الملأ، وأيًّا كان الأمر، فلن يسره لا هذا أو ذاك.

وسحبت حافظة النقود من سترتي ووضعتها على الطاولة قبل أن أدفع الكأس تجاهه.

وأخيرًا طرف بعينيه، ثم قال: "جئت متأخرًا".

قلت: "كلا، أنت من جاء مبكرًا".

لاح طيف ابتسامة على شفتيه بطريقة جعلته أقرب بعض الشيء إلى حالته المألوفة، وقال: "أنت محق".

وتجرع الجاودار، ثم أنزل الكأس على الطاولة بقوة، فألقيت عليه نظرة ممحصة وأنا ما زلت أحاول فهم تلك النظرة التي تلوح في عينيه.

وسألته: "أتريد عد المال؟".

فأجاب: "كلا".

سألته مرة أخرى: "ما الذي سننقله هذه المرة؟".

قال: "لن نفعل. إنني أُصفِّي تجارتي في منطقة المضايق".

تصلب جسدي، وشُدت قبضتي على الزجاجة، وتساءلت: "تُصفيها؟ لماذا؟".

أجاب: "مات أبي".

قالها بجمود خالٍ من العواطف، حتى إنني شككت فيما إذا كنت قد سمعته خطأ وأسأت الفهم. بيد أن هنريك نظر في عينيَّ وترك نظرته تؤكد حقيقة الأمر، إذ لاح فيهما حزن وأسى؛ شعور أعرفه حق المعرفة.

فعزيته قائلًا: "خالص التعازي".

قال: "لا بد من وجودي في باستيان، وسوف أركز تجارتي هناك".

فأومأت وقلت: "مفهوم".

إن هنريك أكبر إخوته الأربعة، وخمَّنت أنه سيحل محل والده بصفته زعيم العائلة؛ لعل هذا كان المخطط دائمًا.

وقال: "كان اتخاذ هذه الخطوة مسألة وقت فقط".

بدا أنه يحاول طمأنة نفسه، كأن ثمة جرحًا مفتوحًا قد يندمل إذا ذكَّر نفسه بذلك.

وأضاف: "أعلمني إن احتجت أي شيء يمكنني فعله من أجلك".

ألقيت عليه نظرة ممحصة وأنا غير متيقن مما إذا كنت قد سمعت كلامه بطريقة صحيحة. كان ذلك عرضًا نادرًا وسخيًّا من جانبه، لكنني اكتفيت بالإيماء.

وأعاد ملء كأسه من غير أن ينتظرني حتى أتجرع كأسي وأملأ الكأسين. لقد انطوت الكلمات على معانٍ أكثر مما يفصح ظاهرها، انطوت على طلب يريد أن يطلبه.

سألته: "هل ثمة شيء تحتاج إليه مني؟".

حدق هنريك إلى كأسه ولفَّه مرة أخرى، ثم قال: "بلى".

أسندت ظهري إلى ظهر المقعد، وفتحت أزرار سترتي حتى ينعشني النسيم، أحسست بأنني بحاجة إلى ذلك. ثم قلت: "إذن، فأنا أيضًا أحتاج إلى شيء منك".

قال: "أخبرني إياه".

أخرجت حافظة إيزولد من جيب سترتي ومددتها نحوه. أخذ وقته في فتحها وأفرغها في يده المبسوطة، وحين تدحرج الحجر في كفه تجعد جبينه.

راقبته وهو يتفحص الحجر بضع ثوانٍ قبل أن يرفعه صوب الضوء، وتساءل: "ما هذا بحق الجحيم؟".

قلت: "لا يهم".

سألني: "ماذا تريد مني فعله؟".

أجبته: "أريد منك أن تضعه في شيء، شيء صغير يمكن حمله أو ارتداؤه، أي شيء يخفي ماهيته".

قال: "بوسعي فعل ذلك".

وراقبته وهو يعيده إلى الحافظة، وقلت بإلحاح: "لا أحد يراه غيرك. لا أحد".

قال: "حسنًا"، ودسه في سترته، وألحق به كيس النقود.

وصببت كأسًا أخرى قبل أن أسأله: "ما الذي تحتاج إليه مني لقاء تلك الخدمة؟".

مرر هنريك لسانه على شفتيه، وتغير سلوكه فجأة. وكنت على يقين من أنني لم أره بهذه الطريقة من قبل، وكأنه كان يخشي ائتمان أحد على ما سيقوله، ولا الهواء المحيط بنا ذاته. ثم قال: "ثمة صبي في حي الساحل. رضيع".

حدجته منتظرًا أن يكمل.

تابع: "أريد منك أن تحرص على انتشاله من براثن تلك المنطقة".

احتدم عقلي بمئات الأسئلة، ربما كان هذا آخر شيء توقعت أن يقوله.

سألته: "وكيف سأفعل ذلك".

قال: "أبقِ عينيك عليه، اجعله تحت رعايتك".

أنبأني حرصه على عدم النظر إلى عينيَّ بكل ما أحتاج إلى معرفته. كان له ابن في سيروس، من إحدى النساء في حي الساحل. وهذا سبب تردده على منطقة المضايق كل بضعة أسابيع. والآن بعد ترقيه في عائلة روث سوف يتركهما وراءه.

قلت: "بوسعي فعل ذلك".

لم أكن متأكدًا مما إذا كان يجدر بي قبول ذلك، بيد أنني لن أرفضه. لقد جازف هنريك بالوثوق بي حين لم يثق بي أحد، لقد أولاني ثقته وعلمني كيف أتاجر. وبالطبع فعل ذلك قصدًا لجني الأرباح، ولكن أظن بشكل قوي أنه أقدم على الوثوق بي دون موافقة والده.

قال: "شكرًا لك".

سادت فترة صمت قبل أن أنهض، وتركت الزجاجة مكانها كي يتجرعها حتى الثمالة. لقد كان في حالة يحتاج فيها إلى الانفراد بشرابه، وسوف أهيئ له ذلك.

شرعت في المسير صوب الباب، وتوقفت هنيهة قبل أن أعود أدراجي لأسأله: "هل لهذا الطفل اسم؟".

أجاب: "بلى"، وظلت عيناه مثبتتين على انعكاس الضوء في كأس الجاودار، وبلع ريقه بصعوبة قبل أن يرفع عينيه في عينيَّ، وأردف: "اسمه ويست".

خاتمة إيزولد

بدأ الأمر من بحر شرك العواصف، وكان لا بد حتمًا أن ينتهي عنده أيضًا.

استللت الإزميل من حزامي، وانطلق من بين شفتيَّ تيار متصاعد من الفقاعات. وأحسست بالاعتصار في وسط صدري يشتد ويشتد، كأنما رئتاي تنفتلان رويدا رويدًا.

ربما أمامي ثلاث دقائق قبل أن يتعين عليَّ العودة إلى سطح الماء، بيد أنني لن أحتاج إلى كل هذا الوقت، فمن شأن ضربتين متقنتين أن تكسرا قفل الصندوق ذي الإطار الحديدي الصدئ.

راقني العمل في الشعاب المرجانية وحدي خلال فترات ما بعد الظهيرة، حين يكون الماء دافئًا والتيار هادئًا. لقد مر يومان متتاليان دون هبوب عواصف على بحر شرك العواصف، ومن ثم كانت مياهه الفيروزية اليوم أكثر صفاء مما هو معتاد، إذ استقرت الرواسب بدرجة كبيرة حتى تسنَّى لي الرؤية عبر المياه كأنني أنظر عبر زجاج، كل شيء تحت السطح كان مغمورًا بشلالات من أشعة الشمس.

كان كل شيء مكتسيًا بطيف ذهبي، كأنما هو عالم خيالي. والمكان الوحيد الذي أحببته أكثر من الشعاب المرجانية كان الشبكة المعلقة في الصاري الأمامي من السفينة لارك، التي كنت أستلقي عليها في أحضان سينت معظم الليالي.

كان بوسعي رؤية بطن السفينة على ارتفاع لا يزيد على سبعة أمتار ونصف المتر من فوقي، حيث امتد بطن السفينة على سطح الماء بشكل بيضاوي داكن.

انكسر القفل تحت ضربة الإزميل، وانفجرت سحابة من الطحالب في الماء عكَّرت رؤيتي، وأنا أفتح الصندوق. كان ثمة حطام سفن أخرى أقدم من حطام تلك السفينة، التي ضعف خشبها غير أنه لا يزال متماسكًا. وداخل الصندوق اقتحمت يدي بقايا ورق مهترئ، ثم عثرت أصابعي على ما كنت أبحث عنه، علبة فاخرة صغيرة.

اشتد الانزعاج الذي استشعرته في صدري، وأخذت العلبة من الصندوق، ووضعتها في السلة المعدنية المجاورة لقدمي، قبل أن أجذب الحبل ثلاث مرات، وفي ثوانٍ كانت السلة ترتفع مبتعدة عني.

دفعت الأرضية بقدمي وانطلقت أتبعها بوتيرة ثابتة تسمح لجسدي بالارتفاع رويدًا رويدًا ليتكيف مع ضغط الماء المتغير. وعندما خرجت أخيرًا إلى سطح الماء شهقت شهقة قوية، وجعلت أطرف بعينيَّ حتى اتضحت رؤيتي.

وهناك وقف سينت متكئًا على سور السفينة يراقب كما اعتاد.

وقد نبتت لحيته بكثافة بعد قضائنا أسابيع في البحر، ما جعل عينيه الزرقاوين تلتمعان. وقال: "كنت على وشك النزول لأخذك".

ابتسمتُ وأنا ما زلت أحاول التقاط أنفاسي، وقلت: "لن تصمد دقيقتين تحت الماء".

وأدخلتُ قدمي في الحلقة الموجودة في طرف الحبل، وأصدرت ذراع الرافعة طقطقة وهي ترفعني من الماء، وتلقفتني الرياح، بيد أنني لم أشعر بتأثيرها لأنني غطست في الماء فترة طويلة.

كان كلوف جالسًا على العتبات المفضية إلى السطح العلوي من السفينة، وأسنانه تعض على ريشة الكتابة وهو يحدد بصمت أعماق الأخدود الذي كنا نعمل فيه. لقد استغرق الأمر قرابة العامين، لكننا أتممنا رسم خرائط ما يقرب من اثني عشر مسارًا من مسارات بحر شرك العواصف.

مد سينت يده إليَّ، وحين تشبثت بها سحبني إلى سطح السفينة، وراحت يده تتحسسان كتفيَّ وعنقي وخديَّ.

ثم قال همسًا: "أنتِ باردة يا حبيبتي".

سأل كلوف بعفوية: "شاي"، ونهض فسقط الدفتر من حجره على إحدى العتبات. أما سينت فلف اللحاف على كتفيَّ، وطوقني بذراعيه وجعل يفرك جسدي بيديه كي يعيد الدفء إلى أطرافي.

قلت وأنا أحاول ألا يرتجف صوتي من أثر شعوري بالبرد: "زمرد؟"، إذ كان بوسعي سماع الذبذبات الصادرة من داخل العلبة قبل فتحها.

أجاب سينت: "نعم، كمية كبيرة".

ولاحت على المكتب من ورائه الخريطة التي كان يعمل على رسمها. لقد كلَّف نجارًا في سيروس بصنع هذا المكتب بمواصفات خاصة كي يتمكن من وضعه بجانب السور، وهكذا تتسنى له رؤية سطح الماء أثناء غوصي. ولم أمانع، إذ كان ذلك يعني أن وجهه هو أول ما سوف أراه في كل مرة أعود فيه من مهمات الغوص.

كبحت الرغبة التي تحثني على لمس الخريطة بيديَّ المبللتين، لكن دائمًا ما كانت تروقني رائحة الحبر التي تفوح وهو يرسم. توشك هذه الخريطة أن تكتمل؛ رسم تفصيلي للساحل الوعر غربي سوان. وثمة مساحات مترامية في منطقة المضايق لا تزال هناك حاجة إلى أن تُرسم، وخُيل إليَّ أن سينت سيقضي معظم حياته في محاولة إكمال مسعاه. وقد كان هذا مسعى واحدًا من المساعي العديدة التي شرع فيها منذ أبحرنا في أولى رحلاتنا التجارية.

ظهر كلوف مرة أخرى قادمًا من الممر وهو يحمل كوب شاي تتصاعد منه ألسنة البخار، فأفلتني سينت كي يتسنى لكلوف وضع الكوب بين يديَّ.

ارتشفت رشفة صغيرة، وأكثر ما اهتممت به تأثير دفء كوب الشاي على أصابعي. ثم قلت: "يجب أن نعاود أدراجنا ونترك الباقي للشهر المقبل. فليس أمامنا أماكن كثيرة يمكننا تخبئة الأحجار الكريمة فيها".

قال كلوف وهو يلتقط الدفتر من العتبة والحبر لا يزال يلطخ بنانه: "إميليا في انتظارنا على كل حال، يجب أن نذهب إليها".

صار لدينا نظام في العمل. تجريف الثروات وبيعها، ولكن ليس كلها. نبيع بعضها والباقي نستخدمه في مصارف أخرى، بطريقة تجعلنا نتحاشى اجتذاب الانتباه، وفي الوقت ذاته نضخ في السوق ما يزيد من قوة تجار الأحجار الكريمة في منطقة المضايق في مواجهة تجار منطقة البحر المجهول. وتوقعتُ أن تكون نقابة الأحجار الكريمة في منطقة البحر المجهول في حيرة من أمرها بسبب انتعاشة سوق الأحجار الكريمة في منطقة المضايق، خاصة إذا كان معظمها مستخرجًا في الأصل من مياههم.

ثمة وجه مفارقة بين المنطقتين. إن الحكايات التي سمعتها في منطقة المضايق مختلفة عن الحكايات التي سمعتها في طفولتي، فالحكايات هنا لم تكن مجرد قصص عن التجار الذين يبحرون في مياه المنطقة، أو عن السكان الذين استوطنوا سواحلها، بل كانت عن البحر ذاته، عن محبته وغضبته، عن سخائه وقسوته.

ذات مرة أخبرني صاحب محل مُقايضة في ديرن بأن البحر يهب ويسلب، وأنه في مقابل كل حجر كريم يُستخرج من شعابه المرجانية ينتظر التعويض، وأنه صبور طويل البال، وينتظر طويلًا لتحصيل ديونه.

ما من سبيل لمعرفة عدد السفن الغارقة في تلك الشعاب المرجانية، ولا كم سفينة غارقة هنالك أصلها من منطقة البحر المجهول. المهم أن ثمة ثروة مطمورة مسلوبة من باستيان، ولم يخطر ببال أحد أن يأتي للبحث عنها، خاصة إن كانت بين أنياب بحر شرك العواصف.

بدا أن حطام السفن الغارقة ممتد على مسافة أميال، وهؤلاء البائسون الذين قادوا تلك السفن قد قضوا نحبهم منذ أمد بعيد، لكن بطون تلك السفن ما زالت تحوي الأحجار الكريمة والنقود، وقد استخدمناها لتشييد مركز تجارتنا في وادي الضنك، وعما قريب سنمتلك ثلاث سفن، هي الآن تحت الإنشاء في ديرن، وناش بنفسه يشرف على صنعها.

قد يكون البحر بطيئًا وصبورًا في طلب ديونه، لكن الحقيقة أن ثروة باستيان التي كانت قد استُخرجت من بطن البحر هنالك هي ذاتها ترقد الآن في بطن بحر شرك العواصف.

وخطرت لي هذه الخاطرة؛ إن ما قاله لي صاحب محل المُقايضة حقيقي، البحر يهب.

آمن سينت بأن البحر لن يخونه أبدًا. ثم إنه قد أعطى البحر قلبه، كما أعطاني إياه. بيد أن نفسي حدَّثتني بأن البحر لن يصبر إلى الأبد على أن يشاركه أحد هذا الحب.

ويومًا ما، كما وهب، لا شك سوف يسلب.

شكر وتقدير

إن تأليف هذه الرواية كان متعة خالصة، فشخصية سينت - من بين كل الشخصيات التي رسمتها في رواياتي حتى الآن - هي الشخصية الأقرب إلى قلبي، وحقيقة أن القرَّاء قد أُغرموا بها في روايتيْ فيبل و*Namesake* أسعدني غاية السعادة. ولهذا، يجب أن أوجِّه الشكر الأول - والأهم - إلى قرَّاء عالم رواية فيبل الذين لم يتركوا لي خيارًا سوى تأليف هذه الرواية. لقد كان كل قارئ منكم نُصب عينيَّ وأنا أكتب كل فصل. أشكركم من أعماق قلبي لإيمانكم بسلسلة الروايات هذه، ولن أنسى امتناني لكم أبد الآبدين.

وأتوجه بالشكر إلى كريستين دوير، التي أود تهنئتها تهنئة رسمية على تفانيها وإسهاماتها. جعلني العمل في هذه السلسلة أستحضر الأيام الخوالي، حين كنا ننكب على الكتابة في وقت متأخر من الليل في أحد المقاهي، ونتهامس: "ماذا لو...". شكرًا على كونك أكبر المعجبين بشخصية سينت، وخير المناصرين لها، وأشد الشغوفين بها. إنه ممتن لكِ.

وكذلك أتوجه بالشكر إلى فريقي كله في قسم وينزداي بوكس بدار نشر سينت مارتن، خاصة المحررة إيلين روتشيلد، إنني ممتنة غاية الامتنان لما قدمتموه من دعم مطلق لعالم منطقة المضايق. إن هذه السلسلة قد تحسَّنت بفضلكم.

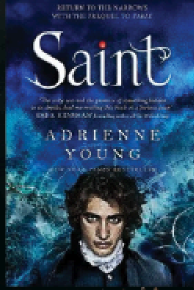
وكما هي الحال دائمًا، أتوجه بالشكر إلى وكيلة أعمالي باربرا بويل التي تشق الدروب المحفوفة بالصعاب لاستكشاف الإبداع، ولا تختار أبدًا الدروب السهلة بدلًا من دروب الإبداع التي تحتاج إلى التحلي بالجرأة. كانت هذه الرحلة ستصير مملة للغاية من دونك.

شكرًا لزملائي الكتَّاب الذين يمدونني بالإلهام دائمًا ولا يساورهم شك بشأن قدراتي، مثل الشك الذي يعتريني بشأنها أحيانًا. وأنا ممتنة امتنانًا خاصًّا إلى أدالين جريس وضيا ميشرا،

اللتين أسهمتا إسهامات بالغة الأهمية في البذرة الأولى التي انبثقت منها هذه الرواية، أشكركما على تقديم الدعم لي حين كنت بحاجة ماسة إليه، كما أتوجه بالشكر إلى جوردان جراي على ملاحظاتها القيِّمة التي قدمتها على المسودة الأولى لهذه الرواية، وإلى ناتالي فاريا، قارئة مسودات أعمالي التي لا تتوانى في تقديم كل التعليقات والملاحظات اللازمة.

وبالطبع، إن أكبر نصيب من قلبي محجوز لعائلتي دائمًا. أنتم النقطة الثابتة في الأفق التي أسترشد بها وأنا أشق طريقي. أحبكم.

الغلاف الخلفي



"نثر شِعريّ زاخر يتفنن في إبراز مواطن القوة ومكامن الضعف التي تَعتور الشخصيتين الرئيسيتين. سيستمتع القراء القدامى لهذه السلسلة والقراء الجدد على حد سواء بجوانب كثيرة مثيرة في هذه الحكاية الممتعة".

- مجلة كيركس

آثم. منقِذ. قديس

في صِباه، تعلم إلياس درسًا قاسيًا عما يحدث عند عدم اكتراثه بالأساطير القديمة.

بعد تسع سنوات من الحادثة التي أودت بحياة أبيه جراء عدم اكتراثه بالأساطير، غدا الصبي شابًّا صاحب إيمان، مع إجلال راسخ للبحر المقدس مُتقلب الهوى. تناقلت الألسن بين الموانئ حكايات ابن الصياد الذي يُفلت من أشد العواصف فتكًا، ومع ذيوع صيته بتشبثه بالأساطير والمعتقدات

وها هو ذا الآن، تفصله أيام معدودات عن تحقيق كل ما حلم به أبوه: سفينة خاصة، وطاقم إبحار، وترخيص يضعه في زمرة أوائل التجار المولودين في منطقة المضايق، ولكن عندما يتقاطع دربه بدرب شابة من منطقة البحر المجهول تعمل في التجريف وتكتم أسرارًا شتى؛ سوف يُمتَحَن إيمان إلياس امتحانًا لم يسبق له نظير. وكلما اشتد ولعه بها، ازداد

إنه قاب قوسين أو أدنى من تكرار أخطائه، وقد عاين بنفسه مدى ضراوة البحر الغيور. ولكي ينجو من انتقامه سيتعين عليه أن يقرر ما الذي يريده أكثر، حب الفتاة التي يمكنها تبديل وجه عالمهما المتغير، أم المعتقدات






ISBN 628-1072-14-038-0
6 281072 140380
282208750